بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ الَّذِي تَجْعَلُ الصَّعْبَ سَهْلًا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَوْلِ وَفِتْنَةِ العَمَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الإِعْجَابِ بِالقَوْلِ وَالعَمَلِ.

نَبْدَأُ القِرَاءَةَ فِي الأُصُولِ السِّتَّةِ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ شَيْخُ الإِسْلَامِ:

«مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ وَأَكْبَرِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ المَلِكِ الغَلَّابِ؛ سِتَّةُ أُصُولٍ بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى بَيَانًا وَاضِحًا لِلْعَوَامِّ فَوْقَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّونَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا غَلَطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ وَعُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَقَلَّ القَلِيلِ.

الأَصْلُ الأَوَّلُ

إِخْلَاصُ الدِّينِ للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ، وَكَوْنُ أَكْثَرِ القُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الأَصْلِ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ العَامَّةِ، ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الأُمَّةِ مَا صَارَ أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الإِخْلَاصَ فِي صُورَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِهِمْ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الشِّرْكَ بِاللهِ فِي صُورَةِ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ».

هَذِهِ هِيَ الأُصُولُ السِّتَّةُ العَظِيمَةُ الَّتِي أَلَّفَهَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَالشَّيْخُ -كَمَا تَعْلَمُونَ- هُوَ الشَّيْخُ الإِمَامُ، عَلَمُ الأَعْلَامِ، مُظْهِرُ السُّنَّةِ، وَأَعَزَّ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ بْنِ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيُّ، وُلِدَ سَنَةَ أَلْفٍ وَمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ، وَتَرَبَّى فِي بَيْتِ عِلْمٍ، فِي بَيْتِ أَبِيهِ، وَرَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى قُوَّةً وَحَافِظَةً لِلْعُلُومِ وَالْمُتُونِ، وَحَفِظَ القُرْآنَ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَرَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُ حَافِلَةً بِالطَّلَبِ وَالجِدِّ وَالاِجْتِهَادِ وَالعِبَادَةِ وَالعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ للهِ تَعَالَى؛ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَى سَنَةَ أَلْفٍ وَمِائَتَيْنِ وَسِتَّةٍ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَهَذَا الإِمَامُ العَلَمُ هُوَ الَّذِي جَدَّدَ الدِّينَ وَأَظْهَرَ السُّنَّةَ وَقَمَعَ البِدْعَةَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى الخَالِصِ للهِ تَعَالَى، مَعَ مَا وَاجَهَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُضَايَقَاتِ الشَّدِيدَةِ فِي دَعْوَتِهِ، لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَهُ وَمَكَّنَهُ حَتَّى ظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ،

وَهُوَ لَمْ يَأْتِ **بِجَدِيدٍ**، وَلِهَذَا لَمْ تَصِحَّ النِّسْبَةُ إِلَى أَنْ يُقَالَ «الدَّعْوَةُ الوَهَّابِيَّةُ» فَكَوْنُهَا تُنْسَبُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ **بِجَدِيدٍ** وَإِنَّمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى الأَصْلِ العَظِيمِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

فَلَا تَصِحُّ النِّسْبَةُ حِينَئِذٍ لِوَجْهَيْنِ: لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِجَدِيدٍ وَإِنَّمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَصْلٍ عَظِيمٍ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ النِّسْبَةَ صَارَتْ إِلَى أَبِيهِ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ لَا مَنْهَجًا وَلَا لُغَةً، فَقِيلَ: «الدَّعْوَةُ الوَهَّابِيَّةُ»، وَاسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ.

فَإِذَنْ هَذِهِ النِّسْبَةُ لَا تَصِحُّ، بَلْ هِيَ بَاطِلَةٌ، وَضَعَهَا أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ لِلطَّعْنِ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ، ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ**﴾[1].

وَكَانَ مِنْ آثَارِ دَعْوَتِهِ أَيْضًا قِيَامُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ المُبَارَكَةِ «المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ» مُنْذُ عَهْدِهَا الأَوَّلِ حِينَمَا اتَّفَقَ الإِمَامَانِ -الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ وَالإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ سُعُودٍ- عَلَى نُصْرَةِ الدِّينِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، فَكَانَ قِيَامُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ سَبَبًا مِنْ هَذِهِ الأَسْبَابِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى نِيَّةٍ خَالِصَةٍ لله تَعَالَى.

وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ -وَهَا نَحْنُ أَمَامَ جُزْءٍ مِنْهَا- لَهُ مَنْهَجٌ خَاصٌّ فِي التَّأْلِيفِ، فَمِنْ مَنْهَجِهِ: أَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَيْهِ النِّيَّةُ **الصَّادِقَةُ الخَالِصَةُ** لله تَعَالَى، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ حِينَمَا يُؤَلِّفُ مُؤَلَّفًا أَوْ يَدْعُو فَيَقُولُ: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ»، «اعْلَمْ وَفَّقَكَ اللهُ»، فَهُوَ يُرِيدُ النَّفْعَ **وَدَلَالَةَ** النَّاسِ إِلَى الخَيْرِ وَإِلَى الهُدَى وَإِلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ صِدْقِ النِّيَّةِ وَخُلُوصِهَا.

وَمِنْ مَنْهَجِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: أَنَّهُ دَعَا إِلَى العَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى وِفْقِ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَلَمْ يَأْتِ بِجَدِيدٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَإِنَّمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى الأَصْلِ العَظِيمِ.

وَمِنْ مَنْهَجِهِ: أَنَّهُ كَانَ يَعْتَنِي وَيَهْتَمُّ بِأُصُولِ الدِّينِ وَالمَسَائِلِ الكُبْرَى، وَتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لله تَعَالَى، وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ وَمُحَارَبَتِهِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ.

وَمِنْ مَنْهَجِهِ أَيْضًا: تَعْظِيمُ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَعْظِيمُ الصَّحَابَةِ، وَتَعْظِيمُ أَقْوَالِهِمْ، وَالتَّابِعِينَ كَذَلِكَ، وَالسَّيْرُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ، هَذَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ بَيِّنٌ فِي دَعْوَتِهِ وَفِي تَعْلِيمِهِ وَفِي تَأْلِيفِهِ لِلْمُؤَلَّفَاتِ.

وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ -الَّتِي هِيَ الأُصُولُ السِّتَّةُ- هِيَ الرِّسَالَةُ السَّادِسَةَ عَشَرَ مِنْ رَسَائِلِهِ العَظِيمَةِ الَّتِي أَلَّفَهَا وَكَتَبَهَا،

---

(١) سورة التوبة: ٣٢.

وَهِيَ ضِمْنُ **المَجْمُوعِ الَّذِي** لِلشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَسَمَّى هَذِهِ الأُصُولَ بِالأُصُولِ السِّتَّةِ؛ لِأَنَّ الأُصُولَ هِيَ جَمْعُ أَصْلٍ، وَالأَصْلُ هُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَيُؤَسَّسُ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[1] فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الأَصْلُ، وَهِيَ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، **وَغَيْرُهَا** مِنَ العِبَادَاتِ يُبْنَى عَلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، فَإِذَا صَلُحَ التَّوْحِيدُ وَاسْتَقَامَ اسْتَقَامَتِ العِبَادَاتُ، وَإِذَا اخْتَلَّ التَّوْحِيدُ اخْتَلَّتِ العِبَادَاتُ.

وَسَمَّاهَا المُؤَلِّفُ هُنَا بِالأُصُولِ السِّتَّةِ، وَهَذَا العَدَدُ لَا يُقْصَدُ بِهِ الحَصْرُ، وَإِنَّمَا هُوَ أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْلِيمِ، تَعْلِيمِ الطُّلَّابِ بِالأَعْدَادِ فِي العِلْمِ حَتَّى يَضْبِطُوهَا وَيَحْفَظُوهَا، فَإِذَا مَا تَلَوْهَا وَتَذَكَّرُوهَا عَرِفُوهَا بِالأَعْدَادِ، فَإِذَا عَدَّ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةً قَالَ: بَقِيَ وَاحِدٌ وَهُوَ السَّادِسُ. فَتَذَكَّرَ، وَهَذَا مَنْهَجٌ نَبَوِيٌّ أَيْضًا سَلَكَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَمَا كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَبَدًا**»[2]، وَقَالَ: «**اتَّقُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»[3] **وَغَيْرِهَا** مِنَ الأَعْدَادِ، إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَهَمَّ هَذِهِ الأُمُورِ، وَإِلَّا لَا **يُقْصَدُ** بِهَذَا العَدَدِ الحَصْرَ وَلَا الاِسْتِقْصَاءَ، وَإِنَّمَا هُوَ أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ العِلْمِ، أَوْ مِنْ أَسَالِيبِ تَقْرِيبِ العِلْمِ لِلْمُسْتَمِعِ وَلِلطُّلَّابِ.

بَدَأَ المُؤَلِّفُ بِالبَسْمَلَةِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» اقْتِدَاءً بِالكِتَابِ العَزِيزِ، فَإِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ أَوَّلُ آيَةٍ فِيهِ هِيَ البَسْمَلَةُ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

وَاتِّبَاعًا لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فِي مُكَاتَبَاتِهِ وَرَسَائِلِهِ، كَانَ يَكْتُبُهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ مَاجَهْ وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَحَسَّنَ إِسْنَادَهُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**»[5]، **وَفِي رِوَايَةٍ**: «**أَقْطَعُ**»، **وَفِي رِوَايَةٍ**:

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٤) سورة الفاتحة: ١، ٢.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٩)، وأبو داود في كتاب الأدب- باب الهدي في الكلام (٤٨٤٠)، والنسائي في «سننه الكبرى»

«أَجْذَمُ»، وَهَذَا فِيهِ اتِّبَاعٌ لِلسُّنَّةِ، فَالَّذِي يَبْتَدِئُ كَلَامَهُ وَحَدِيثَهُ بِغَيْرِ البَسْمَلَةِ فَقَدْ خَالَفَ السُّنَّةَ، وَالَّذِي يَبْتَدِئُ بِالبَسْمَلَةِ فَقَدْ وَافَقَ السُّنَّةَ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَكْتُبُ: «بِسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا﴾[1] كَتَبَ «بِسْمِ اللهِ»، ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ﴾[2] كَتَبَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ»، ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[3] كَتَبَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وَهَذِهِ البَسْمَلَةُ هِيَ مِنْ مَحَاسِنِ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ، دُعِيَ المُسْلِمُ إِلَى أَنْ يَبْتَدِئَ عَمَلَهُ بِهَذِهِ البَسْمَلَةِ لِيَنَالَ البَرَكَةَ وَالخَيْرَ مِنْ هَذَا الاِسْمِ العَظِيمِ، فَإِذَا تَوَضَّأَ يَقُولُ «بِسْمِ اللهِ»، وَإِذَا قَرَأَ يَقُولُ «بِسْمِ اللهِ»، وَإِذَا أَلَّفَ «بِسْمِ اللهِ»، وَإِذَا أَكَلَ يَقُولُ «بِسْمِ اللهِ»، وَإِذَا نَامَ يَقُولُ «بِسْمِ اللهِ»، فَالمُسْلِمُ هُوَ يُلَازِمُ هَذِهِ البَسْمَلَةَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا عِنْدَ ابْتِدَاءِ الأُمُورِ.

وَالبَاءُ فِي قَوْلِهِ: «بِسْمِ اللهِ» مُتَعَلِّقَةٌ بِجَارٍّ وَمَجْرُورٍ مَحْذُوفٍ، وَقَدَّرُوهُ بِفِعْلٍ مُنَاسِبٍ، وَلِهَذَا قُدِّرَ بِفِعْلٍ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الأَفْعَالِ العَمَلُ، لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الأَفْعَالِ أَنَّهَا تَعْمَلُ، وَلِهَذَا قُدِّرَ بِالفِعْلِ، وَهَذَا هُوَ المُخْتَارُ، وَإِلَّا قِيلَ: إِنَّهَا مُقَدَّرَةٌ بِاسْمٍ.

وَأُخِّرَ هَذَا التَّقْدِيرُ، يَعْنِي هِيَ مُقَدَّرَةٌ بِفِعْلٍ مُؤَخَّرٍ مُنَاسِبٍ:

أَمَّا كَوْنُهَا مُقَدَّرَةً بِفِعْلٍ، فَلِأَنَّ الأَصْلَ فِي الأَفْعَالِ العَمَلُ.

وَأَمَّا كَوْنُ التَّقْدِيرِ مُتَأَخِّرًا لِيُفِيدَ الحَصْرَ وَالقَصْرَ وَالاِخْتِصَاصَ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مُنَاسِبًا فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَأْتِي بِاللَّفْظِ المُنَاسِبِ لِمَا بَعْدَ هَذِهِ البَسْمَلَةِ، وَهُوَ أَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَلَا يَقُولُ: «بِسْمِ

(١٠٣٢٨)، وابن ماجه في كتاب النكاح- باب خطبة النكاح (١٨٩٤)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٢٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١)، (٢)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (١٧)، وابن الأعرابي في «الزهد وصفة الزاهدين» (١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠٨)، وفي «شعب الإيمان» (٤/ ٩٠)، جميعًا من طريق: قرة، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال أبو داود: «رواه يونس وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز، عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا». فقد خالف قرة بن عبد الرحمن- وهو صدوق له أوهام- هؤلاء الأثبات، فرواه موصولًا، وهو مرسلٌ كما أخرجه النسائي في «سننه الكبرى» (١٠٣٣١)، عن الزهري مرسلًا، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٢١٨)، و قال: «ضعيف».

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) سورة الإسراء: ١١٠.

(٣) سورة النمل: ٣٠.

الله أَبْتَدِئُ». أَوْ: «أَبْتَدِئُ بِسْمِ الله»، فَلَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ إِنْ كَانَتْ قِرَاءَةً، **وَإِنْ كَانَ أَكْلًا، وَإِنْ كَانَ نَوْمًا**، وَإِنْ كَانَ تَأْلِيفًا، وَإِنْ كَانَ قِرَاءَةً، وَفِي هَذَا المَوْضِعِ نَقُولُ: «بِسْمِ الله أَبْتَدِئُ». أَوْ: «أَبْتَدِئُ بِسْمِ الله». **وَلِهَذَا** جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ الفِعْلُ وَالاِسْمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا﴾[1] قَالَ: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا﴾ **أَخَّرَ**، وَفِي أَوَّلِ سُورَةِ العَلَقِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2] قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ التَّقْدِيمَ هُنَا وَالتَّأْخِيرَ هُوَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الحَالُ وَإِنْ كَانَ يُخَالِفُ القَاعِدَةَ النَّحْوِيَّةَ. أَوْ يَكُونُ جَمَعَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ، بَيْنَ التَّقْدِيرِ الاِسْمِيِّ وَالتَّقْدِيرِ الفِعْلِيِّ.

وَحُذِفَتِ الأَلِفُ الَّتِي بَيْنَ البَاءِ وَالسِّينِ، قَالُوا: لِكَثْرَةِ الاِسْتِعْمَالِ. فَشُبِكَتِ البَاءُ مَعَ السِّينِ مُبَاشَرَةً لِكَثْرَةِ الاِسْتِعْمَالِ.

وَالاِسْمُ قِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنَ السُّمُوِّ. وَهُوَ العُلُوُّ وَالرِّفْعَةُ، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنَ السِّمَةِ. وَهِيَ العَلَامَةُ، وَلَفْظُ الجَلَالَةِ هُوَ عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، اسْمٌ مُخْتَصٌّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَشْتَرِكُ مَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ الاِسْمُ العَظِيمُ الجَامِعُ لِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى كُلِّهَا، وَكُلُّ أَسْمَاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا تَابِعَةٌ لِهَذَا الاِسْمِ العَظِيمِ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّأَلُّهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ، فَكُلُّ الخَلَائِقِ تَتَأَلَّهُ إِلَى هَذَا الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالعِبَادُ يَتَأَلَّهُونَ إِلَيْهِ وَيَتَّجِهُونَ إِلَيْهِ فِي عِبَادَتِهِمْ وَفِي كُلِّ شُئُونِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَهَذَا الاِسْمُ العَظِيمُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ الصِّفَاتِ اللَّفْظِيَّةَ وَالمَعْنَوِيَّةَ، وَالصِّفَاتُ اللَّفْظِيَّةُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَر، وَالصِّفَاتُ المَعْنَوِيَّةُ يَكْفِي فِيهَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[3] فَلَا يُذْكَرُ هَذَا الاِسْمُ العَظِيمُ «اللهُ» فِي خَوْفٍ إِلَّا أَمَّنَهُ، وَلَا فِي فَقْرٍ إِلَّا أَغْنَاهُ، وَلَا فِي ذِلَّةٍ إِلَّا أَعَزَّهَا، وَلَا فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ، وَلَا فِي حَرَجٍ إِلَّا رَفَعَهُ، فَهُوَ اسْمٌ مُبَارَكٌ عَظِيمٌ، قَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: إِنَّهُ هُوَ اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ.

«الرَّحْمَنُ» أَيْ: ذُو الرَّحْمَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا قَائِمَةٌ بِهِ، وَ«الرَّحْمَنُ» أَيْضًا اسْمٌ مُخْتَصٌّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، **فَهُوَ مُخْتَصٌّ** فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، وَ«الرَّحِيمُ» هُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ، «الرَّحْمَنُ» **هُوَ** ذُو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، وَ«الرَّحِيمُ» هُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ، أَيِ: الوَاصِلَةُ إِلَى خَلْقِهِ، وَ«الرَّحِيمُ»

---

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) سورة العلق: ١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة- باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

يَشْتَرِكُ مَعَهُ غَيْرُهُ، فَهُوَ صِفَةٌ لله جَلَّ وَعَلَا تَلِيقُ بِهِ، وَصِفَةٌ لِلْمَخْلُوقِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(١)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) فَهَذَا الوَصْفُ الأَخِيرُ وَهُوَ «الرَّحِيمُ» يَشْتَرِكُ فِيهِ الخَلْقُ أَيْضًا.

وَقَدَّمَ هُنَا «الرَّحْمَنُ»: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَلَمْ يَقُلْ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ». قَالُوا: إِنَّ الزِّيَادَةَ فِي المَبْنَى تَدُلُّ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي المَعْنَى، فَحُرُوفُ «الرَّحْمَنِ» أَكْثَرُ مِنْ حُرُوفِ «الرَّحِيمِ»، وَقُدِّمَ أَيْضًا لِأَنَّهُ اسْمٌ مُخْتَصٌّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَنَاسَبَ أَنْ يُذْكَرَ بَعْدَ لَفْظِ الجَلَالَةِ، نَاسَبَ أَنْ يُذْكَرَ بَعْدَ لَفْظِ الجَلَالَةِ الِاسْمُ المُخْتَصُّ بِاللهِ، وَكَذَلِكَ «الرَّحْمَنُ» المُخْتَصُّ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، أَمَّا «الرَّحِيمُ» فَلَيْسَ مُخْتَصًّا بِاللهِ، فَهُوَ صِفَةٌ لله جَلَّ وَعَلَا وَيَتَّصِفُ بِهَا غَيْرُهُ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقَدَّمَ «الرَّحْمَنُ» وَيُؤَخَّرَ «الرَّحِيمُ».

قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ» العَجَبُ وَالعُجَابُ هُنَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ تَجَاوُزُ حَدِّ العَجَبِ، وَمَا هُوَ العَجَبُ؟ العَجَبُ هُوَ الأَمْرُ المُتَعَجَّبُ مِنْهُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَدَّرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا وَقَضَى أَنْ تَلِدَ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعَجَّبَتْ مِنْ وِلَادَتِهَا وَهِيَ قَدْ طَعَنَتْ فِي السِّنِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾(٣) رَدَّت المَلَائِكَةُ عَلَيْهَا لِأَنَّ الأَمْرَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ هَذَا أَمْرُ اللهِ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ.

وَالعَجَبُ أَوِ التَّعَجُّبُ قَدْ يَكُونُ فِي أَمْرٍ مُنْكَرٍ وَقَدْ يَكُونُ فِي أَمْرٍ مُسْتَحْسَنٍ، **قَدْ يَكُونُ فِي أَمْرٍ مُنْكَرٍ وَقَدْ يَكُونُ فِي أَمْرٍ مُسْتَحْسَنٍ**، وَهُنَا الشَّيْخُ يُنْكِرُ هَذَا الأَمْرَ، قَالَ: «مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ» هَذَا لَيْسَ اسْتِحْسَانًا وَإِنَّمَا إِنْكَارٌ، وَلِهَذَا **قَالَ**: قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَمَا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ؛ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٤) فَالعُجَابُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ، فَهُمْ أَنْكَرُوا هَذَا الأَمْرَ، أَنْ تَكُونَ الآلِهَةُ إِلَهًا وَاحِدًا.

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٣.

(٢) سورة التوبة: ١٢٨.

(٣) سورة هود: ٧١- ٧٣.

(٤) سورة ص: ٥.

وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾[1].

وَأَمَّا الأَمْرُ الْمُسْتَحْسَنُ فَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ»[2] «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ».

فَالشَّيْءُ العَجِيبُ هُوَ الأَمْرُ الْمُسْتَغْرَبُ، وَهَذَا الأَمْرُ الْمُسْتَغْرَبُ قَدْ يَكُونُ عَلَى غَيْرِ العَادَةِ، قَالَ الشَّيْخُ: «وَأَكْبَرِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الْمَلِكِ الغَلَّابِ سِتَّةُ أُصُولٍ» فَكَأَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ جَمَعَ فِي هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذَا الكَوْنِ العَظِيمِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، قَالَ: «وَأَكْبَرِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ» وَالآيَاتُ هُنَا جَمْعُ آيَةٍ، وَالآيَةُ لَهَا عِدَّةُ مَعَانٍ فِي اللُّغَةِ، تَأْتِي بِمَعْنَى العَجَبِ، كَأَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ آيَةٌ فِي العِلْمِ. تَتَعَجَّبُ، وَقَدْ تَأْتِي بِمَعْنَى العَلَامَةِ، ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾[3] أَيْ عَلَامَةُ مُلْكِهِ، وَقَدْ تَأْتِي بِمَعْنَى البُرْهَانِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4] وَقَدْ تَأْتِي بِمَعَانٍ أُخَرَ، وَلَكِنْ هَذِهِ أَظْهَرُهَا.

وَالآيَاتُ عَلَى نَوْعَيْنِ: آيَاتٌ كَوْنِيَّةٌ، وَآيَاتٌ شَرْعِيَّةٌ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي قَصَدَهَا الشَّيْخُ، قَصَدَ الشَّيْخُ أَنَّ الآيَاتِ عَلَى نَوْعَيْنِ: آيَاتٌ كَوْنِيَّةٌ، وَآيَاتٌ شَرْعِيَّةٌ.

فَالآيَاتُ الكَوْنِيَّةُ: مَا يَرَاهُ الإِنْسَانُ فِي هَذَا الكَوْنِ العَظِيمِ، مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ وَأَفْلَاكٍ وَتَعَاقُبٍ، هَذَا كُلُّهُ آيَاتٌ كَوْنِيَّةٌ، تَدُلُّ دَلَالَةً عَظِيمَةً عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِلْعِبَادَةِ، وَالآيَاتُ الكَوْنِيَّةُ مِنْهَا مَا هُوَ ثَابِتٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُتَنَقِّلٌ أَوْ مُتَغَيِّرٌ، فَالسَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ثَابِتَةٌ، آيَةٌ مَخْلُوقَةٌ ثَابِتَةٌ، فَالإِنْسَانُ يَرَى السَّمَاءَ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ، وَيَرَى الأَرْضَ فِي اللَّيْلِ وَفِي النَّهَارِ، ثَابِتَةٌ.

وَهُنَاكَ آيَاتٌ مُتَعَاقِبَةٌ أَوْ مُتَنَقِّلَةٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَهِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، الإِنْسَانُ يَرَى النَّهَارَ مُنْذُ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى مَغِيبِ الشَّمْسِ، هَذَا وَقْتُ النَّهَارِ، وَمِنْ مَغِيبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ، هَذَا هُوَ اللَّيْلُ، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[5] فَهَذِهِ الآيَاتُ العَظِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِلْعُبُودِيَّةِ.

---

(١) سورة الرعد: ٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق- باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩)، من حديث صهيب بن سنان الرومي .

(٣) سورة البقرة: ٢٤٧.

(٤) سورة الروم: ٢٢.

(٥) سورة الزمر: ٥.

وَآيَاتٌ شَرْعِيَّةٌ؛ وَهِيَ هَذَا الوَحْيُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا، وَهُوَ القُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] هَذَا هُوَ القُرْآنُ العَظِيمُ، آيَةٌ شَرْعِيَّةٌ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى **تَعَبَّدَنَا** بِتِلَاوَتِهِ، وَأَمَرَنَا بِاتِّبَاعِهِ وَتَطْبِيقِهِ وَالعَمَلِ بِهِ، فَكُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ المَلِكِ الغَلَّابِ.

وَالمَلِكُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَاسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَالغَلَّابُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[3] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4] فَهُوَ الغَلَّابُ الَّذِي يَغْلِبُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالَّذِي يَقْهَرُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

قَالَ هُنَا: «سِتَّةُ أُصُولٍ» وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى السِّتَّةِ، «بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى بَيَانًا وَاضِحًا لِلْعَوَامِّ فَوْقَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّونَ»، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا البَيَانَ الَّذِي بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ قُدْرَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ زَائِدٍ وَلَا إِلَى رُسُوخٍ فِي العِلْمِ، وَلَا إِلَى تَمَكُّنٍ فِي العِلْمِ وَلَا إِلَى شَهَادَاتٍ، وَاضِحٌ وَبَيِّنٌ فِي هَذَا الكَوْنِ المَفْتُوحِ وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ المَقْرُوءَةِ، وَهِيَ القُرْآنُ العَظِيمُ، وَلِهَذَا هَذَا هُوَ مَنْهَجُ القُرْآنِ الكَرِيمِ حِينَمَا يُرِيدُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُثْبِتَ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ لَهُ جَلَّ وَعَلَا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي مُبَاشَرَةً إِلَّا بِالدَّلَائِلِ وَالقَرَائِنِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الإِنْسَانَ يَقْتَنِعُ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[5] بَعْدَهَا عَدَّدَ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[6] ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَدَّدَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾[7]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾[1]، عَدَّدَ الآيَاتِ

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥.

(٣) سورة المجادلة: ٢١.

(٤) سورة الصافات: ١٧٣.

(٥) سورة الأنعام: ٩٥.

(٦) سورة الأنعام: ٩٦.

(٧) سورة الأنعام: ٩٨.

العَظِيمَةَ ثُمَّ أَبْطَلَ الآلِهَةَ، بَعْدَهَا قَالَ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا -خَتَمَهَا: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾[٣] مَا دَامَ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ هَذِهِ الأَدِلَّةَ العَظِيمَةَ وَأَبْطَلْنَا هَذِهِ المَزَاعِمَ الَّتِي تَدَّعِي العِبَادَةَ؛ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَأَغْلَبُ مَا تَأْتِي الآيَاتُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ يَأْتِي بَعْدَهَا التَّعْقِيبُ بِاسْتِحْقَاقِ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَادَةِ؛ وَهَذَا مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ المُسْلِمُ فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ دَائِمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَيْضًا فِي مِثْلِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الرُّومِ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ﴾[٤]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥] خَتَمَهَا بِهَذَا، قَرَّرَ وَأَقَامَ الحُجَّةَ وَالبُرْهَانَ، ثُمَّ بَيَّنَ الاِسْتِحْقَاقَ الوَاجِبَ عَلَى العِبَادِ.

هَذَا مَنْهَجٌ عَظِيمٌ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ يُرْشِدُ إِلَيْهِ الشَّيْخُ هُنَا حِينَمَا يَقُولُ: «بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى بَيَانًا وَاضِحًا لِلْعَوَامِّ فَوْقَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّونَ»؛ فَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى فَلْسَفَةٍ، وَلَا إِلَى اسْتِطْرَادِ كَلَامٍ وَإِلَى إِقَامَةِ حُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ وَتَآلِيفَ، شَيْءٌ وَاضِحٌ وَبَيِّنٌ، وَلِهَذَا جَاءَ القُرْآنُ مُيَسَّرًا، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٦] يَقْرَؤُهُ العَالِمُ وَغَيْرُ العَالِمِ وَالْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا، وَيَفْهَمُ مَاذَا يُرِيدُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٧] اعْلَمْ أَيُّهَا المَخْلُوقُ المُكَلَّفُ أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ البَقَرَةِ مُؤَكِّدًا عَلَى هَذَا المَعْنَى العَظِيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ كُلُّ النَّاسِ، المُؤْمِنُ وَغَيْرُ المُؤْمِنِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

---

(١) سورة الأنعام: ٩٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٠.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٢.

(٤) سورة الروم: ١٨ - ٢٠.

(٥) سورة الروم: ٢٧.

(٦) سورة القمر: ١٧.

(٧) سورة محمد: ١٩.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1] إِذَا كَانَ كَذَلِكَ ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] تَعْلَمُونَ هَذَا الأَمْرَ وَتَجْعَلُونَ لله شَرِيكًا فِي مُلْكِهِ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[3].

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ بَعْدَ هَذَا غَلَطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ وَعُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ» هَذَا يُعْطِينَا دَلَالَةً أَنَّ ذَكَاءَ الإِنْسَانِ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِهِدَايَتِهِ، الهِدَايَةُ هِيَ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الذَّكَاءَ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِلضَّلَالِ وَالإِفْرَاطِ، أَوْ لِلْوُقُوعِ فِي البُعْدِ عَنْ مَنْهَجِ السَّلَفِ، كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ الفِرَقِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَالجَهْمِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ غَلَّبُوا ذَكَاءَهُمْ وَعُقُولَهُمْ فِي هَذَا، وَأَفْرَطُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، الهِدَايَةُ لَا تُؤْخَذُ مِنَ العَقْلِ، وَلَا تُؤْخَذُ مِنَ الذَّكَاءِ، إِنَّمَا تُؤْخَذُ بِتَوْفِيقِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بَعْدَ بَذْلِ الأَسْبَابِ لِذَلِكَ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَتْ بِالعَقْلِ، وَلِهَذَا يَنْتَشِرُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ نَسْمَعُ أَلْفَاظًا؛ يَقُولُ: (اللهُ مَا رَأَيْنَاهُ، بِالعَقْلِ عَرَفْنَاهُ)، هَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ خَطِيرَةٌ أَنْ يُقَالَ هَذَا الكَلَامُ، عَرَفْنَا اللهَ تَعَالَى بِالوَحْيِ وَلَيْسَ بِالعَقْلِ، عَرَفْنَا اللهَ تَعَالَى بِالوَحْيِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[4] جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِتَوْفِيقِهِ وَإِلْهَامِهِ وَإِرْشَادِهِ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى نُورًا فِي قَلْبِ هَذَا المَخْلُوقِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَلَيْسَ هُوَ العَقْلَ.

وَلِهَذَا الشَّيْخُ هُنَا يَذُمُّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الذَّكَاءَ وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الذَّكَاءِ، يَعْنِي: مَا زَكَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ الخَالِصِ لله تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: «غَلَطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ وَعُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَقَلَّ القَلِيلِ»، أَقَلُّ القَلِيلِ هُمُ الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، أَهْلُ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ، هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْفَظَ دَائِمًا، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَغْتَرَّ الإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ الدَّاعِينَ إِلَى البَاطِلِ، وَالدَّاعِينَ إِلَى الشِّرْكِ وَإِلَى الشَّهَوَاتِ وَإِلَى الشُّبُهَاتِ، هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ.

وَلِذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ كُلِّ قِصَّةٍ مِنْ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

---

(١) سورة البقرة: ٢١، ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٢.

(٣) سورة الكهف: ٥.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2] وَلَـمَّا أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَكِبَ مَعَهُ مَنْ رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ، وَآمَنَ مَعَهُ مَنْ آمَنَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3] إِلاَّ الْقَلِيلُ، وَأَخْبَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ حَقَّ شُكْرِهِ هُمُ الْقَلِيلُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[4]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَمَا يُحْشَرُ النَّاسُ يَأْتِي النَّبِيُّ وَمَعَهُ التِّسْعَةُ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ.

فَالعِبْرَةُ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ النَّاسِ، العِبْرَةُ بِالاتِّبَاعِ، العِبْرَةُ بِإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لله جَلَّ وَعَلَا وَلَيْسَتْ بِالذَّكَاءِ، وَلَيْسَتْ بِالاخْتِرَاعِ وَالابْتِكَارِ، وَلَيْسَتْ بِقُوَّةِ العَقْلِ وَالفَهْمِ، لَكِنْ إِذَا وُظِّفَ هَذَا العَقْلُ وَالفَهْمُ -وُظِّفَ- تَبَعًا لِلشَّرِيعَةِ وَتَبَعًا لِلْوَحْيِ كَانَ خَيْرًا عَلَى خَيْرٍ، وَلِهَذَا لَا يَسْتَقِلُّ العَقْلُ بِالهِدَايَةِ لِوَحْدِهِ، هَذَا مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ هُنَا.

ثُمَّ بَدَأَ **بِالأَصْلِ الأَوَّلِ وَقَالَ**: «**إِخْلَاصُ الدِّينِ لله تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»؛ وَالإِخْلَاصُ: أَصْلُ الكَلِمَةِ **ثُلَاثِيَّةٌ**: «**خَلَصَ**»، فَالخَاءُ وَاللَّامُ وَالصَّادُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى صَحِيحٍ، وَهَذَا المَعْنَى هُوَ تَنْقِيَةُ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبُهُ وَتَصْفِيَتُهُ، «**إِخْلَاصُ الدِّينِ لله تَعَالَى**» وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُتَابِعَ عَمَلَهُ وَقَلْبَهُ فِي الإِخْلَاصِ لله جَلَّ وَعَلَا، وَيُنَقِّيَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ شَوَائِبِ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُ خَالِصًا لله.

وَيَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الخُلُوصِ أَنَّهُ بِمَعْنَى **التَّصْفِيَةِ وَالتَّنْقِيَةِ** وَالتَّهْذِيبِ **وَخُلُوصُ** الشَّيْءِ: مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[5] فَمِنْ قُدْرَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أَنْ أَخْرَجَ هَذَا اللَّبَنَ مِنْ هَذِهِ البَهَائِمِ صَافِيًا خَالِصًا مَعَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الفَرْثِ وَالدَّمِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى **بِقُدْرَتِهِ** صَفَّاهُ وَخَلَّصَهُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الشَّوَائِبِ؛ فَخَرَجَ صَافِيًا خَالِصًا صَالِحًا لِلشُّرْبِ.

وَجَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[6] جَاءَتْ فِيهَا قِرَاءَتَانِ: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وَ«الْمُخْلِصِينَ»،

---

(١) سورة الشعراء: ٨.

(٢) سورة يوسف: ١٠٣.

(٣) سورة هود: ٤٠.

(٤) سورة سبأ: ١٣.

(٥) سورة النحل: ٦٦.

(٦) سورة ص: ٨٣.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بِالفَتْحِ وَهِيَ قِرَاءَةٌ سَبْعِيَّةٌ، ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بِالفَتْحِ؛ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَاصْطَفَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الخَلْقِ، وَأَمَّا «الْمُخْلِصِينَ» قِرَاءَةُ الكَسْرِ -«الْمُخْلِصِينَ»- الَّذِينَ أَخْلَصُوا لله تَعَالَى فِي عِبَادَتِهِمْ، وَلِهَذَا سُمِّيَتْ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ بِسُورَةِ الإِخْلَاصِ؛ لِأَمْرَيْنِ: لِأَنَّهَا خَالِصَةٌ فِي صِفَاتِ الله جَلَّ وَعَلَا، وَالوَجْهُ الثَّانِي: لِأَنَّ القَارِئَ وَالتَّالِيَ لَهَا يُخْلِصُ لله تَعَالَى فِي صِفَاتِهِ، سُمِّيَتْ بِهَذَا الاسْمِ -بِسُورَةِ الإِخْلَاصِ.

وَحَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ: أَنْ يَتَبَرَّأَ الإِنْسَانُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَوَسَائِلِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَمِنْ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ، وَيَجْعَلَ عَمَلَهُ خَالِصًا لله تَعَالَى لَا يُخَالِطُهُ شَيْءٌ، حَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ تَنْقِيَةُ القَلْبِ مِنْ كُلِّ الشَّوَائِبِ المُتَعَلِّقَةِ بِغَيْرِ الله تَعَالَى، فَلَا يُصَلِّي إِلَّا لله، وَلَا يَصُومُ إِلَّا لله، وَلَا يَتَصَدَّقُ إِلَّا لله، وَلَا يَحُجُّ إِلَّا لله.

وَالمُسْلِمُ بِحَاجَةٍ إِلَى مُتَابَعَةِ نَفْسِهِ دَائِمًا وَمُتَابَعَةِ هَذِهِ النِّيَّةِ المُتَقَلِّبَةِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ تَتَقَلَّبُ عَلَى الإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: أَشَدُّ مَا وَاجَهْتُ عَلَيَّ نِيَّتِي؛ لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ. فَالإِنْسَانُ يُتَابِعُ وَيَتَعَاهَدُ قَلْبَهُ وَيَتَعَاهَدُ نِيَّتَهُ وَأَعْمَالَهُ لله تَعَالَى.

وَالأَعْمَالُ كُلُّهَا قَائِمَةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ، فِي قَبُولِهَا عِنْدَ الله كُلُّهَا قَائِمٌ عَلَى أَمْرَيْنِ: عَلَى الإِخْلَاصِ لله تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[1]، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3] وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ فِي تَقْرِيرِ الإِخْلَاصِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، هَذَا هُوَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ.

وَالرُّكْنُ الثَّانِي فِي قَبُولِ الأَعْمَالِ: هُوَ المُتَابَعَةُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ: قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[4] وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[5] وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي

(١) سورة الزمر: ١١.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٣) سورة الكهف: ١١٠.

(٤) سورة الحشر: ٧.

(٥) سورة الأحزاب: ٢١.

يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟! قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[2]، فَإِذَا اخْتَلَّ هَذَانِ الرُّكْنَانِ لَمْ تَكُنِ العِبَادَةُ صَحِيحَةً، وَإِذَا غَابَ وَاحِدٌ لَمْ تَكُنِ العِبَادَةُ صَحِيحَةً، لَا تَتِمُّ صِحَّةُ الأَعْمَالِ وَالعِبَادَاتِ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ وَبِالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا عَمِلَ عَمَلًا وَهُوَ مُخْلِصٌ للهِ تَعَالَى فِيهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْ هَدْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَعَمَلُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَإِذَا كَانَ يَعْمَلُ عَمَلًا مُتَّبِعًا فِيهِ هَدْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَيْسَ مُخْلِصًا فِيهِ فَعَمَلُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[3] كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي التَّفْرِيقُ بَيْنَ حَقِّ اللهِ تَعَالَى، هُنَاكَ حَقٌّ خَاصٌّ للهِ، وَهُنَاكَ حَقٌّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رَسُولِهِ، حَقَّانِ: الحَقُّ الأَوَّلُ خَاصٌّ للهِ، وَالحَقُّ الثَّانِي مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رَسُولِهِ، فَالحَقُّ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ اللهِ وَرَسُولِهِ هُوَ الطَّاعَةُ، ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[4] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[5] وَأَيْضًا مَنْ يَعْصِي الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَحَقُّ الرَّسُولِ الرَّسُولِ أَلَّا يُعْصَى، وَحَقُّ اللهِ أَلَّا يُعْصَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[6] وَيَنْبَغِي التَّفْرِيقُ فِي هَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ سَيَأْتِي الشَّيْخُ يُؤَكِّدُ عَلَى هَذَا فِي آخِرِ الكَلَامِ.

وَأَمَّا الحَقُّ الخَاصُّ للهِ فَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ وَخَشْيَتُهُ وَالإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَعِبَادَتُهُ عِبَادَةً كَامِلَةً، وَلِهَذَا جَمَعَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب قول الله تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} (٧١٣٧)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في كتاب الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

(٤) سورة النساء: ٨٠.

(٥) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

(٦) سورة الأحزاب: ٣٦.

الأَمْرَيْنِ وَفَرَّقَ فِي سُورَةِ النُّورِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ هَذَا هُوَ الحَقُّ المُشْتَرَكُ ﴿وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1] فَالخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِمَنْ؟ للهِ وَحْدَهُ، وَلَيْسَتْ لِلرَّسُولِ، أَمَّا حَقُّ الرَّسُولِ فَهِيَ الطَّاعَةُ، فَفِي هَذِهِ الآيَةِ جَمَعَ وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى مُبَيِّنًا أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَمْلِكُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[2] لَيْسَ هَذَا حَقَّ الرَّسُولِ، وَمِنْ هَذَا البَابِ غَلَا مَنْ غَلَا فِي الصَّالِحِينَ، وَغَلَا مَنْ غَلَا فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَحَقٌّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللهِ وَرَسُولِهِ مَعْلُومٌ، وَحَقٌّ للهِ خَاصٌّ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَا نَبِيٌّ وَلَا مَلَكٌ وَلَا أَيُّ بَشَرٍ، وَهُوَ العِبَادَةُ الخَالِصَةُ للهِ تَعَالَى، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].

«إِخْلَاصُ الدِّينِ للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ» يَقْصِدُ بِذَلِكَ الشَّيْخُ التَّأْكِيدَ عَلَى صِحَّةِ التَّوْحِيدِ وَسَلَامَتِهِ، وَتَحْقِيقَ مَعْنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، أَنْ يَقُولَهَا العَبْدُ صَادِقًا مُخْلِصًا عَالِمًا مُتَّبِعًا لِهَذِهِ الكَلِمَةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ العَظِيمَةَ هِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى، هِيَ كَلِمَةُ الدِّينِ، هِيَ كَلِمَةُ الإِسْلَامِ، هِيَ كَلِمَةُ الإِيمَانِ، هَذِهِ الكَلِمَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، نَفَتْ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ، وَأَثْبَتَتْ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ، هَذِهِ الكَلِمَةُ -كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ- تُثْبِتُ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ، وَتَنْفِي أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ، تَنْفِي أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ؛ وَهِيَ: الطَّوَاغِيتُ وَالأَرْبَابُ وَالآلِهَةُ وَالأَنْدَادُ، وَكُلُّ هَذِهِ جَاءَتْ فِي القُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا﴾[4] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[5] هَذَا دَلِيلُ الأَنْدَادِ، دَلِيلُ تَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الأَنْدَادِ، وَدَلِيلُ تَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الأَرْبَابِ، وَدَلِيلُ تَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الطَّوَاغِيتِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾[6] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[7]، بَقِيَ

(١) سورة النور: ٥٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٢.

(٥) سورة يوسف: ٣٩.

(٦) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٧) سورة النحل: ٣٦.

بَقِيَ الآلِهَةُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾(١) فَمَا دُونَ الله لَيْسَ بِآلِهَةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٢).

فَنَفَتْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ، وَأَثْبَتَتْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ، مَاذَا أَثْبَتَتْ؟ أَثْبَتَتِ القَصْدَ وَالمَحَبَّةَ وَالتَّعْظِيمَ وَالخَوْفَ وَالرَّجَاءَ، المُرَادُ بِالقَصْدِ هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لله، فَلَا يَعْمَلُ عَمَلًا إِلَّا وَيُرِيدُ بِهِ وَجْهَ الله، وَالتَّعْظِيمُ وَاضِحٌ وَبَيِّنٌ، وَهُوَ تَعْظِيمُ الله جَلَّ وَعَلَا وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَمَحَبَّتُهُ وَاضِحَةٌ أَيْضًا، وَالخَوْفُ وَالرَّجَاءُ بَيِّنٌ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: «أَرْكَانُ العِبَادَةِ ثَلَاثَةٌ: المَحَبَّةُ وَالخَوْفُ وَالرَّجَاءُ»، هَذِهِ أَرْكَانُ العِبَادَةِ، قَدْ جَمَعَهَا اللهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(٣)، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ مَا هَذِهِ؟ هَذِهِ هِيَ المَحَبَّةُ، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ الخَوْفُ، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى مُبَيِّنًا أَرْكَانَ هَذِهِ العِبَادَةِ فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾(٥) وَالوَسِيلَةُ هِيَ العَمَلُ الصَّالِحُ، هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ الصَّحِيحُ لَهَا، الوَسِيلَةُ هِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، تَفْهَمُ هَذِهِ الأَرْكَانُ مِنَ الآيَاتِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ البَشَرِ، وَاضِحَةٌ وَبَيِّنَةٌ، يَفْهَمُهَا كُلُّ النَّاسِ، فَهَذِهِ أَرْكَانُ المَحَبَّةِ، أَرْكَانُ العِبَادَةِ لله جَلَّ وَعَلَا، وَلِهَذَا كَرَّرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ رُسُلَهُ لِتَقْرِيرِ هَذَا المَعْنَى العَظِيمِ، وَهُوَ إِخْلَاصُ العِبَادَةِ لله جَلَّ وَعَلَا، كُلُّ الرُّسُلِ لَمْ يُبْعَثُوا إِلَّا بِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، لَمْ يُبْعَثُوا إِلَّا لِتَقْرِيرِ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، كُلُّ الأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَكُلُّ نَبِيٍّ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٦) وَقَالَ

(١) سورة محمد: ١٩.
(٢) سورة الحج: ٦٢.
(٣) سورة الزمر: ٩.
(٤) سورة الزمر: ٩.
(٥) سورة الإسراء: ٥٧.
(٦) سورة المؤمنون: ٢٣.

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾(١) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾(٣) وَلِهَذَا وَقَعَ الخِلَافُ الشَّدِيدُ وَالإِنْكَارُ العَظِيمُ وَالمُحَارَبَةُ وَالتَّصَدِّي لِلدَّعْوَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَقْوَامِهِمْ عَلَى هَذَا المَعْنَى العَظِيمِ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ كَمَا تَعْلَمُونَ هُوَ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ:

تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِ.

وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِ العِبَادِ.

وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ أَقَرَّ بِهِ جَمِيعُ المُشْرِكِينَ، أَقَرَّ بِهِ المُشْرِكُونَ، وَلَمْ يُقِيمُوا الحُجَجَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فِي ذَلِكَ، لَكِنَّ الأَمْرَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الخِلَافُ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَ أَقْوَامِهِمْ هُوَ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، تَوْحِيدُ العِبَادَةِ للهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلِهَذَا حِينَمَا يُسْأَلُونَ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ مَنْ خَلَقَكُمْ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا، أَمَّا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتْرُكُوا هَذِهِ الآلِهَةَ وَاتَّجِهُوا إِلَى اللهِ. احْتَجُّوا بِذَلِكَ، وَقَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾(٤) هَذِهِ الحُجَّةُ الإِبْلِيسِيَّةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي لَقَّنَهَا إِبْلِيسُ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ مِنَ البَشَرِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ فِي الجَمْعِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، أَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ حِينَمَا اعْتَرَفُوا، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٥) جَمَعَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ الحُجَّةِ عَلَى مَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَنْ يُقِرُّ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُهُ أَوْ يَلْزَمُهُ أَنْ يُقِرَّ بِتَوْحِيدِ

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٣) سورة محمد: ١٩.

(٤) سورة الزمر: ٣.

(٥) سورة الزمر: ٣٨.

الأُلُوهِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَيْنِ مُتَلَازِمَانِ، فَالَّذِي خَلَقَ وَدَبَّرَ هَذَا الكَوْنَ وَصَرَّفَهُ وَأَحْيَا وَأَمَاتَ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، أَمَّا الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَارَ عَلَى مَا سَارَ عَلَيْهِ إِخْوَانُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ؛ فَكَانَتْ دَعْوَتُهُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لله، فَمَكَثَ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا يَدْعُو فِيهَا إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ لله، وَتَقَرَّرَتْ أَحْكَامُ الإِسْلَامِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، فِي عَشْرِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ الهِجْرَةِ فِي المَدِينَةِ.

فَأَمْرُ التَّوْحِيدِ عَظِيمٌ، وَالشَّيْخُ هُنَا يُقَرِّرُ هَذِهِ الأُصُولَ العَظِيمَةَ فِي هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ.

ثُمَّ أَيْضًا عَطَفَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى بَيَانِ ضِدِّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَبَيَّنُ هَذَا الأَمْرُ وَلَا تَظْهَرُ مَكَانَةُ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ إِلَّا بِالتَّحْذِيرِ مِنْ ضِدِّهِ، وَهُوَ الشِّرْكُ بِالله جَلَّ وَعَلَا، إِخْلَاصُ الدِّينِ لله تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِتَرْكِ الشِّرْكِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ، ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فَالشِّرْكُ أَنْوَاعٌ، وَلَيْسَ هَذَا مَقَامَ بَسْطٍ فِي تَعْرِيفِ الشِّرْكِ وَأَنْوَاعِهِ، وَلَكِنْ ظَاهِرَ الشِّرْكِ هُوَ شِرْكُ الطَّاعَةِ، وَشِرْكُ المَحَبَّةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَأَمَّا الشِّرْكُ الخَفِيُّ الَّذِي هُوَ الخُضُوعُ وَالمَحَبَّةُ هَذَا شِرْكٌ فِي القَلْبِ غَيْرُ ظَاهِرٍ، وَلَيْسَ هُوَ النَّوْعَ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الخَفِيِّ، فَالشِّرْكُ أَنْوَاعٌ: شِرْكٌ أَصْغَرُ وَشِرْكٌ أَكْبَرُ وَشِرْكٌ خَفِيٌّ، فَكُلُّ هَذِهِ الأَنْوَاعِ مِنَ الشِّرْكِ المُسْلِمُ يَجْتَنِبُهَا، وَإِذَا تَعَلَّمَهَا فَإِنَّهُ لَا يَتَعَلَّمُهَا إِلَّا لِعَدَمِ الوُقُوعِ فِيهَا وَالحَذَرِ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَدَّمَ اللهُ تَعَالَى الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ عَلَى الإِيمَانِ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾[1] فَالقَلْبُ يَحْتَاجُ إِلَى تَصْفِيَةٍ وَتَخْلِيَةٍ وَتَحْلِيَةٍ مِنْ كُلِّ الشَّوَائِبِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِيهِ، فَلَا يَجْتَمِعُ التَّوْحِيدُ وَالشِّرْكُ، فَهُمَا ضِدَّانِ، فَالتَّوْحِيدُ إِذَا دَخَلَ فِي القَلْبِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَدْخُلَهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ عَلَى الإِطْلَاقِ، فَالإِنْسَانُ فِي مِثْلِ هَذَا الإِنَاءِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْرَبَ مَاءً فِيهِ تَلَوُّثٌ أَوْ فِيهِ تُرَابٌ، بَلْ هُوَ يُنَظِّفُ هَذَا الإِنَاءَ حَتَّى يَكُونَ نَظِيفًا تَمَامَ النَّظَافَةِ، ثُمَّ يَسْكُبُ المَاءَ وَيَشْرَبُ، وَلَا يَصِحُّ عَقْلًا أَنْ يَشْرَبَ فِي مَاءٍ مُلَوَّثٍ، لَا يَصِحُّ هَذَا.

إِذَنْ لَا يَجُوزُ شَرْعًا أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذَا القَلْبِ تَوْحِيدٌ وَشِرْكٌ، لَا بُدَّ أَنْ يُصَفَّى مِنْ كُلِّ هَذِهِ الأَنْوَاعِ، إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ يَعْنِي تَصْفِيَةَ هَذَا القَلْبِ مِنَ الشِّرْكِ بِالله جَلَّ وَعَلَا، وَلِهَذَا جَاءَ التَّذْكِيرُ لِأَنْبِيَاءِ الله، التَّذْكِيرُ جَاءَ لِلْأَنْبِيَاءِ

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَيَانِ أَنَّ الشِّرْكَ مُحْبِطٌ لِلْأَعْمَالِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي سِيَاقِ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2] هَذَا مِنْ بَابِ التَّذْكِيرِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الشَّرْطِ وُقُوعُ المَشْرُوطِ كَمَا قَالَ أَهْلُ العِلْمِ، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ هَذَا شَرْطٌ، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لَا يَلْزَمُ مِنَ الشَّرْطِ وُقُوعُ المَشْرُوطِ، هَذِهِ قَاعِدَةٌ، فَهَذِهِ مِنْ أَهَمِّ القَضَايَا الَّتِي ابْتَدَأَ بِهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَذَا الأَصْلَ.

«وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ» فَالإِنْسَانُ لَا يَعْرِفُ خُطُورَةَ الشِّرْكِ إِلَّا إِذَا عَلِمَ الأَدِلَّةَ القَائِمَةَ عَلَى بُطْلَانِهِ، وَلَا يَعْلَمُ فَضْلَ التَّوْحِيدِ إِلَّا إِذَا عَلِمَ الأَدِلَّةَ القَائِمَةَ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَالقُرْآنُ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَى هَذَا، عَلَى أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ؛ هِيَ:

إِمَّا إِخْبَارٌ عَنِ التَّوْحِيدِ وَمَا للهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ العُلْيَا -العُلَى- وَالأَسْمَاءِ الحُسْنَى، وَمَا لَهُ مِنَ الحُقُوقِ وَمَا لَهُ مِنَ العِبَادَةِ الحَقَّةِ، هَذَا القُرْآنُ قَائِمٌ عَلَى هَذَا، أَوْ قَائِمٌ عَلَى بَيَانِ مَا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي الآخِرَةِ، مَعَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالفَضْلِ فِي الدُّنْيَا.

وَبَيَانٌ -أَيْضًا دَاخِلٌ فِي الثَّانِي- وَبَيَانٌ أَيْضًا لِحَالِ المُشْرِكِينَ وَمَا يَنَالُهُمْ مِنَ العِقَابِ الأَلِيمِ فِي الآخِرَةِ، مَعَ بَيَانِ سُوءِ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ لَهُمْ فِيهَا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ القُرْآنُ فِيهِ بَيَانٌ وَإِخْبَارٌ عَنِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَبَيَانِ كَمَالِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

فَالقُرْآنُ لَا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، قَالَ: «وَكَوْنُ أَكْثَرِ القُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الأَصْلِ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى» هِيَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، القُرْآنُ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِلتَّوْحِيدِ، حَتَّى فِي قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي آيَاتِ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ، فِيهَا تَقْرِيرٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَبَيَانٌ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَجَدَ ذَلِكَ، فِي آيَاتِ الطَّلَاقِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ الآيَاتِ عِنْدَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[4] قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ

(١) سورة الزمر: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام: ٨٨.

(٣) سورة المائدة: ٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٣١.

يَعِظُكُم بِهِ﴾[1]، وَيَخْتِمُ الآيَاتِ فِي الطَّلَاقِ بِأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، شَدِيدُ العِقَابِ، خَوَاتِيمُ الآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، حَتَّى فِي الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا أَخْبَارٌ عَنِ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ، بَلْ حَتَّى فِي الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا الدَّعْوَةُ إِلَى الأَخْلَاقِ فِيهَا تَقْرِيرٌ لِلتَّوْحِيدِ، فَلَا تَجِدُ خُلُقًا مِنْ أَخْلَاقِ الإِسْلَامِ دَعَا إِلَيْهِ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا إِلَّا وَهُوَ مُصَدَّرٌ بِالإِيمَانِ، وَالأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَلَكِنْ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي هَذَا هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾[2] عَدَّدَ الأَخْلَاقَ، أَتَى بِالعَقِيدَةِ وَأَتَى بِالعِبَادَةِ وَأَتَى بِالأَخْلَاقِ، يُقَرِّرُ الأَخْلَاقَ انْطِلَاقًا مِنَ العَقِيدَةِ، فَالإِسْلَامُ قَائِمٌ عَلَى عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ العَقِيدَةُ تُثْمِرُ العِبَادَةَ، وَالعِبَادَةُ وَالعَقِيدَةُ تُثْمِرُ الأَخْلَاقَ، وَالعَقِيدَةُ وَالعِبَادَةُ وَالأَخْلَاقُ تُثْمِرُ الاِجْتِمَاعَ وَالاِئْتِلَافَ بَيْنَ النَّاسِ وَهَكَذَا، هَذَا فِي التَّأَمُّلِ فِي آيَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

قَالَ: «بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ العَامَّةِ» يَعْنِي أَنَّ مِنَ النَّاسِ -كَأَنَّ الشَّيْخَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ- مَنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ وَهُوَ يَعُدُّ نَفْسَهُ مِنَ العُلَمَاءِ، وَلَمْ يَفْهَمْ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ للهِ تَعَالَى، فَكَانَ العَامِّيُّ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ هُوَ خَيْرًا مِنْهُ فِي هَذَا المَجَالِ، «بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ العَامَّةِ»، فَإِذَا سَأَلْتَ العَامِّيَّ: مَنْ تَعْبُدُ؟ قَالَ: أَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ. هَل تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ قَالَ: لَا. هَذَا العَامِّيُّ يَقُولُ كَذَلِكَ.

وَلِهَذَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ لَمَّا ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ العَوَامِّ فِي بَعْضِ المَنَاطِقِ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ، قَالُوا: جَاءَنَا رَجُلٌ وَقَالَ لَنَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ رَدَّدُوهَا وَلَيْسَ لَهَا مَعْنًى، وَمَا فَهِمْنَا مِنْهَا شَيْئًا، وَهُمْ عَوَامٌّ، فَشَرَحَ لَهُمُ الشَّيْخُ، قَالَ: إِنْسَانٌ صَلَّى صَلَاةً ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى القَبْرِ يَدْعُو وَيُصَلِّي عِنْدَ القَبْرِ، قَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ: هَذَا صَلَّى لِمَنْ؟ قَالُوا: صَلَّى للهِ، قَالَ لَهُمْ: هَذَا صَلَّى لِمَنْ؟ قَالُوا: صَلَّى لِلْقَبْرِ، قَالَ: هَذَا الدِّينُ، وَهَذَا الشِّرْكُ، وَضَّحَ لَهُمْ بِأَشْيَاءَ وَاضِحَةٍ بَيِّنَةٍ، وَهَكَذَا، وَكَذَلِكَ فِي الذَّبْحِ، عِنْدَمَا قَالَ: ذَبَحَ وَاحِدٌ للهِ، وَذَبَحَ وَاحِدٌ لِلْقَبْرِ، قَالَ: هَذَا لِمَنْ ذَبَحَ؟ قَالُوا: ذَبَحَ للهِ، قَالَ: وَهَذَا لِمَنْ ذَبَحَ؟ قَالُوا: ذَبَحَ لِلْقَبْرِ، قَالَ: هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ، وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ، فَعَرَفُوا الكَلِمَةَ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهَا.

(١) سورة البقرة: ٢٣١.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

فَهِيَ كَلِمَةٌ مُيَسَّرَةٌ وَسَهْلَةٌ وَوَاضِحَةٌ وَبَيِّنَةٌ، يَفْهَمُهَا العَامِّيُّ، فَكَيْفَ بِالعَالِمِ الَّذِي قَرَأَ وَاطَّلَعَ وَلَا يُقَرِّرُ هَذَا التَّوْحِيدَ لِلنَّاسِ؟!

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ: «ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الأُمَّةِ مَا صَارَ» يَعْنِي: لَمَّا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمُ البِدَعُ، بَعْدَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ ظَهَرَتْ فِيهِمُ البِدَعُ، وَكَثُرَ فِيهِمُ الدَّاعُونَ إِلَى البِدَعِ، وَإِلَى التَّعَلُّقِ بِالأَمْوَاتِ وَالأَضْرِحَةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَيْسُوا عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَلَى أَكْثَرِ الأُمَّةِ مَا صَارَ، صَارَ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَعْفِ جَانِبِ التَّوْحِيدِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِغَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، مَاذَا صَارَ لَهُمْ؟

قَالَ الشَّيْخُ: «أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الإِخْلَاصَ فِي صُورَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِهِمْ».

«أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ» بَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَتِ البِدْعَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأُشْرِبُوا بِهَا وَانْتَشَرَ الدَّاعُونَ إِلَى البِدْعَةِ؛ تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ أَيْضًا وَدَهَّمْ عَلَى طَرِيقٍ فِي الإِخْلَاصِ لِلصَّالِحِينَ، وَهَذَا الدَّلِيلُ الَّذِي دَهَّمُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَوْحَى فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَتَنَقَّصُوا النَّاسَ، فَهُمْ كَانُوا عُبَّادًا وَكَانَتْ لَهُمْ مَكَانَةٌ، وَكَانَ لَهُمْ قَدْرٌ عَظِيمٌ، كَيْفَ تَتَنَقَّصُونَهُمْ وَتَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَا يُزَارُونَ وَلَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ؟!

وَهَذَا الفِعْلُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِي قَوْمِ نُوحٍ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، لَمَّا قَالَ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَبَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَكَانَ لَهُمْ نَاسٌ صَالِحُونَ -لِقَوْمِ نُوحٍ- لَهُمْ نَاسٌ صَالِحُونَ، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ لَهُمْ: لَوْ جَعَلْتُمْ لَهُمْ أَمَاكِنَ تَتَذَكَّرُونَهُمْ فِيهَا وَتَتَرَحَّمُونَ عَلَيْهِمْ وَتَزُورُونَهُمْ وَتَعْرِفُونَ قَدْرَهُمْ وَمَكَانَهُمْ، فَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا سَوَّلَ، وَأَقَامُوا لَهُمْ تِلْكَ الأَمَاكِنَ وَبَدَؤُوا يُعَظِّمُونَهَا، فَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ أُنَاسٌ وَعَظَّمُوهَا، وَهَكَذَا، فَعَبَدُوا الصَّالِحِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي عَهْدِ نُوحٍ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ مَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى أَنْ تَمَكَّنَتْ هَذِهِ البِدْعَةُ مِنْ قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ الَّذِي يَتَنَقَّصُ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ فَهُوَ لَيْسَ مِنَ المُخْلِصِينَ للهِ، فَظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَ الإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَى هُوَ تَعْظِيمُ هَؤُلَاءِ الأَمْوَاتِ، وَمَعْرِفَةُ حُقُوقِهِمْ كَمَا كَانُوا أَحْيَاءً، وَلَا يَجُوزُ التَّنَقُّصُ لَهُمْ.

نَعَمْ، الصَّالِحُونَ أَخْيَارٌ وَيُتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ غَادَرُوا هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ التَّعَلُّقُ بِهِمْ وَلَا دُعَاؤُهُمْ وَلَا الاِسْتِغَاثَةُ بِهِمْ، وَأَكْثَرُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ المُنْتَشِرِ بَيْنَ الأُمَمِ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلَى زَمَانِنَا هَذَا هُوَ شِرْكُ الدُّعَاءِ، وَلِهَذَا أَبْدَأَ اللهُ تَعَالَى وَأَعَادَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ عَنِ النَّكِيرِ العَظِيمِ عَلَى مَنْ

يَدْعُو غَيْرَ الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[1] وَقَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الأَعْرَافِ لَمَّا ذَكَرَ اللهُ قِصَّةَ خَلْقِ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، حُجَجٌ عَظِيمَةٌ، وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَطَّمَ الأَصْنَامَ وَجَعَلَهَا جُذَاذًا تَرَكَ وَاحِدًا مِنْهُمْ -وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ- وَعَلَّقَ عَلَيْهِ الفَأْسَ، وَلَمَّا جَاءُوا ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾[3] فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ عَلِمُوا خُسْرَانَهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يُجَاوِبْهُمْ أَحَدٌ، وَجَاءَتْ آيَاتٌ أُخَرُ تُبَيِّنُ أَيْضًا أَنَّ أَكْثَرَ مَا وَقَعَ فِيهِ بَنُو آدَمَ هُوَ الدُّعَاءُ لِغَيْرِ الله جَلَّ وَعَلَا.

فَالْمُسْلِمُ يَحْذَرُ هَذَا كُلَّ الحَذَرِ، وَلَا يُسَوِّلُ لَهُ الشَّيْطَانُ هَذِهِ التَّسَاوِيلَ، حِينَمَا سَوَّلَ لِهَؤُلَاءِ -ضُعَفَاءِ العُقُولِ وَضُعَفَاءِ الدِّينِ- فَوَقَعُوا فِي هَذِهِ البِدَعِ العَظِيمَةِ، ثُمَّ أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الشِّرْكَ بِاللهِ فِي صُورَةِ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ، فَكَأَنَّ المَحَبَّةَ وَالإِخْلَاصَ لله تَعَالَى هُوَ يَكُونُ فِي التَّعَلُّقِ بِهَؤُلَاءِ الأَمْوَاتِ.

وَفِي الأَزْمِنَةِ المُتَأَخِّرَةِ اشْتَدَّ شِرْكُ بَعْضِ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ؛ لِأَنَّ المُشْرِكِينَ فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ كَانُوا لَا يَلْجَأُونَ إِلَى آلِهَتِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ إِلَّا فِي حَالِ الرَّخَاءِ، أَمَّا فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَالضِّيقِ فَيَلْجَأُونَ إِلَى رَبِّهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الإِلَهُ الحَقُّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ دَعَوُا اللهَ يَخْشَوْنَ مِنَ الغَرَقِ، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[4] وَأَمَّا مُشْرِكُو هَذَا الزَّمَانِ فَإِنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الخَطِيئَتَيْنِ، بَيْنَ الشِّرْكِ بِاللهِ فِي الشِّدَّةِ وَفِي الرَّخَاءِ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ. قَالُوا: نَحْنُ لَمْ نَعْبُدْ مَا عَبَدَ المُشْرِكُونَ، نَحْنُ لَمْ نَعْبُدْ أَصْنَامًا، إِنَّمَا نَتَقَرَّبُ إِلَى صَالِحِينَ وَإِلَى أَنْبِيَاءَ وَإِلَى مَلَائِكَةٍ وَإِلَى أُنَاسٍ مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ عَلَى مَنْ يَفْعَلُهُ. أَلَمْ تَقْرَؤُوا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ

(١) سورة الإسراء: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٤.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٢- ٦٤.

(٤) سورة العنكبوت: ٦٥.

لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[1]؟! أَلَمْ تَقْرَؤُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾[2]؟!

أَلَمْ تَقْرَؤُوا آيَاتٍ كَثِيرَةً فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا أَنَّهُ بَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ أُنَاسًا يَعْبُدُونَ الأَنْبِيَاءَ وَيَعْبُدُونَ المَلَائِكَةَ وَيَعْبُدُونَ الجِنَّ وَيَعْبُدُونَ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ؟! فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَهُنَا تُقَامُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ فِي هَذَا.

فَهَذِهِ مِنْ أَهَمِّ المَسَائِلِ وَأَدَقِّهَا الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ فِي هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، وَهُوَ الأَصْلُ الأَوَّلُ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ المُخْلِصِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

(١) سورة المائدة: ١١٦.

(٢) سورة سبأ: ٤٠، ٤١.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

«الأَصْلُ الثَّانِي

«أَمَرَ اللهُ بِالاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ ونَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا تَفْهَمُهُ العَوَامُّ، وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنَا فَهَلَكُوا، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ العَجَبِ العُجَابِ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ صَارَ الأَمْرُ إِلَى أَنَّ الافْتِرَاقَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ هُوَ العِلْمُ وَالفِقْهُ فِي الدِّينِ، وَصَارَ الأَمْرُ بِالاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ لَا يَقُولُهُ إِلَّا زِنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: هَذَا هُوَ الأَصْلُ الثَّانِي مِنَ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ، وَهَذَا الأَصْلُ هُوَ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالاجْتِمَاعِ عَلَى هَذَا الدِّينِ وَنَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَالْمَقْصُودُ بِالدِّينِ هُنَا: الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ، وَالإِسْلَامُ لَهُ مَعْنَيَانِ: مَعْنًى عَامٌّ، وَمَعْنًى خَاصٌّ، أَمَّا الْمَعْنَى العَامُّ فَهُوَ الإِسْلَامُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[1] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

وَالْمَعْنَى الخَاصُّ: هُوَ دِينُ وَشِرْعَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3] وَهَذَا الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ نَاسِخٌ لِكُلِّ مَا سَبَقَهُ مِنَ الأَدْيَانِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ

(١) سورة آل عمران: ١٩.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) سورة سبأ: ٢٨.

النَّبِيِّنَ﴾[1] هَذَا فِي جَانِبِ الرِّسَالَةِ، وَأَمَّا فِي القُرْآنِ وَفِي الكِتَابِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2] أَيْ: مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ.

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالاِجْتِمَاعِ وَأَيْضًا نَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ، فَأَمَرَ وَنَهَى، وَهَذَا يَتَكَرَّرُ دَائِمًا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، إِذَا جَاءَ الأَمْرُ أَعْقَبَهُ بِالنَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ، وَالأَدِلَّةُ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[3] أَيِ: اتَّبِعُوا الدِّينَ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ هَذَا نَهْيٌ، وَقَالَ بَعْدَهَا فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا﴾[4] نَهَى، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5] فَأَمَرَ وَنَهَى، هَذَا مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ.

وَالشَّيْخُ هُنَا يُقَرِّرُ هَذَا المَعْنَى عَلَى وِفْقِ مَا جَاءَ فِي الآيَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: «أَمَرَ اللهُ بِالاِجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا تَفْهَمُهُ العَوَامُّ»، أَيْ: بَيَانَ الأَمْرِ بِالاِجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَنَسْتَعْرِضُ بَعْضًا مِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الأَمْرِ بِالاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ:

يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[6] أَيْ: بِهَذَا الدِّينِ ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فَهُنَا أَمَرَ بِالاِعْتِصَامِ، وَالاِعْتِصَامُ مَأْخُوذٌ مِنَ العِصْمَةِ، وَهُوَ التَّمَسُّكُ بِمَا يَعْصِمُكَ وَيَحْمِيكَ مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي تَخَافُ مِنْهُ وَتَحْذَرُ، وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَتِ القِلَاعُ بِالعَوَاصِمِ؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ وَتَحْمِي مَنْ فِيهَا أَنْ يُعْتَدَى عَلَيْهِ.

وَوَرَدَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَهَذَا مِنَ الدَّقَائِقِ الَّتِي يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهَا، وَرَدَ الاِعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ وَالاِعْتِصَامُ بِاللهِ، وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فِي الآيَةِ الَّتِي تَلَوْتُهَا، قَبْلَهَا قَالَ اللهُ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٤) سورة الأعراف: ٣.

(٥) سورة الجاثية: ١٨.

(٦) سورة آل عمران: ١٠٣.

مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] وَبَعْدَهَا قَالَ: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِّ﴾، وَآيَاتٌ أُخَرُ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الِاعْتِصَامَ يَكُونُ بِاللهِ، فِي آخِرِ سُورَةِ الحَجِّ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِّ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[2] وَفِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِّ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[3] إِذَنْ عِنْدَنَا الِاعْتِصَامُ بِاللهِ وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ، فَمَا مَعْنَى الِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ؟! أَوَّلًا: حَبْلُ اللهِ هُوَ كِتَابُهُ وَشَرْعُهُ وَدِينُهُ، وَفَسَّرَهَا بَعْضُ السَّلَفِ: حَبْلُ اللهِ هُوَ الجَمَاعَةُ، جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَفُسِّرَ بِأَنَّهُ الإِخْلَاصُ وَالأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَأَنَّهُ القُرْآنُ، وَأَنَّهُ السُّنَّةُ.

وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ -كَمَا يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُوجِبُ لِلْعَبْدِ الهِدَايَةَ وَاتِّبَاعَ الدَّلِيلِ، الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ -الَّذِي هُوَ كِتَابُهُ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ- يُوجِبُ لِلْعَبْدِ الهِدَايَةَ وَاتِّبَاعَ الدَّلِيلِ، وَيَعْصِمُهُ مِنَ البِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَأَمَّا الِاعْتِصَامُ بِاللهِ فَإِنَّهُ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ القُوَّةَ وَالعِزَّةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّمْكِينَ، وَيَحْفَظُهُ مِنَ الهَلَاكِ.

إِذَنِ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ يَحْفَظُ مِنَ الضَّلَالِ وَالبِدَعِ، وَالِاعْتِصَامُ بِاللهِ يَحْفَظُ مِنَ الهَلَكَةِ، فَالَّذِي يَسْتَقِيمُ عَلَى الدِّينِ وَيَعْمَلُ بِمَا أَمَرَ اللهُ وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَى عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ وَلَا يَزِيغُ وَلَا يَدْخُلُ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ البِدَعِ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهْدِيهِ إِلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ، وَمَدَارُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَكُونُ فِي الِاعْتِصَامِ بِاللهِ وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِهَاتَيْنِ العِصْمَتَيْنِ، وَفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الهِدَايَةَ تَكُونُ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ، كَمَا فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِّ﴾ النَّتِيجَةُ ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] وَفِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ أَيْضًا كَذَلِكَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِّ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[5] دَلَالَةً عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهَذَا هُوَ عَيْنُ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، حَتَّى ذَكَرَ بَعْضُ العُلَمَاءِ أَنَّ الِاجْتِمَاعَ عَلَى الدِّينِ وَالعَمَلَ بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَيْضًا الِاجْتِمَاعَ بِالأَبْدَانِ؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ الِاجْتِمَاعَ وَذَكَرَ

(١) سورة آل عمران: ١٠١.

(٢) سورة الحج: ٧٨.

(٣) سورة النساء: ١٧٤، ١٧٥.

(٤) سورة آل عمران: ١٠١.

(٥) سورة النساء: ١٧٥.

التَّفَرُّقَ، وَقَالَ: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1].

قَالُوا: إِنَّ التَّفَرُّقَ هُنَا يَشْمَلُ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ وَالتَّفَرُّقَ فِي الأَبْدَانِ، فَإِذَا تَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ تَفَرَّقُوا فِي أَبْدَانِهِمْ، وَأَصْبَحَ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحِينَ، أَمَّا إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى هَذَا الدِّينِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَفَرَّقُونَ لَا فِي كَلِمَتِهِمْ وَلَا فِي أَبْدَانِهِمْ.

وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى الِاجْتِمَاعَ عَلَى الدِّينِ هُوَ شَرِيعَةَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أَيْ: شرعَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي مِنْ لَدُنْ نُوحٍ إِلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2] هُنَا جَاءَ بِالتَّأْكِيدِ عَلَى كَلِمَةِ ﴿فِيهِ﴾، وَلَمْ تَأْتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[3]، وَذَكَرَ هُنَا الدِّينَ بِالتَّصْرِيحِ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[4] أَيْ: اجْتَمِعُوا عَلَى هَذَا الدِّينِ وَاعْمَلُوا بِهِ، وَهَذِهِ الوَصِيَّةُ هِيَ لِأَفْضَلِ الرُّسُلِ، وَهُمْ أُولُو العَزْمِ، بَدَأَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا بِذِكْرِ نُوحٍ ثُمَّ بِالخِطَابِ لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ أُولِي العَزْمِ، وَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى، وَهُمْ أَفْضَلُ الرُّسُلِ، هَؤُلَاءِ الخَمْسَةُ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى هَذَا الدِّينِ، أَنْبِيَاءُ اللهِ اسْتَقَامُوا عَلَى هَذَا الدِّينِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى الِالْتِزَامِ بِهَذَا الدِّينِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ.

وَمَاذَا يَعْنِي الِاجْتِمَاعُ عَلَى الدِّينِ وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ؟

يَعْنِي: تَحْقِيقَ مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»، فَأَهْلُ الإِسْلَامِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ، الَّذِينَ هُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى الدِّينِ وَعَلَى الحَقِّ؛ كَلِمَتُهُمْ مُجْتَمِعَةٌ، آرَاؤُهُمْ مُجْتَمِعَةٌ، أَبْدَانُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ، أَقْوَالُهُمْ مُتَآلِفَةٌ، لَا تَنَاقُضَ فِيهَا وَلَا اضْطِرَابَ، أَمَّا مَنِ انْشَقَّ عَنْ هَذَا الْمَنْهَجِ فَإِنَّهُ لَا يُعَدُّ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُعَدُّ مِمَّنْ يُقِيمُ الدِّينَ عَلَى وَجْهِهِ الصَّحِيحِ.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة الشورى: ١٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٤) سورة الشورى: ١٣.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا فَضْلَ هَذِهِ النِّعْمَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾[1] يُعَادِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَشْتُمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَجَاءَكُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا الدِّينِ فَتَحَوَّلْتُمْ مِنْ أَعْدَاءٍ إِلَى إِخْوَةٍ مُتَحَابِّينَ، وَكَانَ ذَا هُوَ سَبِيلَ الهِدَايَةِ لَكُمْ، وَلِهَذَا خَتَمَهَا اللهُ تَعَالَى بِالهِدَايَةِ: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2] فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الِاجْتِمَاعَ وَهَذِهِ الأُخُوَّةَ هِيَ سَبِيلُ الهِدَايَةِ، وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3] فَهَذَا الدِّينُ يُؤَلِّفُ القُلُوبَ وَلَا يُنَفِّرُهَا، وَلَا يَصِحُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحِيدَ عَنْ هَذَا المَعْنَى، أَيْ: الِاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، لَا لِحُظُوظِ نَفْسٍ وَلَا لِشَهَوَاتٍ.

ثُمَّ قَالَ: «وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنَا فَهَلَكُوا» هَلَكُوا بِتَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛ لِأَنَّ الأَنْبِيَاءَ -كَمَا تَقَدَّمَ- بَعَثَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِيُقِيمُوا هَذَا الدِّينَ، وَيُظْهِرُوا أَمْرَ اللهِ، فَأَقْوَامُ الأَنْبِيَاءِ خَالَفُوهُمْ فِي هَذَا فَهَلَكُوا، أَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَنَجَا مَنْ آمَنَ وَاجْتَمَعَ عَلَى هَذَا الدِّينِ.

وَلِهَذَا ذَكَرَ الشَّيْخُ هُنَا مُصْطَلَحَ التَّفَرُّقِ وَمُصْطَلَحَ الِاخْتِلَافِ، وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ الفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، التَّفَرُّقُ مَا هُوَ؟ وَالِاخْتِلَافُ مَا هُوَ؟ التَّفَرُّقُ هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الِاخْتِلَافِ، بَلْ إِنَّ التَّفَرُّقَ هُوَ ثَمَرَةُ الِاخْتِلَافِ، فَقَدْ يَصِلُ الخِلَافُ وَالِاخْتِلَافُ بِبَعْضِ النَّاسِ إِلَى التَّفَرُّقِ، إِذَنْ هُوَ ثَمَرَةٌ وَلَكِنَّهُ أَشَدُّ، فَبَيْنَهُمَا خُصُوصٌ وَعُمُومٌ، فَالتَّفَرُّقُ أَعَمُّ وَالِاخْتِلَافُ أَخَصُّ، وَلَكِنَّ التَّفَرُّقَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الِاخْتِلَافِ.

فَعَلَى هَذَا لَيْسَ كُلُّ اخْتِلَافٍ تَفَرُّقًا، وَلَكِنْ كُلُّ افْتِرَاقٍ يُقَالُ لَهُ اخْتِلَافٌ، وَلَكِنَّ الِافْتِرَاقَ لَا يَكُونُ..، لَيْسَ كُلُّ اخْتِلَافٍ افْتِرَاقًا، وَإِنَّمَا الِافْتِرَاقُ هُوَ الِاخْتِلَافُ، فَكَثِيرٌ مِنَ المَسَائِلِ اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ العِلْمِ وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا.

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الِاخْتِلَافَ دُونَ التَّفَرُّقِ الَّذِي هُوَ مَذْمُومٌ عَلَى الإِطْلَاقِ، الِاخْتِلَافُ عَلَى نَوْعَيْنِ: اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ، وَاخْتِلَافُ تَضَادٍّ، وَهَذَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَرَدَ النَّوْعَانِ، التَّنَوُّعُ وَالتَّضَادُّ، وَأَمَّا اخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال: ٦٣.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾(١)، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢) هَلْ هَذَا اخْتِلَافُ تَضَادٍّ؟ هَذَا اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ.

أَمَّا اخْتِلَافُ التَّضَادِّ الَّذِي فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فَإِنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٣)، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(٤) هَذَا اخْتِلَافُ تَضَادٍّ، أَمَّا اخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي هَذَا، فَاخْتِلَافُ التَّضَادِّ هُنَا هَذَا هُوَ الِاخْتِلَافُ المَذْمُومُ، يَدْخُلُ ضِمْنَ التَّفَرُّقِ، نَعُودُ إِلَى التَّفَرُّقِ.

أَيْضًا مِنَ المُفَارَقَاتِ بَيْنَ مُصْطَلَحِ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ: أَنَّ الِافْتِرَاقَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي أُصُولِ المَسَائِلِ الكُبْرَى الَّتِي لَا يَسَعُ الخِلَافُ فِيهَا، وَلَا يَصِحُّ الِاجْتِهَادُ، أَمَّا الِاخْتِلَافُ فَقَدْ يَقَعُ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، يَعْنِي: أَنَّ الِاخْتِلَافَ قَدْ يَكُونُ فِيمَا دُونَ الأُصُولِ مِمَّا يَقْبَلُ الرَّأْيَ وَيَقْبَلُ الِاجْتِهَادَ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ الِافْتِرَاقَ لَا يَكُونُ بِالِاجْتِهَادِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَذْمُومٌ، اجْتِهَادًا كَانَ أَوْ غَيْرَ اجْتِهَادٍ، وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ قَدْ يَكُونُ بِاجْتِهَادٍ حَسَنٍ، الِاخْتِلَافُ إِذَا اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي مَسْأَلَةٍ بِاجْتِهَادٍ حَسَنٍ، هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي الِافْتِرَاقِ.

ثُمَّ إِنَّ الِافْتِرَاقَ جَاءَ عَلَيْهِ الوَعِيدُ الشَّدِيدُ، وَوُعِدَ صَاحِبُهُ بِالهَلَكَةِ وَالعَذَابِ، وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ قَدْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فَإِذَا وَرَدَ الِاخْتِلَافُ الَّذِي هُوَ مِنَ التَّضَادِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الِافْتِرَاقِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي القُرْآنِ الِافْتِرَاقُ وَجَاءَ فِيهِ الِاخْتِلَافُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(٦)، وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ المَذْمُومُ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي كِتَابِهِ عَنِ الأُمَمِ

(١) سورة الروم: ٢٢.

(٢) سورة يونس: ٦.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

(٤) سورة البقرة: ١٧٦.

(٥) سورة الروم: ٣١، ٣٢.

(٦) سورة الأنعام: ١٥٩.

السَّابِقَةِ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(١) وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ﴾(٢) وَمَا أَكْثَرَ مَا يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنِ اخْتِلَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاخْتِلَافِ أَهْلِ الكِتَابِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فِي دِينِهِمْ، قَالَ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٣).

فَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ يَأْتِينَا الاِخْتِلَافُ وَيَأْتِينَا التَّفَرُّقُ، حَتَّى فِي الآيَةِ الَّتِي سَبَقَ تِلَاوَتُهَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ جَمَعَتْ فِي سِيَاقِهَا مَا بَيْنَ الاِعْتِصَامِ، وَالاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الاِخْتِلَافِ، وَبَيَانِ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِمَنْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ لِمَنِ اجْتَمَعُوا عَلَى دِينِهِمْ.

تَأَمَّلُوا هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ بَعْدَهَا قَالَ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هَذَا هُوَ الوَعِيدُ، ثُمَّ بَيَّنَ مَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(٤) ثُمَّ فَصَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ.

هَذَا المَقْطَعُ مِنَ هَذِهِ الآيَاتِ عَظِيمٌ وَجَلِيلُ القَدْرِ لَوْ أَنَّ أُمَّةَ الإِسْلَامِ عَمِلَتْ بِهِ حَقَّ العَمَلِ وَطَبَّقَتْ هَذِهِ المَعَانِيَ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ وَذَكَرَ النِّعْمَةَ ثُمَّ بَيَّنَ مَاذَا يَنْبَغِي فِي هَذَا الاِجْتِمَاعِ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فَهَذِهِ الآيَاتُ مِنْ أَبْلَغِ وَأَعْظَمِ الآيَاتِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَاقْرَؤُوا تَفْسِيرَهَا كَامِلَةً فِي تَفْسِيرِ الحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ، أَوْ تَفْسِيرِ الإِمَامِ الكَبِيرِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ، أَوْ فِي تَفْسِيرِ الشَّيْخِ السَّعْدِيِّ؛ فَفِيهَا كَلَامٌ نَفِيس، هَذِهِ الآيَاتُ ارْجِعُوا إِلَيْهَا وَاقْرَؤُوهَا وَتَأَمَّلُوهَا؛ لِأَنَّ المَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ بَسْطٍ فِيهَا؛ لِأَنَّ فِيهَا مُنَاسَبَاتٍ وَفِيهَا سِيَاقًا وَدَلَالَاتٍ.

يَقُولُ: «فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا» يَعْنِي: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَمَا بَيَّنَهُ بَيَانًا شَافِيًا أَرَادَ لَنَا رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا أَنْ

(١) سورة الجاثية: ١٧.

(٢) سورة يونس: ٩٣.

(٣) سورة البينة: ٤.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣ - ١٠٦.

يُبَيِّنَ لَنَا مَا نَسْلُكُهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ فِي عِبَادَتِنَا لِرَبِّنَا؛ حَيْثُ حَذَّرَنَا مِنَ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا، مَاذَا حَصَلَ لِلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ قَوْمٍ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَسِبُوا إِلَى النَّصَارَى، لَكِنَّهَا نِسْبَةٌ لَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِذَلِكَ الدِّينِ فِي وَقْتِهِ، لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، وَمَاذَا جَرَى بَعْدَ أَنْ أَهْمَلُوا وَتَرَكُوا وَتَفَرَّقُوا؟ حَلَّتْ عَلَيْهِمُ المَصَائِبُ وَالعَدَاوَاتُ وَالبَغْضَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ، قَالَ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أَيْ: أَنَّهُمْ لَيْسُوا نَصَارَى، وَإِنَّمَا ادَّعَوْا، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾، مَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟ ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1].

فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الدِّينِ فِي وَقْتِهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَخْذِ المِيثَاقِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا نَسُوا ذَلِكَ وَتَرَكُوهُ وَأَهْمَلُوهُ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ وَالكَرَاهِيَةَ، فَأَصْبَحَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَحْقِدُ عَلَى الأُخْرَى، وَتُحَارِبُ الأُخْرَى، وَتَشْتُمُ الأُخْرَى وَهَكَذَا، هَذِهِ عَوَاقِبُ الِافْتِرَاقِ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى.

وَإِذَا كَانَ الحَالُ كَذَلِكَ فِي الِافْتِرَاقِ وَأَنَّهُ مَذْمُومٌ، رُبَّ سَائِلٍ يَسْأَلُ وَيَقُولُ: هَلْ هُنَاكَ افْتِرَاقٌ مَحْمُودٌ وَاخْتِلَافٌ مَحْمُودٌ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، هُنَاكَ افْتِرَاقٌ مَحْمُودٌ، وَهُوَ مُفَارَقَةُ أَهْلِ البِدَعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الضَّلَالِ الَّذِينَ خَالَفُوا مَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ مِنَ الرَّافِضَةِ، وَمِنَ الخَوَارِجِ، وَمِنَ الجَهْمِيَّةِ، وَمِنَ المُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ خَالَفُوا مَنْهَجَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

يَقُولُ: أَيْنَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ؟

اقْرَأْ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ أَخِيهِ هَارُونَ، حِينَمَا ذَهَبَ مُوسَى إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ، جَعَلَ عَلَيْهِمْ أَخَاهُ هَارُونَ، فَلَمَّا ذَهَبَ مُوسَى وَتَبَاطَأَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ -اسْتَبْطَؤُوهُ- قَامُوا وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَعَبَدُوا العِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى، فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى وَجَدَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَصَنَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ عِجْلًا وَصَنَعَهُ السَّامِرِيُّ، وَعَبَدُوهُ

(١) سورة المائدة: ١٤.

مِنْ دُونِ الله، فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا أَنْكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَخِيهِ وَلَمْ يَعْذُرْهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ قَالَ لِمَنْ؟ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ رَدُّوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾[1] يَعْنِي: سَنَبْقَى عَاكِفِينَ عَلَى هَذِهِ العِبَادَةِ ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾، اسْتَبْطَؤُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى قَالَ، مَاذَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ؟ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ قَالَ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[2] أَيْ: أَعَجِلْتُمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّكُمُ الَّذِي دَعَانِي إِلَيْهِ؟! ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ مُعَاتِبًا لَهُ ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ أَيْ: يَا ابْنَ أُمِّي.

وَقَالَ: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾. مَعَ أَنَّهُ أَخُوهُ الشَّقِيقُ، قَالَ المُفَسِّرُونَ كَابْنِ كَثِيرٍ: قَالَ: ابْنَ أُمَّ. نَادَاهُ بِاسْمِ أُمِّهِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ لِلشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالحُنُوِّ. قَالَ: ابْنَ أُمَّ. يَقُولُ هَذَا هَارُونُ لِمُوسَى، لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ نَادَاهُ بِأُمِّهِ، ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لَكِنْ هُنَاكَ فِي سُورَةِ طَهَ هِيَ الَّتِي فِيهَا العِتَابُ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ لِمَاذَا لَا تُنْكِرُ عَلَيْهِمْ؟ ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ اتْرُكْهُمْ وَاذْهَبْ مَعِي، لَمْ يَعْذُرْهُ، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فَأَجَابَهُ هَارُونُ بِمَا أَجَابَ.

فَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ العَظِيمِ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتَعْتَبَ أَخَاهُ هَارُونَ عَلَى مَوْقِفِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى هَذَا الِافْتِرَاقِ وَعِبَادَةِ العِجْلِ مِنْ دُونِ الله؛ لِأَنَّهُمُ افْتَرَقُوا فِي الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَعَبَدُوا غَيْرَ الله؛ لِأَنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ إِخْلَاصُ العِبَادَةِ لله جَلَّ وَعَلَا.

وَلِهَذَا فَإِنَّه لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُذْكَرَ مِنْ أَحَدٍ فَيَقُولُ: المُسْلِمُونَ يَجْتَمِعُونَ -عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ- يَجْتَمِعُونَ عَلَى هَذَا. هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، يَجْتَمِعُونَ عَلَى الدِّينِ الخَالِصِ لله تَعَالَى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

(١) سورة طه: ٩٠، ٩١.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٠.

﴿تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

فَأُمَّةُ الإِسْلَامِ هِيَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ تَعَبَّدَهَا اللهُ تَعَالَى بِهَذَا الدِّينِ وَأَمَرَهَا بِعِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا الوَسِيلَةَ وَالغَايَةَ فِي آيَتَيْنِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[3] فَجَاءَ بِالعِبَادَةِ وَجَاءَ بِالتَّقْوَى، لَيْسَتِ العِبَادَةُ بِالآرَاءِ وَلَا بِالمَذَاهِبِ وَلَا بِالأَحْزَابِ وَلَا بِالتَّجَمُّعَاتِ وَلَا بِالجَمَاعَاتِ، الدِّينُ بِالعِبَادَةِ، الدِّينُ لَا يُؤْخَذُ بِالجَمَاعَاتِ وَلَا بِالأَحْزَابِ، يُؤْخَذُ بِالعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى، فَإِذَا كَانَ هَذَا الشَّخْصُ عَابِدًا لله، مُتَّقِيًا لله، فَهُوَ مِنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَمَنْ خَالَفَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ -العِبَادَةَ وَالتَّقْوَى- اللَّذَيْنِ جَعَلَ اللهُ وَاحِدًا مِنْهُمَا وَسِيلَةً وَالآخَرَ غَايَةً؛ فَقَدْ خَالَفَ الإِجْتِمَاعَ عَلَى الدِّينِ، وَيَنْبَغِي هَذَا أَنْ يُعْلَمَ فِي وَاقِعِ الحَقِيقَةِ، وَأَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ هُمُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى دِينِ اللهِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ فَإِنَّهَا لَمْ تَجْتَمِعْ عَلَى دِينِ اللهِ؛ لِأَنَّهَا أَخَذَتْ بِالآرَاءِ وَالأَقْوَالِ، وَحَكَّمَتِ العُقُولَ، وَتَرَكَتِ الدِّينَ وَالدَّلِيلَ وَالنَّصَّ الشَّرْعِيَّ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَنْهَجَ السَّلَفِ هُوَ المَنْهَجُ الحَقُّ الَّذِي هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ المَذَاهِبِ وَالفِرَقِ فَإِنَّهَا وَاقِعَةٌ فِي الظُّلْمِ، وَفِي الضَّلَالَةِ، وَفِي اتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ.

وَلِهَذَا ذَكَرَ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَيَقُولُ مُؤَكِّدًا عَلَى هَذَا المَعْنَى: «وَلَا عَيْبَ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ مَذْهَبَ السَّلَفِ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ وَاعْتَزَى إِلَيْهِ؛ بَلْ يَجِبُ قَبُولُ ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ، فَإِنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا»، هُوَ الحَقُّ، هُوَ الدِّينُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ، أَمَّا كَثْرَةُ الجَمَاعَاتِ وَالأَحْزَابِ وَالفِرَقِ فَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، وَلِهَذَا أَنْكَرَهَا عُلَمَاؤُنَا وَمَشَايِخُنَا؛ كَالشَّيْخِ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَدْ قَالَ فِي الفَتَاوَى: «وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ كَثْرَةَ الفِرَقِ وَالجَمَاعَاتِ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ مِمَّا يَحْرِصُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ أَوَّلًا، وَأَعْدَاءُ الإِسْلَامِ مِنَ الإِنْسِ ثَانِيًا؛ لِأَنَّ اتِّفَاقَ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ وَوِحْدَتَهُمْ وَإِدْرَاكَهُمْ لِلْخَطَرِ الَّذِي يُهَدِّدُهُمْ وَيَسْتَهْدِفُ عَقِيدَتَهُمْ تَجْعَلُهُمْ يَنْشَطُونَ لِمُكَافَحَةِ ذَلِكَ وَالعَمَلِ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ المُسْلِمِينَ، لِدَرْءِ الخَطَرِ عَنْ دِينِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَهَذَا مَسْلَكٌ لَا يَرْضَاهُ الأَعْدَاءُ؛ بَلْ يَحْرِصُونَ عَلَى تَفْرِيقِ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ وَتَشْتِيتِ شَمْلِهِمْ وَبَذْرِ أَسْبَابِ العَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ».

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٢.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٢.

فَالَّذِي لَا يَسِيرُ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ الَّذِينَ هُمْ يُقِيمُونَ الدِّيْنَ الحَقَّ الخَالِصَ لله تَعَالَى فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ يَكُونُ مُتَشَبِّهًا بِمَنْ سَبَقَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[1] وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَيْضًا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[2].

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ رَدِّ الحَقِّ وَعَدَمِ قَبُولِهِ بِدَلِيلِهِ هُوَ تَعْظِيمُ الأَشْخَاصِ، وَجَعْلُهُمْ فِي رُتْبَةٍ أَعْلَى مِنْ رُتْبَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ، وَقَدْ سَبَقَ بِالأَمْسِ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا مَاتَ فِيهِمُ الصَّالِحُونَ عَظَّمُوهُمْ، وَجَعَلُوهُمْ فِي مَنْزِلَةٍ أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِمُ البَشَرِيَّةِ، وَقَدَّمُوهُمْ عَلَى دَعْوَةِ الرُّسُلِ، فَوَقَعُوا حِينَئِذٍ فِي الشِّرْكِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تُحَذِّرُ مِنَ اتِّبَاعِ الأَشْخَاصِ فِيمَا يَقُولُونَ، وَأَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ هُوَ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، اتِّبَاعُ الأَشْخَاصِ وَتَرْكُ الدَّلِيلِ وَالحَقِّ هُوَ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[3]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يَتْرُكُونَ الحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ وَيَتَّبِعُونَ الأَشْخَاصَ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[4]، مَاذَا جَاءُوا؟ أَتَوا بِأَمْرَيْنِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ هَذَا وَاحِدٌ، وَالثَّانِي قَالُوا: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أَبْطَلَ اللهُ وَاحِدًا وَتَرَكَ الثَّانِيَ؛ لِأَنَّ وَاحِدًا مِنَ الَّذِي قَالُوهُ حَقٌّ وَالثَّانِيَ كَذِبٌ، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، نَعَمْ، ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هَذَا هُوَ الكَذِبُ، اللهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ﴾ مَا رَدَّ عَلَيْهِمُ الرَّدَّ الأَوَّلَ لِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا قَالُوا، صَدَقُوا فِيهِ، وَجَدُوا آبَاءَهُمْ فَمَشَوْا، مَا قَالَ لَمْ تَجِدُوا آبَاءَكُمْ، قَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، فَهُنَا أَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى كَذِبَهُمْ عَلَى اللهِ وَأَثْبَتَ حُجَّتَهُمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُ الجَاهِلِيَّةِ.

تَعْظِيمُ الأَشْخَاصِ لَا يَصِحُّ وَلَا يَسُوغُ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مَعْصُومِينَ، المَعْصُومُ هُوَ رَسُولُ اللهِ، أَمَّا غَيْرُهُ فَهُوَ بَشَرٌ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ مَا وَافَقَ الدَّلِيلَ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ مَا خَالَفَ الدَّلِيلَ، حَتَّى الأَنْبِيَاءُ إِذَا مَاتُوا لَا يَصِحُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِمْ، إِنَّمَا يَتَّبِعُ، وَلِهَذَا لَمَّا مَاتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَعَ اسْتِغْرَابٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي هَذَا المَوْتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا

(١) سورة آل عمران: ١٠٥.

(٢) سورة المائدة: ٧٧.

(٣) سورة البقرة: ١٧٠.

(٤) سورة الأعراف: ٢٨.

﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1]، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنَّ مَوْتَهُ لِأَنَّهُ بَشَرٌ، مَاتَ، أَدَّى الأَمَانَةَ وَانْتَقَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى.

لَكِنْ مِنْ لَطَائِفِ التَّفْسِيرِ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ السِّيَاقَ كَانَ يَكُونُ بِخَتْمِ الآيَةِ ﴿وَسَنَجْزِي الصَّابِرِينَ﴾، لَكِنْ خَتَمَهَا بِمَاذَا؟ ﴿وَسَنَجْزِي﴾ كَيْفَ نَشْكُرُ اللهَ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ مَاتَ؟! الرَّسُولُ مَاتَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ يَعْنِي: اشْكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَى مَوْتِهِ؟! لَا يستقيم هَذَا الْمَعْنَى، إِنَّمَا اشْكُرُوا اللهَ جَلَّ وَعَلَا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَاتَ وَقَدْ كَمُلَ الدِّينُ وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ لِلْعَالَمِينَ، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2] فَلَا دِينَ يُسْتَطْلَبُ بَعْدَ دِينِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَمَّ الدِّينُ وَكَمُلَتِ النِّعْمَةُ وَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى هَذَا لِلْعِبَادِ، فَلِهَذَا خَتَمَهَا بِالشُّكْرِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ: «وَنَهَانَا أَنْ نَكُونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنَا فَهَلَكُوا، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ» أَيْ: ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى «أَنَّهُ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالِاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ» وَهَذَا كَثِيرٌ تَقَدَّمَتِ الآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرٌ، أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ، هَذَا هُوَ الأَمْرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ مُتَحَقِّقَةٌ رَاجِحَةٌ لَهُمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ لَا خِيَارَ لِأَحَدٍ فِيمَا أَمَرَ اللهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[3]، وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[4].

وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُ مِنَ الدِّينِ شَيْئًا وَيَتْرُكُ شَيْئًا آخَرَ، يَأْخُذُ مِنْهُ مِمَّا وَافَقَ هَوَاهُ، وَيَتْرُكُ مِنْهُ مِمَّا لَا يُوَافِقُ هَوَاهُ، هَذَا قَدْ وَقَعَ، وَلَكِنْ لِمَنْ؟ لِلْمُنَافِقِينَ، أَمَّا أَهْلُ الإِيمَانِ فَلَا يَكُونُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يُوَافِقُ شَهَوَاتِهِمْ ﴿وَإِن يَكُن لَهُمُ

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) سورة القصص: ٦٨.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٦.

الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أَمَّا مَنْهَجُ أَهْلِ الإِيمَانِ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، أَهْلُ الإِيمَانِ مِنَ العُلَمَاءِ وَغَيْرِ العُلَمَاءِ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيُطِيعُونَ وَيَمْتَثِلُونَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى وَأَمْرَ رَسُولِهِ إِذَا جَاءَهُمُ الدَّلِيلُ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ الآيَاتِ وَالبَرَاهِينَ عَلَى ذَلِكَ وَجَدَ الشَّيْءَ العُجَابَ فِي هَذَا، وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، هَذَا هُوَ عَيْنُ الضَّلَالَةِ وَعَيْنُ اتِّبَاعِ الهَوَى، فَالَّذِي لَا يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ اللهِ وَلَا لِأَمْرِ رَسُولِهِ وَقَعَ فِي مَاذَا؟ وَقَعَ فِي خَطِيئَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، هُمَا الظُّلْمُ وَالضَّلَالُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] وَقَعَ فِي الظُّلْمِ وَوَقَعَ فِي الضَّلَالِ، الشَّيْخُ هُنَا يُؤَكِّدُ عَلَى عَدَمِ الوُقُوعِ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مَنْ قَبْلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَكَانَ طَرِيقُهُمْ إِلَى الهَلَاكِ.

الاِعْتِصَامُ -كَمَا تَقَدَّمَ- وَالاِجْتِمَاعُ عَلَى الدِّينِ يَعْنِي تَحْقِيقَ مَعْنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَتَحْقِيقَ مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ -شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ-، وَقَدِ ابْتُلِيَتْ أُمَّةُ الإِسْلَامِ بِالبُعْدِ عَنْ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، وَوَقَعُوا فِيمَا يُخَالِفُهُ مِنَ البِدَعِ وَالشِّرْكِيَّاتِ وَالضَّلَالَاتِ حَتَّى تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَعْدَاؤُهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ: «وَيَزِيدُهُ -ذَلِكَ- وُضُوحًا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ العَجَبِ العُجَابِ فِي ذَلِكَ»، السُّنَّةُ اسْتَفَاضَتْ بِالأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ، وَهِيَ جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً لِهَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي اسْتَمَعْتُمْ إِلَيْهَا، السُّنَّةُ جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً لَهَا، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاكُمُ اللهُ أَمْرَهُ وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ

---

(١) سورة النور: ٤٨ - ٥١.

(٢) سورة القصص: ٥٠.

(٣) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»[1]، هَذِهِ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ، وَجَاءَتْ فِي السُّنَّةِ مُؤَكِّدَةً لِهَذَا المَعْنَى، جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً.

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله» وَهُوَ تَوْحِيْدُ العِبَادَةِ «وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ» هَذَا الثَّانِي، الثَّالِثُ: «لُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِيْنَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[2]، وَالحَدِيثُ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي المُسْنَدِ، وَأَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ[3]، رُوِيَ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، أَوَّلُهُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي»[4] الحَدِيثَ، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَاتُ وَمُبَيِّنَةً لَهَا.

وَجَاءَ الحَثُّ أَيْضًا عَلَى لُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ حِينَمَا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَسَأَلَهُ عِدَّةَ أَسْئِلَةٍ، وَقَالَ لَهُ فِي آخِرِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -أَوْ هُوَ طَلَبَ مِنْهُ: بِمَاذَا تَنْصَحُنِي؟- قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»[5]، وَهَذَا أَنَا أَقُولُهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الكَلَامُ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية- باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، ومالك في كتاب الجامع- باب ما جاء في إضاعة المال (١٨٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) هو: زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري النجاري. استصغره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فلم يشهدها، ثم شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد. وهو أحد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان زيد يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي وغيره، وكانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بالسريانية فأمر زيدًا فتعلمها في بضعة عشر يومًا، واستخلفه عمر بن الخطاب على المدينة ثلاث مرات في الحجتين وفي خروجه إلى الشام، وكان أعلم الصحابة بالفرائض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفرض أمتي زيد بن ثابت**» وكان من أعلم الصحابة والراسخين في العلم. أمره أبو بكر الصديق بجمع القرآن في الصحف فكتبه فيها، فلما اختلف الناس في القراءة زمن عثمان اتفق رأيه ورأي الصحابة على أن يرد القرآن إلى حرف واحد فوقع اختياره على حرف زيد، فأمره أن يملي المصحف على قوم من قريش جمعهم إليه، فكتبوه على ما هو عليه اليوم بأيدي الناس، وكانوا يقولون: غلب زيد بن ثابت الناس على اثنين: القرآن والفرائض. انظر: الاستيعاب (١/ ١٥٩-١٦٠) أسد الغابة (١/ ٣٩٣-٣٩٤) الإصابة (٢/ ٥٩٢-٥٩٤).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب العلم- باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦)، وصححه الألباني «صحيح الجامع» (٦٧٦٣).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -أَنْ يَكُونَ- شِعَارًا لِكُلِّ مُسْلِمٍ، الْزَمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، دَعْكَ مِنْ أَصْحَابِ الفِرَقِ وَالجَمَاعَاتِ وَالأَحْزَابِ، أَصْحَابِ الضَّلَالَاتِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، بَلِ الْزَمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَلَى الحَقِّ وَعَلَى الدِّينِ، هَذِهِ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ».

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي عِنْدَ مُسْلِمٍ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»[1]، وَالقَتْلُ هُوَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ وَلِيِّ الأَمْرِ، وَلَيْسَ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا الحَدِيثُ مُؤَكِّدًا عَلَى لُزُومِ الجَمَاعَةِ القَائِمَةِ عَلَى الدِّينِ الحَقِّ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ أَيْضًا الَّذِي عِنْدَ أَحْمَدَ وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ»[2] وَقَدْ فُسِّرَ حَبْلُ اللهِ بِأَنَّهُ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ.

قَدْ يُوَاجِهُ الإِنْسَانَ بَعْضُ الأُمُورِ الَّتِي يَكْرَهُهَا فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، مَاذَا يَكُونُ مَوْقِفُهُ؟ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَلْتَزِمَ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَصَّى بِذَلِكَ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ فَإِنَّهَا حَبْلُ اللهِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الفُرْقَةِ، الإِنْسَانُ قَدْ يُوَاجِهُ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا لَا يُرْضِيهِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ، وَأَنْ يَتَحَمَّلَ، وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّابِرِينَ فِي هَذَا البَابِ.

وَأَمَّا الفُرْقَةُ فَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ فِي حَدِيثٍ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ[3] -وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ- قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ -وَفِي رِوَايَةٍ: خَيْرُ القُرُونِ- قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٨٥٢)، من حديث عرفجة بن شريح رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن- باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، من حديث عبد الله بن عمر ما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٦).

(٣) هو: الصحابي عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، أبو نجيد، الخزاعي، القدوة، الإمام، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم. أسلم هو وأبوه وأبو هريرة سنة سبع. وله عدة أحاديث. وولي قضاء البصرة، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم، فكان الحسن يحلف: ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين. كان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة. توفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٢١ ترجمة ١٨٦٨)، وأسد الغابة (٤/ ٢٦٩ ترجمة ٤٠٤٨).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

ثُمَّ بَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَهُ أَقْوَامٌ يَخْتَلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ أَيْضًا -المُخَرَّجِ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَعِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ- أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ وَافْتَرَقَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ مِثْلَمَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي»[1]. وَالَّذِي عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[2]، وَالَّذِي أَمَرَ بِالِالْتِزَامِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3].

إِذَا كَانَ الحَالُ كَذَلِكَ يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ؛ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّهُ وَرَدَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[4] عِنْدَمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ مَرَّةٍ مِنَ العَالِيَةِ حَتَّى أَتَى مَسْجِدَ بَنِي مُعَاوِيَةَ فَدَخَلَ فِيهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ سَأَلَ رَبَّهُ وَدَعَاهُ وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً؛ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِي إِيَّاهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِي إِيَّاهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَ أُمَّتِي بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِي إِيَّاهَا»[5].

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: أَنْتَ تَقُولُ: إِنَّ الِافْتِرَاقَ وَاقِعٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّسْوِيلَ لَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَاقِعٌ. وَلَمْ يُجِبِ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي الآيَةِ الَّذِي يُؤَكِّدُ الآيَةَ هَذَا الحَدِيثُ، مَا هِيَ الآيَةُ؟ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[6] سَاقَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى سَاقَ هَذَا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة- باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في كتاب الإيمان- باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب افتراق الأمة (٣٩٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٩٢).

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) سورة الشورى: ١٣.

(٤) هو: سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب القرشي الزهري، أبو إسحاق: الصحابي الأمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أسلم وهو ابن ١٧ سنة، وشهد بدرًا، وافتتح القادسية، وقد فقد بصره، وتوفي سنة ٥٥هـ. (الأعلام للزركلي: ٣/ ٨٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠).

(٦) سورة الأنعام: ٦٥.

الحَدِيثَ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

إِذَنْ هَذَا الأَمْرُ وَلَوْ كَانَ وَاقِعًا قَدَرًا فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ لِلْمُسْلِمِ تَرْكُ النَّصِيحَةِ وَتَرْكُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَتَرْكُ التَّعَاوُنِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يُحَقِّقَ النَّصِيحَةَ وَأَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِهِ، وَإِلَّا مَا كَانَ لِهَذَا الدِّينِ عَمَلٌ وَفِعْلٌ بَيْنَ النَّاسِ، هَذَا وَاقِعٌ صَحِيحٌ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَنْ يَسُودَ بَيْنَهُمُ التَّنَاصُحُ، وَإِذَا رَأَوْا أَحَدًا مُفَارِقًا لِجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْصَحُوهُ، أَوْ مُؤَوِّلًا لِلْأَدِلَّةِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنَاصِحُوهُ، وَقَدْ يَكُونُ عَنْ عِلْمٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَنْ جَهْلٍ أَمْ عَنْ عِلْمٍ؟ عَنْ عِلْمٍ، فَكُلُّ الآيَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ، فَأَوَّلُ مَا حَصَلَ الِافْتِرَاقُ فِي اليَهُودِ بَعْدَ أَنْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَأَوَّلُ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ الِافْتِرَاقُ فِي أُمَّةِ الإِسْلَامِ مِنْ فِعْلِ الخَوَارِجِ، افْتَرَقُوا عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ لِأَنَّهَا تَكْشِفُ عَوَارَهُمْ وَخَطِيئَتَهُمْ، حِينَمَا هَجَمُوا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَتَلُوهُ وَأَلَّبُوا النَّاسَ عَلَى القُدُومِ عَلَى المَدِينَةِ، وَقَامُوا بِالتَّجَمُّعَاتِ لِلِانْتِصَارِ لِآرَائِهِمْ، فَنَبَتَتْ هَذِهِ النَّبْتَةُ وَقَامَتْ وَلَمْ تَقُمْ لَهَا قَائِمَةٌ فِي أَيِّ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ الَّذِي هُوَ مَذْهَبُ الخَوَارِجِ، لَمْ تَقُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ أَشْخَاصٌ أَوْ جَمَاعَاتٌ يَتَبَنَّوْنَ هَذَا الفِكْرَ ثُمَّ يَسْقُطُونَ فِي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ وَلَيْسُوا عَلَى نُورٍ فِي هَذِهِ الحَالِ، وَلِهَذَا هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الأَدِلَّةَ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَتَرَكُوا الأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَنَزَّلُوا الآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي حَقِّ المُشْرِكِينَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَأُوتُوا مِنْ سُوءِ فَهْمِهِمْ لِهَذَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ البُعْدِ عَنِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، وَلِهَذَا تَجِدُ فِي قُلُوبِهِمُ الغِلَّ، الفِرَقُ دَائِمًا -فِرَقُ الضَّلَالِ كَالخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ- فِي قُلُوبِهِمْ غِلٌّ عَلَى جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، الحَدِيثُ الَّذِي سَبَقَ: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ..» إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، ذَكَرَ مِنْهَا: «وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»، هُمْ لَا يُحِبُّونَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ، وَلَا يُنَاصِرُونَهَا، بَلْ يُحَارِبُونَهَا، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكْشِفُ خَطَأَهُمْ وَضَلَالَهُمْ وَعَوَارَهُمْ، وَلَا يَرْغَبُونَ بِجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَلِهَذَا تَجِدُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الفِرَقِ وَالطَّوَائِفِ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِلِّ وَالحِقْدِ وَالكَرَاهِيَةِ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَشَدُّ مِنْ كَرَاهِيَتِهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى الحَقِّ وَلَا عَلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ، وَلِهَذَا نَخْتِمُ هَذَا اللِّقَاءَ وَهَذِهِ الجِلْسَةَ بِبَعْضِ الأُمُورِ المُهِمَّةِ الَّتِي تَدُلُّنَا عَلَى فَوَائِدِ الِاجْتِمَاعِ.

مَا فَوَائِدُ الِاجْتِمَاعِ؟

نَقُولُ: أَوَّلُهَا: العَمَلُ بِالشَّرِيعَةِ وَتَحْكِيمُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَذِهِ فَائِدَةٌ مِنْ فَوَائِدِ الإِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، العَمَلُ بِالشَّرِيعَةِ وَتَحْكِيمُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِظْهَارُ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، إِظْهَارُ الشَّعَائِرِ.

مِنَ الفَوَائِدِ أَيْضًا: أَنَّهُ يَحْصُلُ مِنَ الإِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ مَصَالِحُ عَظِيمَةٌ، وَيَنْدَفِعُ بِهِ مَفَاسِدُ كَثِيرَةٌ.

مِنْ فَوَائِدِ الإِجْتِمَاعِ: أَنَّ فِيهِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَحْقِيقًا لِلطَّاعَةِ وَالإِنْقِيَادِ.

مِنْ فَوَائِدِ الإِجْتِمَاعِ أَيْضًا: انْتِظَامُ أَمْرِ النَّاسِ، وَاسْتِقْرَارُ أَحْوَالِهِمْ، وَتَمَاسُكُ المُجْتَمَعِ، وَقُوَّةُ التَّوَاصُلِ بَيْنَهُمْ.

نَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ الفَائِدَةِ قَلِيلًا، فِي الإِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ انْتِظَامُ أَمْرِ النَّاسِ، لَا يُوجَدُ بَيْنَهُمْ أَحْقَادٌ وَلَا بَغْضَاءُ وَلَا كَرَاهِيَةٌ وَلَا ثَوَرَاتٌ وَلَا عَصَبِيَّاتٌ وَلَا صِرَاعَاتٌ، كُلُّ هَذِهِ مَا تَكُونُ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى الدِّينِ، مَاذَا يُرِيدُونَ؟

وَنَحْنُ فِي هَذِهِ البِلَادِ قَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِيهَا بِنِعَمٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَعْظَمِهَا: نِعْمَةُ الإِجْتِمَاعِ وَالإِئْتِلَافِ عَلَى الدِّينِ الحَقِّ، وَعَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَعَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لَيْسَ فِي هَذِهِ البِلَادِ إِلَّا هَذَا المَنْهَجُ، مَنْهَجُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى فَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وَلِهَذَا وَلِلهِ الحَمْدُ سَلِمَتْ هَذِهِ البِلَادُ مِنَ الصِّرَاعَاتِ وَمِنَ الخِلَافَاتِ وَالثَّوَرَاتِ؛ لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ عَلَى الحَقِّ، وَهَذِهِ هِيَ النِّعْمَةُ العَظِيمَةُ الَّتِي ذَكَّرَنَا اللهُ تَعَالَى بِهَا فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾، وَدَائِمًا رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا يُذَكِّرُ عِبَادَهُ بِأَنَّ الإِجْتِمَاعَ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنَّهُ نِعْمَةٌ، وَمَا دَامَ أَنَّهُ نِعْمَةٌ لَا يَحْصُلُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَلَا قَلَقٌ وَلَا ثَوَرَاتٌ وَلَا صِرَاعَاتٌ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[2]، ﴿مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ القُرْآنُ ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ هِيَ السُّنَّةُ، يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِهَذَا، وَهَذَا التَّذْكِيرُ فِيهِ امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ، اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِهَذَا، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة: ٢٣١.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٤.

(٣) سورة الحجرات: ١٧.

فَنِعْمَةُ انْتِظَامِ النَّاسِ وَاجْتِمَاعِهِمْ وَتَآلُفِ قُلُوبِهِمْ هَذَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى دِينِ اللهِ.

وَمِنَ الفَوَائِدِ أَيْضًا: إِظْهَارُ السُّنَنِ وَالعَمَلُ بِهَا، وَمُحَارَبَةُ البِدَعِ وَإِنْكَارُهَا، فَتَجِدُ المُجْتَمَعَ المُسْلِمَ القَائِمَ عَلَى دِينِ اللهِ، تَجِدُ أَنَّهُ مُظْهِرٌ لِلسُّنَنِ، وَمُعْتَزٌّ بِهَا، وَدَاعٍ إِلَيْهَا، وَمُحَارِبٌ لِكُلِّ البِدَعِ، حَتَّى العَامِّيُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُتَعَلِّمًا أَنْ يُنْكِرَ البِدَعَ لِأَنَّهَا فِطْرَةٌ؛ يَعْرِفُ هَذَا الشَّيْءَ مِنْ خِلَالِ مَا تَعَلَّمَهُ.

وَمِنَ الفَوَائِدِ كَذَلِكَ: السَّلَامَةُ مِنَ الوُقُوعِ فِي الفِتَنِ الَّتِي تَجُرُّ إِلَى الاِخْتِلَافِ وَالتَّمَرُّدِ وَالعِصْيَانِ وَالاِعْتِدَاءَاتِ، السَّلَامَةُ مِنَ الفِتَنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ حَاثًّا عِبَادَهُ عَلَى الاِسْتِجَابَةِ، قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أَيْ: اجْتَمِعُوا عَلَى هَذَا الدِّينِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اجْتِمَاعٌ مَاذَا قَالَ بَعْدَهَا رَبُّنَا: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1]، إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى الدِّينِ وَقَعَتِ الفِتْنَةُ، وَجَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، أَيْ: عَنْ أَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي دَعَا إِلَى الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

وَمَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ وَالعَذَابُ وَالصِّرَاعَاتُ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ إِلَّا بِسَبَبِ عَدَمِ الاِسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَعَدَمِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ، وَكَثْرَةِ الفِرَقِ وَالجَمَاعَاتِ وَالطَّوَائِفِ عِنْدَهُمْ، وَالخُرُوجِ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ.

وَمِنَ الفَوَائِدِ كَذَلِكَ: ظُهُورُ مُجْتَمَعِ المُسْلِمِينَ بِمَظْهَرِ القُوَّةِ وَالهَيْبَةِ وَالرَّهْبَةِ أَمَامَ مَنْ يُرِيدُ الاِعْتِدَاءَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا وَاضِحٌ، إِذَا كَانَ المُجْتَمَعُ المُسْلِمُ مُجْتَمَعًا مُتَمَاسِكًا مُتَرَابِطًا قَوِيًّا فِي دِينِهِ، قَرِيبًا مِنْ رَبِّهِ؛ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْتَرِقَهُ، بَلْ إِنَّ هَذَا المُجْتَمَعَ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى دَفْعِ كُلِّ الأَخْطَارِ وَالأَهْوَاءِ وَالأَعْدَاءِ الَّتِي تَقَعُ فِي مُجْتَمَعِهِ، وَيُبْطِلُ كَيْدَ المُفْسِدِينَ؛ لِأَنَّ الجَمِيعَ مُتَعَاوِنٌ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى، وَإِذَا ظَهَرَ أَوْ شَذَّ مَنْ يُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ انْكَشَفَ أَمْرُهُ، وَلِهَذَا الإِنْسَانُ يَعْتَزُّ بِالدِّينِ وَيَفْتَخِرُ بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ﴾[3]، هَذَا اعْتِزَازٌ، يَعْتَزُّ بِهَذَا الدِّينِ.

وَمِنَ الفَوَائِدِ كَذَلِكَ: أَنَّ المُسْلِمِينَ يَسْلَمُونَ مِنَ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنَ الآيَةِ الَّتِي فِي

(١) سورة الأنفال: ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة النور: ٦٣.

(٣) سورة فصلت: ٣٣.

سُورَةِ المَائِدَةِ، إِنَّ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا دَبَّ بَيْنَهُمُ البَغْضَاءُ وَالعَدَاوَةُ.

هَذَا مُلَخَّصٌ لِلْفَوَائِدِ، بَقِيَ عِنْدَنَا مَسْأَلَةٌ أُخْرَى: مَا هِيَ الأَسْبَابُ وَالأُصُولُ الَّتِي تَدْعُو المُسْلِمِينَ إِلَى الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ؟

أَوَّلُهَا: التَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، التَّسْلِيمُ المُطْلَقَ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[1]، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ فِي اجْتِمَاعِ المُسْلِمِينَ عَلَى دِينِ اللهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا -مِنَ الأُصُولِ الَّتِي بِهَا يَتَحَقَّقُ الاِجْتِمَاعُ-: لُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الأَدِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

وَمِنَ الأُصُولِ أَيْضًا: الرُّجُوعُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ الرَّاسِخِينَ، وَلَيْسَ إِلَى المُتَعَالِمِينَ، الرُّجُوعُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ وَالأَخْذُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ هُمُ الَّذِينَ يَدُلُّونَ النَّاسَ إِلَى الحَقِّ وَإِلَى الدِّينِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ وَسُؤَالِهِمْ عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ القُرْآنِ: ﴿فَاسْأَلُوا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وَلَمْ يَقُلْ: فَاسْأَلُوا النَّاسَ. أَهْلُ الذِّكْرِ هُمْ أَهْلُ العِلْمِ، أَهْلُ القُرْآنِ، أَهْلُ الحَدِيثِ، أَهْلُ الفِقْهِ، هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[3]، يَرُدُّونَهُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي أَيِّ مُجْتَمَعٍ لَا يَرْتَبِطُونَ بِعُلَمَائِهِمُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ، وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى عُلَمَائِهِمْ صِغَارًا وَكِبَارًا يُجِلُّونَهُمْ، وَيُقَدِّرُونَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ عَنْهُمْ وَيَتَلَقَّوْنَ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مُجْتَمَعٌ آمِنٌ مُسْتَقِرٌّ، يَظْهَرُ فِيهِ الدِّينُ وَالشَّعَائِرُ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى غَيْثًا وَرَحْمَةً عَلَى النَّاسِ، وَجَعَلَهُمْ هُمُ الوَارِثِينَ لِلنُّبُوَّةِ.

وَمِنَ الأُصُولِ كَذَلِكَ: تَرْكُ إِعْمَالِ العَقْلِ عِنْدَ وُرُودِ النَّصِّ؛ لِأَنَّ العَقْلَ تَابِعٌ لِلشَّرْعِ، فَلَا يَجْلِسُ الإِنْسَانُ -كَمَا

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) سورة النحل: ٤٣.

(٣) سورة النساء: ٨٣.

يُنَادِي بِهِ البَعْضُ الآنَ - أَنَّهُ يُحَكِّمُ الآرَاءَ وَيُحَكِّمُ القَوَانِينَ الوَضْعِيَّةَ، أَوِ الأُطْرُوحَاتِ البَشَرِيَّةَ وَيَتْرُكُ شَرْعَ اللهِ بِحُجَّةِ أَنَّ هَذِهِ نَزَلَتْ فِي زَمَنٍ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَ هَذَا الزَّمَنِ، أَوْ قَدْ يَسِمُونَ مَنْ يَلْتَزِمُ بِدِينِ اللهِ أَوْ بِشَرْعِ اللهِ بِأَنَّهُ مُتَخَلِّفٌ وَأَنَّهُ رَجْعِيٌّ وَأَنَّهُ لَا يَتَوَاكَبُ مَعَ الحَضَارَةِ وَلَا مَعَ مُعْطَيَاتِ التِّقْنِيَةِ وَلَا مَعَ مُعْطَيَاتِ العَصْرِ، هَذِهِ ضَلَالَاتٌ وَتُرَّهَاتٌ مِنْ أَقَاوِيلِ الشَّيْطَانِ، ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[1]، فَيُقَدِّمُونَ حِينَئِذٍ العَقْلَ عَلَى ذَلِكَ.

وَإِذَا تَحَدَّثُوا فِي قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَا المُجْتَمَعِ -كَرِعَايَةِ طِفْلٍ أَوْ حُقُوقِ إِنْسَانٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ- يَبْحَثُونَ عَنِ الحُلُولِ مِنَ الآرَاءِ البَشَرِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى نُصُوصِ الشَّرْعِ، فَهَذَا الدِّينُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى جَعَلَهُ رَحْمَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ فِيهِ نَقْصًا وَلَا تَقْصِيرًا، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[2] فَإِذَا حَكَّمَ الإِنْسَانُ عَقْلَهُ فَقَدْ سَلَكَ طَرِيقَ الضَّلَالِ وَالهَلَاكِ.

وَأَيْضًا مِنَ الأُصُولِ كَذَلِكَ: الحَذَرُ مِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ، لَا يُقَدِّمُ قَوْلَهُ وَلَا قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى قَوْلِ اللهِ وَلَا عَلَى قَوْلِ رَسُولِهِ.

وَمِنَ الأُصُولِ كَذَلِكَ: الحَذَرُ مِنَ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، اللهُ تَعَالَى قَدْ حَذَّرَ مِنْ هَذَا غَايَةَ التَّحْذِيرِ، وَقَدْ جَعَلَهُ العُلَمَاءُ أَعْظَمَ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ، القَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ أَعْظَمُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، فَرَتَّبَهَا وَتَدَرَّجَ فِي التَّرْتِيبِ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، فَأَعْلَاهَا القَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: التَّعَاوُنُ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى، الوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَتَعَاوَنُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا الِاجْتِمَاعَ عَلَى الدِّينِ.

وَآخِرُ المَسَائِلِ فِي هَذَا المَقَامِ هُوَ: إِذَا وَقَعَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ فِي بَعْضِ المَسَائِلِ فَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَرْجِعُونَ؟ فَإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَا قَالَ اللهُ وَقَالَ الرَّسُولُ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن

(١) سورة محمد: ٢٥.

(٢) سورة الأنعام: ٣٨.

(٣) سورة الأعراف: ٣٣.

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[2]، الرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى سُنَّتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الِاخْتِلَافَ فِي المَسَائِلِ الفَرْعِيَّةِ كَمَا أَشَارَ الشَّيْخُ فِي آخِرِ الكَلَامِ، «صَارَ النَّاسُ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ»، المَسَائِلُ الفَرْعِيَّةُ تَقْسِيمَاتٌ، إِنَّ هُنَاكَ أُصُولًا وَفُرُوعًا، شَيْخُ الإِسْلَامِ قَالَ: «الدِّينُ لَيْسَ فِيهِ أُصُولٌ وَلَا فُرُوعٌ، كُلُّهُ أُصُولٌ»، لَكِنْ هَذَا بِاعْتِبَارٍ مُصْطَلَحٍ ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ: «أَنَّ أُصُولَ الدِّينِ هِيَ مَسَائِلُ التَّوْحِيدِ، وَالفُرُوعَ هِيَ مَسَائِلُ الأَحْكَامِ».

أَيْضًا قَدْ يَقَعُ التَّفَرُّقُ فِي مَسَائِلِ الفُرُوعِ، فَفِي بَعْضِ المَذَاهِبِ يَكُونُ هُنَاكَ إِطْرَاءٌ وَغُلُوٌّ فِي بَعْضِ الأَشْخَاصِ لِأَئِمَّةِ المَذَاهِبِ؛ فَيَقَعُ فِي الغُلُوِّ وَالإِطْرَاءِ لَهُمْ، وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ التَّفَرُّقُ، فَلَا يُصَلِّي الحَنَفِيُّ أَمَامَ الشَّافِعِيِّ، وَلَا الشَّافِعِيُّ أَمَامَ الحَنْبَلِيِّ، مِنْ بَابِ التَّعَصُّبِ، وَهَذَا دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ الأَوَّلِ، وَهُوَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ المَذْمُومُ؛ لِأَنَّ الأَئِمَّةَ رَحِمَهُمُ اللهُ -الأَئِمَّةَ الأَرْبَعَةَ- وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ التَّعَصُّبِ لَهُمْ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَ أَتْبَاعَهُمْ بِالأَخْذِ بِالدَّلِيلِ، وَإِذَا كَانَ قَوْلُهُمْ لَا يُوَافِقُ الدَّلِيلَ فَإِنَّهُمْ يَنْصَحُونَهُمْ أَلَّا يَأْخُذُوا بِهِ، كَمَا أُثِرَ عَنِ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ كُلِّهِمْ فِي هَذَا.

نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ وَالإِعَانَةَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة الشورى: ١٠.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

«الأَصْلُ الثَّالِثُ

أَنَّ مِنْ تَمَامِ الاِجْتِمَاعِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِمَنْ تَأَمَّرَ عَلَيْنَا وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْوَاعِ البَيَانِ شَرْعًا وَقَدَرًا، ثُمَّ صَارَ هَذَا الأَصْلُ لَا يُعْرَفُ عِنْدَ أَكْثَرَ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ فَكَيْفَ العَمَلُ بِهِ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ الَّذِي تَجْعَلُ الصَّعْبَ سَهْلًا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَوْلِ وَفِتْنَةِ العَمَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الإِعْجَابِ بِالقَوْلِ أَوِ الإِعْجَابِ بِالعَمَلِ.

تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا الكَلَامِ عَلَى الأَصْلِ الثَّانِي -الَّذِي هُوَ الاِجْتِمَاعُ، وَأَيْضًا مِمَّا يَلْحَقُ بِالأَصْلِ الثَّانِي- بَعْضُ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِ الاِفْتِرَاقِ قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا فِي بَعْضِ الحَالَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا بِالأَمْسِ فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

بَقِيَتْ ثَلَاثُ آيَاتٍ قَدْ تَلْحَقُ بِهَذِهِ المَسْأَلَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[1] وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ المُتَشَابِهَ حَذَّرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَأَيْضًا قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وَالآيَةُ الثَّالِثَةُ أَيْضًا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) سورة الأنعام: ٦٨.

بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[1] هَذِهِ تَلْحَقُ بِمَا سَبَقَ.

أَمَّا اليَوْمَ فَنَحْنُ مَعَ الأَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي أَلَّفَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَهَذِهِ الأُصُولُ السِّتَّةُ اسْتَنْبَطَهَا رَحِمَهُ اللهُ مِنَ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ وَفِي السُّنَّةِ، وَهِيَ أُصُولٌ عِظَامٌ ذَاتُ فَوَائِدَ جَمَّةٍ وَعَظِيمَةٍ، مِنْهَا هَذَا الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ.

قَالَ الشَّيْخُ: «أَنَّ مِنْ تَمَامِ الاِجْتِمَاعِ» الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الأَصْلِ الثَّانِي، مِنْ تَمَامِهِ وَمِنْ ثَمَرَاتِهِ وَمِنْ خَيْرَاتِهِ «السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِمَنْ تَأَمَّرَ عَلَيْنَا» وَهَذَا الأَصْلُ مِنْ أَهَمِّ الأُصُولِ وَأَعْظَمِهَا وَأَخْطَرِهَا، وَهُوَ أَصْلٌ أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ، أَجْمَعَ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَإِذَا أَلَّفَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الاِعْتِقَادِ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ هَذَا الأَصْلَ العَظِيمَ، وَهُوَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَحَادَ عَنْ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ -حَادَ عَنْهُ- مَنْ حَكَّمَ عَقْلَهُ، وَصَارَ فِي رِكَابِ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ وَضَلَّ وَأَضَلَّ غَيْرَهُ فِي هَذَا البَابِ، وَلَا يَزَالُ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا البَابِ فِي هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ يُرْمَى بِأَبْشَعِ الأَوْصَافِ، وَيُتَّهَمُ بِأَبْشَعِ التُّهَمِ، إِذَا تَكَلَّمَ فِي قَضِيَّةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ، رُمِيَ بِالتُّهْمَةِ وَرُمِيَ بِالتَّزَلُّفِ، وَرُمِيَ بِأَشْيَاءَ لَا تَلِيقُ بِهِ، وَهَذَا هُوَ حَالُ أَهْلِ البِدَعِ، الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ حِينَمَا يُقَرِّرُونَ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ.

وَهَذَا الأَصْلُ العَظِيمُ؛ ذَكَرَ الشَّيْخُ هُنَا، قَالَ: «وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» وَهُوَ هُنَا يُشِيرُ إِلَى حَدِيثٍ فِي الصَّحِيحِ، وَحَدِيثٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ، وَهُوَ حَدِيثُ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قَالَ العِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَقُلْنَا: أَوْصِنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَلَوْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ كَانَ عَبْدٌ»[2]. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «عَبْدٌ حَبَشِيٌّ»، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ». فَالمُؤَلِّفُ هُنَا يُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الأَحَادِيثِ.

وَقَالَ: «فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْوَاعِ البَيَانِ»، وَجَاءَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ لِلْكِتَابِ: «فَبَيَّنَ النَّبِيُّ

(١) سورة النساء: ١٣٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٦)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الآخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا» إِنَّمَا المَطْبُوعُ عِنْدَنَا هُنَا قَالَ: «فَبَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا» وَلَعَلَّ الجَمْعَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ أَوْ بَيْنَ البَيَانَيْنِ هُوَ أَوْلَى، أَيْ: بَيَّنَ اللهُ وَبَيَّنَ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَذَا الأَصْلَ العَظِيمَ بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا.

وَكَمَا قُلْتُ: إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ أَنْ يُتَّهَمَ عَالِمٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي مِثْلِ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالتُّهَمِ إِلَّا أَصْحَابُ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ الَّذِينَ حَكَّمُوا عُقُولَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَصَارُوا فِي رِكَابِ أَهْلِ البِدَعِ.

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى لِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ جَاءَ فِي آيَةٍ عَظِيمَةٍ، وَهِيَ أَصْلٌ فِي هَذَا البَابِ، آيَةُ النِّسَاءِ أَصْلٌ فِي هَذَا البَابِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1] وَمَا دَامَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ هِيَ الأَصْلُ فِي هَذَا البَابِ؛ فَسَنَقِفُ فِي بَيَانِهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ لِيَتَّضِحَ بِذَلِكَ المَقَامُ.

وَنَلْحَظُ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ صُدِّرَتْ بِالنِّدَاءِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ بِـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وَهُوَ نِدَاءُ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَرِفْعَةٍ وَعُلُوٍّ لِأَهْلِ الإِيمَانِ، وَإِذَا جَاءَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فَهِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَمْرًا يُؤْمَرُ بِهِ العِبَادُ، أَوْ نَهْيًا يُنْهَوْنَ عَنْهُ، أَوْ تَكُونَ ابْتِدَاءً لِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، أَوْ تَكُونَ ابْتِدَاءً لِتَشْرِيعٍ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ فِي الإِسْلَامِ، فَعِنْدَنَا هُنَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ بِالطَّاعَةِ للهِ وَرَسُولِهِ وَلِأُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُولِي الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ هِيَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإِيمَانِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ الآيَةَ صُدِّرَتْ بِوَصْفِ الإِيمَانِ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى أُولِي الأَمْرِ هُنَا، مَنِ المُرَادُ بِهِمْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلِأَهْلِ العِلْمِ أَيْضًا، أَنَّ أُولِي الأَمْرِ هُمُ الأُمَرَاءُ، أَنَّهُمُ الأُمَرَاءُ، هَذَا القَوْلُ قَالَ بِهِ جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَالقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُمُ العُلَمَاءُ، أَهْلُ العِلْمِ أَوْ أَهْلُ الفِقْهِ، وَهَذَا أَيْضًا قَالَ بِهِ جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.

وَرَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ الآيَةَ عَلَى العُمُومِ، أَنَّهَا تَشْمَلُ الأُمَرَاءَ وَالعُلَمَاءَ، فَالأُمَرَاءُ قَدْ وَكَّلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِرِعَايَةِ مَصَالِحِ العِبَادِ وَمَصَالِحِ النَّاسِ، وَالقِيَامِ بِشُئُونِهِمْ وَأَمْنِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ، وَأَمَّا العُلَمَاءُ فَقَدْ أَوْكَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ دِلَالَةَ النَّاسِ إِلَى الشَّرْعِ وَإِلَى فِعْلِ الأَوَامِرِ وَتَرْكِ النَّوَاهِي عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

وَهُنَا لَمْ يَعْطِفِ العَامِلَ فِي عَطْفِهِ لَفْظَ الطَّاعَةِ عَلَى أُولِي الأَمْرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] فَلَمْ يَأْتِ بِلَفْظِ الطَّاعَةِ أَوْ لَفْظِ العَامِلِ فِيهَا، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ أُولِي الأَمْرِ لَا تَجِبُ اسْتِقْلَالًا، بَلْ هِيَ مُقَيَّدَةٌ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِذَا أَمَرُوا بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَأَمَرَ بِهِ رَسُولُهُ فَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ، وَإِذَا أَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ، فَهَذَا هُوَ الوَجْهُ فِي عَدَمِ إِعَادَةِ العَامِلِ فِي لَفْظِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ يُخْطِئُونَ وَيُصِيبُونَ فَلَا يَسْتَقِلُّونَ بِالطَّاعَةِ، بَلْ طَاعَتُهُمْ تَابِعَةٌ لِطَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ﴾[2] لَيْسَ الخِطَابُ هُنَا ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ الفَاءُ هُنَا اسْتِئْنَافِيَّةٌ وَالخِطَابُ مُسْتَقِلٌّ وَلَيْسَ فِيهِ عَطْفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَلَيْسَ المَطْلُوبُ بِأَنَّ الرَّعِيَّةَ إِذَا تَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الحُكَّامِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ العِلْمِ ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِلْعَامَّةِ مَعَ العُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ العَامِّيَّ أَوِ المُقَلِّدَ لَا يُنَازِعُ العُلَمَاءَ، لَا يُنَازِعُهُمْ فِي العِلْمِ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ هَذَا، وَإِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ العِلْمِ، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ﴾، وَهُنَا الشَّرْطُ وَفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾، وَجَوَابُ الشَّرْطِ هُوَ مُقْتَرِنٌ بِالفَاءِ ﴿فَرُدُّوهُ﴾، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وَالشَّرْطُ هُنَا جَاءَ فِي سِيَاقِ نَكِرَةٍ، قَالَ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ هَذَا هُوَ الشَّيْءُ، هَذَا هُوَ النَّكِرَةُ، لَفْظُ الشَّيْءِ نَكِرَةٌ، فَجَاءَ الشَّرْطُ فِي سِيَاقِ النَّكِرَةِ أَفَادَتِ العُمُومَ، أَيْ: فِي أَيِّ شَيْءٍ تَنَازَعْتُمْ فِيهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَإِلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ، أَيْ: إِلَى القُرْآنِ أَوْ إِلَى الرَسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ إِلَيْهِ حَالَ حَيَاتِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَإِلَى سُنَّتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أَيْضًا هُنَا شَرْطٌ ﴿إِن كُنتُمْ﴾، ﴿كُنتُمْ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ، وَ﴿إِن﴾ وَأَمَّا جَوَابُ الشَّرْطِ فَهُوَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ المُتَقَدِّمُ، أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هَذَا شَرْطٌ فِي الإِيمَانِ، عَلَامَةُ الإِيمَانِ وَدِلَالَتُهُ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي مَسْأَلَةٍ مَا رَجَعُوا إِلَى مَا قَالَ اللهُ تَعَالَى وَقَالَ رَسُولُهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ الإِشَارَةُ تَعُودُ إِلَى الرَّدِّ، أَيْ: ذَلِكَ الرَّدُّ الَّذِي رَدَدْتُمُوهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهَذَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الرَّدِّ إِلَى الأَهْوَاءِ وَالآرَاءِ وَأَقْوَالِ البَشَرِ، هَذَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الرَّدِّ إِلَيْهَا.

وَتَبَيَّنَ بِأَنَّ المُفَضَّلَ عَلَيْهِ هُنَاكَ فَاضِلٌ وَمَفْضُولٌ، وَالمَفْضُولُ هُنَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ أَصْلًا، وَأَمَّا الفَاضِلُ فَهُوَ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، إِلَى كِتَابِهِ وَإِلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ، فَهَذَا هُوَ الفَاضِلُ، وَهُوَ الخَيْرُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، وَالتَّأْوِيلُ يَأْتِي فِي القُرْآنِ عَلَى إِطْلَاقَيْنِ:

الإِطْلَاقُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى المَآلِ وَالعَاقِبَةِ.

وَالإِطْلَاقُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ وَالتَّبْيِينِ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ المَآلِ وَالعَاقِبَةِ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيْ: أَحْسَنُ مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ الأُمُورُ وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ الأَحْوَالُ يَكُونُ فِي الرَّدِّ إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ الآيَةُ قِيلَ: إِنَّ لَهَا سَبَبَ نُزُولٍ، قِيلَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا فِي سَرِيَّةٍ وَأَمَّرَهُ عَلَى القَوْمِ. وَقِيلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَمَّرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ. وَإِنْ كَانَتِ العِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، وَهِيَ القَاعِدَةُ الأُصُولِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ، وَلِهَذَا ذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ - وَمِنْهُمُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَابْنُ عَرَبِيٍّ وَغَيْرُهُمْ- إِلَى أَنَّ الآيَةَ تُحْمَلُ عَلَى العُمُومِ مَعَ وُجُودِ السَّبَبِ لَهَا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَيَّنَ ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْوَاعِ البَيَانِ، وَمَا سَبَقَ مِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الإِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا بِالأَمْسِ -وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا- هِيَ أَيْضًا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ مَا يَقْصِدُهُ الشَّيْخُ فِي قَوْلِهِ: «بَيَّنَ اللهُ هَذَا بَيَانًا شَافِيًا».

إِذَنْ هُنَا يَنْبَغِي الإِشَارَةُ إِلَى بَيَانِ اللهِ تَعَالَى بِالأَدِلَّةِ عَلَى وُجُوبِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَمَا سَبَقَ مِنَ الآيَةِ هُوَ الأَصْلُ فِي هَذَا البَابِ، وَغَيْرُهُ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الإِجْتِمَاعِ وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ أَيْضًا تَدْخُلُ فِي هَذَا الدَّلِيلِ.

---

(١) سورة الشورى: ١٠.

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ -وَهَذَا الوَجْهُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ قَوْلُ الشَّيْخِ: «فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا»- فَالأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ وَقَدْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَرَوَاهَا جَمٌّ غَفِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ مِنْهُمْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَذْكُرَ، وَوَرَدَتْ هَذِهِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، هَذِهِ الأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى وُجُوبِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَوَرَدَتْ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَفِي كُتُبِ السُّنَنِ، وَفِي المُؤَلَّفَاتِ المُفْرَدَةِ الَّتِي أُلِّفَتْ فِي السُّنَّةِ، وَالآثَارُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ أَيْضًا عَنِ الصَّحَابَةِ، لَكِنْ نَسُوقُ وَنَسْتَأْنِسُ بِشَيْءٍ مِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

جَاءَ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[1]، وَالحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[2] مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[3].

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ الَّذِي عِنْدَ مُسْلِمٍ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»[4]،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٥١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير- باب السمع والطاعة للإمام (٢٩٥٥) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (١٨٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٣)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق (١٨٤٦).

أَحَادِيثُ مُتَتَابِعَةٌ وَكَثِيرَةٌ فِي هَذَا المَعْنَى تَدُلُّ عَلَى هَذَا الأَصْلِ.

وَفِي أَيْضًا البُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيبَةٌ»(١).

وَجَاءَ أَيْضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ»(٢) أَوْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ هَذَا.

وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَيْضًا: «دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»(٣).

عَلَّقَ ابْنُ حَجَرٍ عَلَى هَذَا وَقَالَ: أَيْ: فِي حَالِ نَشَاطِنَا وَفِي الحَالَةِ الَّتِي نَكُونُ فِيهَا عَاجِزِينَ عَنِ العَمَلِ بِمَا نُؤْمَرُ بِهِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّ طَوَاعِيَتَهُمْ لِمَنْ يَتَوَلَّى عَلَيْهِمْ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى إِيصَالِهِمْ حُقُوقَهُمْ، بَلْ عَلَيْهِمُ الطَّاعَةُ وَلَوْ مَنَعُوهُمْ حَقَّهُمْ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الأَثَرَةَ هِيَ الِاخْتِصَاصُ بِحَظٍّ دُنْيَوِيٍّ، أَرَادَ أَنَّهُ -أَيْ: أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أَرَادَ أَنَّهُ يُسْتَأْثَرُ عَلَيْكُمْ فَيُفَضِّلُ غَيْرَكُمْ فِي نَصِيبِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِبُ طَاعَتُهُ، وَالكَلَامُ لِابْنِ حَجَرٍ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ الأَحَادِيثَ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ، وَأَمَّا أَهْلُ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ فَإِنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ مِثْلَ هَذِهِ الأَدِلَّةِ وَالأَحَادِيثِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهَا فِي الإِمَامِ العَامِّ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا. كَفِعْلِ الخَوَارِجِ وَمَنْ نَحَا نَحْوِهِمْ، وَهَذِهِ أَدِلَّةٌ صَرِيحَةٌ جَاءَتْ فِي القُرْآنِ وَفِي السُّنَّةِ، وَهِيَ دِينٌ وَشَرْعٌ تَعَبَّدَنَا اللهُ تَعَالَى بِطَاعَةِ وَلِيِّ أَمْرِنَا بِالمَعْرُوفِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ فِي هَذَا: «بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْوَاعِ البَيَانِ»، بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا سَمِعْنَا مِنَ الأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَيْضًا تَتَابَعَتْ أَقْوَالُ الأَئِمَّةِ العُلَمَاءِ الكِبَارِ يُؤَكِّدُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، وَيُوَضِّحُونَ هَذِهِ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ فِيهِ، وَنَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِهِمْ:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان- باب إمامة العبد والمولى (٦٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٧١٤٤)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (١٨٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية(١٧٠٩)

يَقُولُ الإِمَامُ أَحْمَدُ -مُبَيِّنًا فَضْلَ الاِجْتِمَاعِ وَخُطُورَةَ الخُرُوجِ عَلَى الإِمَامِ- أَيْ: تَرْكَ طَاعَتِهِ وَعِصْيَانَهُ، قَالَ: «وَمَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانُوا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَأَقَرُّوا لَهُ بِالخِلَافَةِ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ بِالرِّضَا أَوِ الغَلَبَةِ فَقَدْ شَقَّ هَذَا الخَارِجُ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَخَالَفَ الآثَارَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ مَاتَ الخَارِجُ عَلَيْهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، ثُمَّ قَالَ: «وَلَا يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ وَلَا الخُرُوجُ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ وَالطَّرِيقِ»، وَهَذَا القَوْلُ أَخْرَجَهُ اللَّالِكَائِيُّ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ.

وَعِنْدَ النَّوَوِيِّ قَالَ النَّوَوِيُّ أَيْضًا: «وَأَمَّا الخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَحَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ، وَقَدْ تَضَافَرَتِ الأَحَادِيثُ بِمَعْنَى مَا ذَكَرْتُهُ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا يَنْعَزِلُ السُّلْطَانُ بِالفِسْقِ».

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَرْكِ القِتَالِ فِي الفِتْنَةِ فِي بِالأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَصَارُوا يَذْكُرُونَ هَذَا فِي عَقَائِدِهِمْ وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الأَئِمَّةِ، وَتَرْكِ قِتَالِهِمْ».

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «وَوُرُودُ وُجُوبِ طَاعَتِهِمْ مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمُ الكُفْرُ البَوَاحُ، وَمَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَظَاهِرُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ وَإِنْ بَلَغُوا فِي الظُّلْمِ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَفَعَلُوا أَعْظَمَ أَنْوَاعِهِ مَا لَمْ يَخْرُجُوا بِهِ إِلَى الكُفْرِ البَوَاحِ؛ فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ وَاجِبَةٌ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى».

لِأَنَّ العُلَمَاءَ يُدْرِكُونَ المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يَتَرَتَّبُ مِنَ المَفَاسِدِ عَلَى الخُرُوجِ عَلَى الإِمَامِ أَكْثَرُ مِنَ المَفَاسِدِ الَّتِي يَرَوْنَهَا مِنَ الإِمَامِ حَالَ وِلَايَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلِهَذَا كَانَ المَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ الخُرُوجَ عَلَى الأَئِمَّةِ وَقِتَالَهُمْ بِالسَّيْفِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ ظُلْمٌ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الفَسَادَ فِي القِتَالِ وَالفِتْنَةِ أَعْظَمُ مِنَ الفَسَادِ الحَاصِلِ بِظُلْمِهِمْ بِدُونِ قِتَالٍ وَلَا فِتْنَةٍ، فَلَا يُدْفَعُ أَعْظَمُ الفَسَادَيْنِ بِالْتِزَامِ أَدْنَاهُمَا، وَلَعَلَّهُ لَا يَكَادُ يُعْرَفُ طَائِفَةٌ خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ، وَاللهُ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ كُلِّ ظَالِمٍ وَكُلِّ بَاغٍ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَا أَمَرَ بِقِتَالِ البَاغِينَ ابْتِدَاءً، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ..﴾[1] الآيَةَ، فَلَمْ

(١) سورة الحجرات: ٩.

يَأْمُرْ بِقِتَالِ البَاغِيَةِ ابْتِدَاءً؛ فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِقِتَالِ وُلَاةِ الأَمْرِ ابْتِدَاءً؟!».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الخَيْرِ، كَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى يَزِيدَ بِالمَدِينَةِ، وَكَابْنِ الأَشْعَثِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى عَبْدِ المَلِكِ بِالعِرَاقِ، وَكَابْنِ المُهَلَّبِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى ابْنِهِ بِخُرَاسَانَ، وَكَأَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الَّذِي خَرَجَ عَلَيْهِمْ بِخُرَاسَانَ أَيْضًا، وَكَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى المَنْصُورِ بِالمَدِينَةِ وَالبَصْرَةِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ».

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ مِنَ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِتَتَبُّعِ مَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَبْرَ التَّارِيخِ مِنْ خُرُوجِ النَّاسِ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ وَمَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الفَسَادِ العَظِيمِ وَالعَدَاوَةِ، وَتَفْرِقَةِ صَفِّ المُسْلِمِينَ.

وَالشَّيْخُ أَيْضًا -الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ اللهُ- أَكَّدَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ، مِنْ أَشْهَرِ مَا أَكَّدَهُ أَيْضًا فِي ذَلِكَ فِي «كِتَابِ التَّوْحِيدِ»، وَأَكَّدَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي «مَسَائِلِ الجَاهِلِيَّةِ»، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي المَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ «مَسَائِلِ الجَاهِلِيَّةِ»، ذَكَرَ الشَّيْخُ أَنَّ نَزْعَ الطَّاعَةِ مِنْ وُلَاةِ الأَمْرِ وَالخُرُوجَ عَلَيْهِمْ هُوَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا لَيْسَ لَهُمْ إِمَامٌ، وَقَالَ فِي المَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ: «إِنَّ مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ» يَعْنِي أَنَّ مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ عِنْدَ الجَاهِلِيَّةِ، «مُخَالَفَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ وَعَدَمَ الِانْقِيَادِ لَهُ فَضِيلَةٌ»، الجَاهِلِيَّةُ يَعُدُّونَ ذَلِكَ فَضِيلَةً، «وَالسَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ» أَيِ: الجَاهِلِيَّةُ يَعُدُّونَ ذَلِكَ ذُلًّا وَمَهَانَةً، «فَخَالَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الوُلَاةِ، وَأَمَرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَغَلَّظَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَأَعَادَ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَيْضًا بِالأَمْسِ بَعْضُ الأَحَادِيثِ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**»[1]. زَادَ أَحْمَدُ: «وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاكُمُ اللهُ أَمْرَهُ» هَذَا هُوَ المَنْهَجُ الشَّرْعِيُّ، المَنْهَجُ الشَّرْعِيُّ هُوَ المُنَاصَحَةُ وَلَيْسَ الخُرُوجَ عَلَى الوُلَاةِ.

وَجَاءَ أَيْضًا فِي الحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ بِالأَمْسِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ وَلَّاكُمُ اللهُ أَمْرَهُ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية- باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، ومالك في كتاب الجامع- باب ما جاء في إضاعة المال (١٨٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[1].

وَيَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ: يَقُولُ: «وَمَا وَقَعَ خَلَلٌ فِي النَّاسِ إِلَّا بِسَبَبِ الإِخْلَالِ بِأَحَدِ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلَاثَةِ»، وَهَذَا شَيْءٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ.

وَيُعَلِّقُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الحَدِيثِ وَيَقُولُ: «الحُقُوقُ نَوْعَانِ: حَقٌّ لله، وَحَقٌّ لِلْعِبَادِ، وَحَقُّ الله تَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْئًا»، وَهَذَا هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لله تَعَالَى الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي الحَدِيثِ، إِخْلَاصُ العَمَلِ لله أَنْ يُعْبَدَ اللهُ بِمَا شَرَعَ، وَأَلَّا يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، هَذَا حَقٌّ عَامٌّ، حَقُّ الله تَعَالَى، «وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي وَهُوَ حَقُّ العِبَادِ: وَحُقُوقُ العِبَادِ عَلَى نَوْعَيْنِ: إِمَّا حَقٌّ خَاصٌّ أَوْ حَقٌّ عَامٌّ، فَالحَقُّ الخَاصُّ هُوَ بِرُّ الإِنْسَانِ بِوَالِدَيْهِ وَأَرْحَامِهِ وَجِيرَانِهِ، وَالحَقُّ العَامُّ أَيْضًا يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ، الحَقُّ العَامُّ الَّذِي بَيْنَ النَّاسِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

حَقٌّ لِلرَّعِيَّةِ، وَحَقٌّ لِلرَّاعِي، فَلِلرَّاعِي حَقٌّ خَاصٌّ، وَلِلرَّعِيَّةِ حُقُوقٌ أَيْضًا، فَإِذَا قَامَ الْمُسْلِمُ بِهَذِهِ الحُقُوقِ عَلَى الوَجْهِ الشَّرْعِيِّ فَحِينَئِذٍ حَقَّقَ مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَبَدًا».

إِذَنِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ -كَمَا هُوَ مُتَقَرِّرٌ فِي الشَّرْعِ- لَيْسَ مِنَ ابْتِكَارِ البَشَرِ وَلَا مِنَ ابْتِدَاعِ العُلَمَاءِ، بَلْ هُوَ دِينٌ وَهُوَ شَرْعٌ جَاءَ فِي القُرْآنِ وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ، فَالَّذِينَ يُعَارِضُونَ هَذَا الأَصْلَ العَظِيمَ، أَوْ يَنْقِمُونَ عَلَى مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ، أَوْ يَتَّهِمُونَهُ بِأَبْشَعِ التُّهَمِ فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سَلَكَ مَسْلَكَ أَهْلِ البِدَعِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[2].

تَكَلَّمَ عُلَمَاؤُنَا فِي هَذِهِ البِلَادِ فِي هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ كَلَامًا كَثِيرًا، وَأَصَّلُوهُ تَأْصِيلًا شَرْعِيًّا، وَذَكَّرُوا بِهِ النَّاسَ دَائِمًا، وَهُمْ إِذَا ذَكَّرُوا النَّاسَ بِهِ إِنَّمَا يُذَكِّرُونَ بِمَا ذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَذَكَّرَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ هَذَا بِأَمْرٍ مُبْتَكَرٍ، كَمَا تَقَدَّمَ لَكُمْ أَنَّ العُلَمَاءَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هَذَا فِي كُتُبِهِمْ: أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ حِينَمَا أَلَّفَ «العَقِيدَةَ الطَّحَاوِيَّةَ» أَصَّلَ هَذَا المَعْنَى، وَأَصَّلَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ الله بْنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالبَرْبَهَارِيُّ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَالأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَمَنْ قَبْلَهُمْ، كُلُّهُمْ أَصَّلُوا هَذَا الأَصْلَ العَظِيمَ.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) سورة القصص: ٥٠.

وَالشَّيْخُ هُنَا يَدْعُو إِلَى فَهْمِ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَنْ قَامَ بِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ، إِذَا قَامَ بِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ عَلَى وِفْقِ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ، وَمَنْ خَالَفَهُ فَإِنَّهُ يَأْثَمُ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[2].

وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مَوْعُودٌ بِالفَوْزِ العَظِيمِ، وَالفَلَاحِ الكَبِيرِ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]، وَيَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا النَّعِيمَ المُقِيمَ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[4]، وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الفَوْزِ بِذَلِكَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[5]، وَتَوَعَّدَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مَنْ يَعْصِي اللهَ وَرَسُولَهُ بِالضَّلَالِ وَبِنَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[6] وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[7]، هَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، وَلِهَذَا المُسْلِمُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بِهَذَا الأَصْلِ، أَنْ يَتَعَبَّدَ اللهَ وَيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا بِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ.

وَهُنَاكَ بَعْضُ الأُمُورِ وَالقَضَايَا ذَاتِ الأَهَمِّيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَمَاعَةَ فِي كِتَابِهِ «تَحْرِيرُ الأَحْكَامِ فِي

---

(١) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب قول الله تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} (٧١٣٧)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٣٥).

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) سورة النساء: ٦٩.

(٥) سورة الأحزاب: ٧١.

(٦) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٧) سورة الجن: ٢٣.

تَدْبِيرِ أَهْلِ الإِسْلَامِ» ذَكَرَ كَلَامًا نَفِيسًا فِيمَا يَجِبُ عَلَى الرَّعِيَّةِ مِنَ الحُقُوقِ نَحْوَ إِمَامِهِمْ، وَهِيَ حُقُوقٌ دَلَّ عَلَيْهَا الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ عَشَرَةٌ:

قَالَ: أَوَّلُهَا: بَذْلُ الطَّاعَةِ لَهُ -أَيْ: لِوَلِيِّ الأَمْرِ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً.

الثَّانِي: بَذْلُ النَّصِيحَةِ لَهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً. وَالحَاكِمُ لَيْسَ كَسَائِرِ البَشَرِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْطَى حَقَّهُ مِنَ التَّكْرِيمِ، وَالاِحْتِرَامِ، وَالوَقْتِ المُنَاسِبِ فِي نُصْحِهِ، وَإِسْدَاءِ النَّصِيحَةِ لَهُ؛ لِأَنَّ الحَدِيثَ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي نُصْحِ الإِمَامِ، فِي حَدِيثِ تَمِيمٍ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1]، فَأَئِمَّةُ المُسْلِمِينَ هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى النَّصِيحَةِ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ، وَلَكِنَّ النَّصِيحَةَ لَهَا مَنْهَجُهَا وَطَرِيقُهَا الشَّرْعِيُّ، مِنْ أَهَمِّ طُرُقِهَا: أَلَّا تَكُونَ عَلَانِيَةً، تَكُونُ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَبَيْنَ وَلِيِّ الأَمْرِ فِي السِّرِّ حَتَّى تَكُونَ أَحْرَى لِلْقَبُولِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يَنْصَحُ لَهُ عَلَانِيَةً، وَإِنَّمَا يَخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ قَبِلَ ..**»، وَإِلَّا فَقَدْ أَعْذَرَ هَذَا الإِنْسَانُ.

الثَّالِثَةُ: القِيَامُ بِنُصْرَتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَبَذْلُ المَجْهُودِ فِي ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ نُصْرَةِ المُسْلِمِينَ وَكَفِّ أَيْدِي المُعْتَدِينَ. وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[2]، فَإِذَا مَا تَعَاوَنَ الرَّعِيَّةُ مَعَ الرَّاعِي عَلَى الحَقِّ وَعَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى حَصَلَ الخَيْرُ لَهُمْ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يَعْرِفَ المُسْلِمُ لَهُ عِظَمَ حَقِّهِ، وَمَا يَجِبُ مِنْ تَعْظِيمِ قَدْرِهِ فَيُعَامِلَهُ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الاِحْتِرَامِ وَالإِجْلَالِ وَالإِكْرَامِ. وَلِهَذَا فَإِنَّ احْتِرَامَ ذِي السُّلْطَانِ وَالتَّأَدُّبَ مَعَهُ أَيْضًا يَرْفَعُ مِنْ مَكَانَتِهِ وَيَرْدَعُ المُفْسِدِينَ عَنِ الفَسَادِ، لِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثٍ يُبَيِّنُ فِيهِ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرْآنِ، غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ وَذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**»[3]، فَاحْتِرَامُهُ وَتَوْقِيرُهُ هَذَا مِنَ الشَّرْعِ، وَلَيْسَ مِنَ العَقْلِ.

الخَامِسَةُ: إِيقَاظُهُ عِنْدَ غَفْلَتِهِ، وَإِرْشَادُهُ عِنْدَ هَفْوَتِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِ، وَحِفْظًا لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ. كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ بَشَرٌ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُذَكِّرُهُ وَيُنَبِّهُهُ، كَمَا كَانَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الوُلَاةِ يَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

السَّادِسَةُ: تَحْذِيرُهُ مِنْ عَدُوٍّ يَقْصِدُهُ بِسُوءٍ أَوْ حَاسِدٍ يَرُومُهُ بِأَذًى، أَوْ خَارِجِيٍّ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ. يُدَافَعُ عَنْهُ وَيُذَبُّ عَنْهُ؛ لِأَنَّ الذَّبَّ عَنْهُ وَالدِّفَاعَ عَنْهُ فِيهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، لَيْسَتْ مَصْلَحَةً لِحَيَاتِهِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا لَهُ وَلِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ.

السَّابِعَةُ: إِعْلَامُهُ بِسِيَرِ عُمَّالِهِ الَّذِينَ هُوَ مُطَالَبٌ بِهِمْ. إِذَا أَخَلَّ أَحَدٌ مِنْ عُمَّالِهِ بِشَيْءٍ، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا كُلِّفَ بِهِ مِنْ مُهِمَّةٍ فَإِنَّهُ يُبْلَغُ وَلِيُّ الأَمْرِ عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَرْدَعَهُ وَيُحَاسِبَهُ وَيَرُدَّهُ إِلَى الحَقِّ.

الثَّامِنَةُ: إِعَانَتُهُ عَلَى مَا تَحَمَّلَهُ مِنْ أَعْبَاءِ مَصَالِحِ الأُمَّةِ، وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى ذَلِكَ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ. خَاصَّةً إِذَا كَانَ هَذَا الوَالِي -وَلِيُّ الأَمْرِ- يُحَكِّمُ فِي النَّاسِ شَرْعَ اللهِ، وَيُقِيمُ فِيهِ الدِّينَ، كَحَالِ وُلَاتِنَا لِهَذِهِ البِلَادِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الوُقُوفُ مَعَهُمْ وَمُنَاصَرَتُهُمْ وَالذَّبُّ عَنْهُمْ، وَإِعْلَامُهُمْ بِأَيِّ مُفْسِدٍ أَوْ مُغْرِضٍ يُرِيدُ المَسَاسَ بِأَمْنِ البِلَادِ، أَوِ الاِعْتِدَاءَ عَلَى أَرْوَاحِ العِبَادِ، أَوْ سَلْبَ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، أَوْ تَبْيِيتَ الشَّرِّ لَهُمْ، أَوْ نَقْلَ وَتَسْرِيبَ المَعْلُومَاتِ إِلَى أَعْدَائِهِمْ، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الوَاجِبِ العَظِيمِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي التَّعَاوُنِ وَدَاخِلٌ فِي المُنَاصَحَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقُودُ مَصَالِحَ هَذِهِ الأُمَّةِ.

التَّاسِعَةُ: رَدُّ القُلُوبِ المُتَنَافِرَةِ عَنْهُ إِلَيْهِ، وَجَمْعُ النَّاسِ عَلَى مَحَبَّتِهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الأُمَّةِ وَانْتِظَامِ أَحْوَالِ المِلَّةِ، القُلُوبُ الَّتِي تَنْفِرُ عَنْ وَلِيِّ الأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي يَقُومُ بِالوِلَايَةِ الرَّاشِدَةِ يَنْبَغِي رَدُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ تَذْكِيرِ العُلَمَاءِ لِلنَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْ وُلَاةِ أَمْرِهِمْ، وَلَا يَكُونُونَ كَحَالِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُنْهِكُونَ فِي الخَارِجِ اليَوْمَ وَيُرِيدُونَ تَأْلِيبَ الرَّعِيَّةِ عَلَى وُلَاتِهِمْ وَحُكَّامِهِمْ، يَنْبَغِي عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ وَأَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيَنْبَغِي عَلَى العُلَمَاءِ أَنْ يَرُدُّوهُمْ، يَرُدُّوا هَذِهِ القُلُوبَ المُتَجَافِيَةَ، وَالقُلُوبَ المُتَنَافِرَةَ عَنْهُمْ، يَرُدُّونَهُمْ إِلَيْهِ وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْ هَذِهِ العَوَاقِبِ العَظِيمَةِ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَةَ النَّاسِ عَلَى هَذَا الإِمَامِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾[1] نَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الأَصْلِ الثَّانِي: الاِجْتِمَاعُ عَلَى الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِسْلَامٌ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا يَكُونُ جَمَاعَةٌ إِلَّا بِإِمَارَةٍ، وَلَا تَكُونُ إِمَارَةٌ إِلَّا بِإِمَامَةٍ، فَإِذَا وُجِدَ الإِمَامُ؛ عَلَى المُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَنْ يَتَعَاوَنُوا فِي رَدِّ مَنْ نَفَرَ وَافْتَرَقَ عَنْ صَفِّ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ أَنْ يَقُومُوا بِرَدِّهِ وَيُنَاصِحُوهُ حَقَّ المُنَاصَحَةِ.

العَاشِرَةُ: الذَّبُّ عَنْهُ بِالقَوْلِ وَالفِعْلِ وَالمَالِ وَالنَّفْسِ وَالأَهْلِ فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ وَالسِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ؛ لِأَنَّ الأُمَرَاءَ

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

أَوَّلًا هُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ البَشَرِ لَا يَنْبَغِي الوَقِيعَةُ فِيهِمْ لَا بِالقَوْلِ وَلَا بِالفِعْلِ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ تَحْرِيمًا قَطْعِيًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقَعَ فِي أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِوَقِيعَةٍ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، لَا بِنَمِيمَةٍ وَلَا بِغِيبَةٍ وَلَا بِقَوْلٍ بَاطِلٍ، وَلَا بِتَنَقُّصٍ وَلَا بِازْدِرَاءٍ وَلَا بِاحْتِقَارٍ وَلَا بِتَقْلِيلٍ وَلَا بِإِلْصَاقِ تُهْمَةٍ، وَلَا بِظَنٍّ سَيِّءٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فَإِذَا كَانَتِ الغِيبَةُ فِي أَصْلِهَا مُحَرَّمَةً وَقَوْلُ البَاطِلِ فِي أَصْلِهِ مُحَرَّمًا وَالنَّمِيمَةُ فِي أَصْلِهَا مُحَرَّمَةً؛ فَإِنَّهَا تَعْظُمُ إِذَا وَقَعَتْ فِي طَائِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ تَكُونُ أَكْثَرُ وَأَشَدُّ، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ أَهْلُ العِلْمِ، تَكُونُ أَشَدَّ حُرْمَةً إِذَا وَقَعَتْ فِي العَالِمِ الَّذِي يُبَيِّنُ شَرْعَ اللهِ وَيَدُلُّ النَّاسَ إِلَى الحَقِّ وَالرَّشَادِ وَالهُدَى، وَتَكُونُ أَيْضًا أَشَدَّ حُرْمَةً إِذَا وَقَعَتْ فِي وَلِيِّ الأَمْرِ وَالسُّلْطَانِ؛ لِأَنَّ انْتِقَاصَ العَالِمِ هُوَ انْتِقَاصٌ وَطَعْنٌ فِي الشَّرِيعَةِ لِمَا يَحْمِلُهُ مِنَ الدِّينِ، فَإِذَا قُلِّلَ مِنْ شَأْنِ العَالِمِ أَعْرَضَ النَّاسُ عَنْهُ وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَإِذَا انْتُقِصَ السُّلْطَانُ وَوَقَعَ النَّاسُ فِيهِ بِالقَوْلِ وَالفِعْلِ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ وَقَلَّ احْتِرَامُهُ وَالأَدَبُ مَعَهُ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ الفِتْنَةُ وَيَكُونُ الاِعْتِدَاءُ وَالاِحْتِقَارُ وَالاِزْدِرَاءُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الأَمْرَ، وَجَعَلَهُ أَشَدَّ حُرْمَةً عَلَى هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ -العُلَمَاءِ وَالأُمَرَاءِ- كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]، حَتَّى جَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الأُمَرَاءَ وَالسَّلَاطِينَ حَتَّى وَلَوْ جَارُوا يَنْبَغِي عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَتَحَمَّلَ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ الجَوْرَ -جَوْرَ الإِمَامِ- عَلَى نَوْعَيْنِ: جَوْرٌ فِي الدِّينِ، وَهَذَا يَنْبَغِي الصَّبْرُ عَلَيْهِ، وَضَابِطُ هَذَا الجَوْرِ أَلَّا يَصِلَ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[3]، انْظُرْ إِلَى التَّأْكِيدِ، تَأْكِيدَاتٌ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَا هُوَ رَمْيٌ فَقَطْ هَذَا الإِنْسَانُ فِيهِ كَذَا وَأَنَّ فِيهِ صِفَاتِ كُفْرٍ، «عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ»، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ فِيهِ بُرْهَانٌ فِي هَذَا فَلَا تُطْلِقْ هَذَا القَوْلَ، وَإِذَا كَانَ فِيهِ جَوْرٌ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ، فَيَنْبَغِي الصَّبْرُ وَالتَّصَبُّرُ كَمَا جَاءَتْ فِي الوَصِيَّةِ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ: «اسْمَعْ وَأَطِعْ لِـمَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكَ،

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ»[1].

وَلِهَذَا لَاقَى مَا لَاقَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حِينَمَا افْتُتِنَ فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ بِفِتْنَةِ القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ وَعُذِّبَ، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ وَتَحَمَّلَ حَتَّى أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ السُّنَّةَ وَأَظْهَرَ بِهِ المِلَّةَ، وَكَانَ النَّاسُ عَلَى الأَبْوَابِ وَمَعَهُمُ الأَقْلَامُ يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يَكْتُبَ، فَلَوْ كَتَبَ شَيْئًا لَوَصَلَ إِلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ وَتَحَمَّلَ وَأَعَزَّ اللهُ بِهِ الدِّينَ وَأَظْهَرَ بِهِ السُّنَّةَ.

إِذَنْ هَذَا جَوْرٌ فِي الدِّينِ، الجَوْرُ فِي الدِّينِ يَنْبَغِي الصَّبْرُ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ، «عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

وَجَوْرٌ فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّهُ يُطَاعُ فِي هَذَا كَمَا سَمِعْنَا فِي الأَحَادِيثِ «وَإِنْ أَخَذَ أَثَرَةً فِي ذَلِكَ» تَصَرُّفَاتُ وَلِيِّ الأَمْرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

إِمَّا أَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ فِيهِ طَاعَةٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فِيهِ طَاعَةٌ للهِ وَرَسُولِهِ فَتَجِبُ طَاعَتُهُ، كَأَنْ يَأْمُرَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، وَإِظْهَارِ التَّوْحِيدِ، وَإِعْلَاءِ السُّنَنِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ يَجِبُ طَاعَتُهُ فِي هَذَا، وَعِصْيَانُهُ مَعْصِيَةٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ يَسُوغُ فِيهِ الاِجْتِهَادُ عَلَى المَبْنِيِّ عَلَى خِلَافٍ شَرْعِيٍّ، هَذَا الاِجْتِهَادُ يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى خِلَافٍ شَرْعِيٍّ، بِمَعْنَى: أَنَّ العُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ المَسَائِلِ الكُبْرَى الَّتِي تَمَسُّ حَيَاةَ النَّاسِ جَمِيعًا، اخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى أَقْوَالٍ أَوْ عَلَى قَوْلَيْنِ، اخْتَارَ وَلِيُّ الأَمْرِ أَحَدَ هَذِهِ الأَقْوَالِ، فَهُنَا تَتَعَيَّنُ طَاعَتُهُ، مِثَالُ ذَلِكَ المَسْعَى، اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ المُعَاصِرُونَ عِنْدَ التَّوْسِعَةِ فِيهِ، مِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ، وَاخْتَارَ وَلِيُّ الأَمْرِ قَوْلَ مَنْ أَجَازَ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْسِعَةِ عَلَى المُسْلِمِينَ وَالتَّفْرِيجِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا جَاءَتِ القَاعِدَةُ، قَالُوا: حُكْمُ الحَاكِمِ يَرْفَعُ الخِلَافَ، فَإِذَا اخْتَارَ الحَاكِمُ قَوْلًا مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ، وَهَذَا القَوْلُ مَبْنِيٌّ عَلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، فَتَتَعَيَّنُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ.

الحَالُ الثَّالِثُ: أَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ، كَأَنْ يَمْنَعَ النَّاسَ مِنَ الصَّلَاةِ، أَوْ مِنَ الزَّكَاةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا تَجِبُ طَاعَتُهُ أَبَدًا؛ لِأَنَّ طَاعَتَهُ مَعْصِيَةٌ للهِ تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»[2]، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، فَلَا يَجُوزُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ، يَكُونُ شِرْكًا فِي الطَّاعَةِ هَذَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٢٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[1]، حَدِيثُ عَدِيٍّ[2] إِذْ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَبَدْنَاهُمْ. قَالَ: «أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ؟! يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ!!» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَتِلْكَ طَاعَتُهُمْ»[3].

فَتبيَّنَ مِنْ هَذَا -يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ طَاعَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ يَترَتَّبُ عَلَيْهَا مصَالِحُ عَظِيمَةٌ، وَفَوَائِدُ مُتَعَدِّدَةٌ:

أَوَّلُ هَذِهِ الفَوَائِدِ: أَنَّ فِي الطَّاعَةِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا الِامْتِثَالُ هُوَ عِبَادَةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا يَتَقَرَّبُ بِهَا العَبْدُ إِلَى رَبِّهِ؛ لِأَنَّ امْتِثَالَ الأَمْرِ طَاعَةٌ للهِ تَعَالَى.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا -مِنَ المصَالِحِ المُتَرَتِّبَةِ-: أَنَّ فِي ذَلِكَ انْتِظَامًا لِأَحْوَالِ النَّاسِ وَاسْتِقْرَارِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الصِّرَاعَاتِ وَالخِلَافِ وَالفِتَنِ.

وَمِنَ الفَوَائِدِ وَالمصَالِحِ المُتَرَتِّبَةِ: ظُهُورُ شَعَائِرِ الدِّينِ بَيْنَ النَّاسِ، فَالإِمَامُ العَادِلُ، وَالخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ، وَصَاحِبُ الوِلَايَةِ الصَّالِحَةِ يَنْعَمُ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِ بِإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ وَإِظْهَارِ السُّنَنِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الخَيْرِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ.

وَأَيْضًا: انْتِشَارُ الأَمْنِ فِي رُبُوعِ البِلَادِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ النَّاسِ لِوَلِيِّ أَمْرِهِمْ تَمْنَحُهُ القُوَّةَ وَالتَّمْكِينَ، فَلَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ مِنَ العُصَاةِ وَالمُخَرِّبِينَ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَى أَحَدٍ، فَيَسُودُ الأَمْنُ فِي رُبُوعِ البِلَادِ بِسَبَبِ هَذِهِ الطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ.

ثُمَّ أَيْضًا كَذَلِكَ: يَتَمَاسَكُ بُنْيَانُ المُجْتَمَعِ وَتَقْوَى لُحْمَتُهُ، فَإِذَا مَا شَاهَدَهُ الأَعْدَاءُ خَافُوا مِنْ هَذَا المُجْتَمَعِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقْدِمُوا عَلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَخْتَرِقُوا صَفَّهُ؛ لِأَنَّهُ لُحْمَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَمَاسِكٌ، الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةُ كَاللُّحْمَةِ الوَاحِدَةِ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ.

ثُمَّ أَيْضًا إِذَا أَطَاعَ النَّاسُ وَلِيَّ أَمْرِهِمْ تَفَرَّغُوا لِأَيِّ شَيْءٍ؟ تَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ، وَتَفَرَّغُوا لِلْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالتَّعْلِيمِ وَالعِلْمِ، وَالعَطَاءِ وَالإِنْتَاجِ، وَالخَيْرُ يَزْدَادُ وَيَنْمُو، وَيَتَكَاثَرُ النَّسْلُ وَيَكْثُرُ عِبَادُ اللهِ فِي الأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ

---

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلامًا بعد خديجة، ولد بمكة، وربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه. وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. وأقام علي بالكوفة إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم غيلة في مؤامرة ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ. (أسد الغابة: ١/ ٧٨٩).

(٣) ذكره الألباني في كتاب «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام» (ص ٧٧).

فِي أَمْنٍ وَاسْتِقْرَارٍ، أَمَّا إِذَا كَانُوا فِي اضْطِرَابٍ وَخَوْفٍ وَفَزَعٍ فَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ عِنْدُهُمُ اجْتِمَاعٌ وَلَا تَفَرُّغٌ، لَا يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى العِبَادَةِ، وَإِلَى الصَّلَاةِ، وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ فِي خَوْفٍ وَفَزَعٍ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ هُنَاكَ مَفَاسِدَ أَيْضًا، إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَصَالِحُ تَتَرَتَّبُ عَلَى الطَّاعَةِ، يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ الإِنْسَانُ أَنَّ هُنَاكَ مَفَاسِدَ مُتَرَتِّبَةً عَلَى مُخَالَفَةِ وَعِصْيَانِ وَلِيِّ الأَمْرِ:

مِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ المَفَاسِدِ: أَنَّ فِيهَا مُخَالَفَةً لِأَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَا هِيَ نَتِيجَةُ المُخَالَفَةِ؟ قَرَأْنَاهَا بِالأَمْسِ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، الفِتْنَةُ فِي الدُّنْيَا إِمَّا بِالتَّعْذِيبِ أَوْ بِالقَتْلِ أَوْ بِالسَّجْنِ أَوْ بِالسَّلْبِ، وَفِي الآخِرَةِ بِالعَذَابِ، إِذَا خَالَفَ النَّاسُ هَذَا الأَمْرَ وَخَالَفُوا وَلِيَّ الأَمْرِ الَّذِي طَاعَتُهُ هِيَ طَاعَةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا إِذَا أَمَرَ.

وَأَيْضًا مِنَ المَفَاسِدِ: حُصُولُ الفِتْنَةِ وَخُرُوجُ الصِّرَاعَاتِ وَالتَّعَصُّبُ القَبَلِيُّ، وَاشْتِعَالُ الفِتْنَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَعْطِيلُ مَصَالِحِ المُسْلِمِينَ، وَقَطْعُ الطُّرُقِ وَسَلْبُ الأَمْوَالِ، فَلَا يَخْرُجُ الإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ، يَخَافُ أَنْ يَأْتِيَهُ شَيْءٌ، كَمَا هُوَ الحَالُ الآنَ الوَاقِعُ فِي بَعْضِ البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُشَاهِدُونَهَا وَتَسْمَعُونَ عَنْهَا، وَعَنِ وَالخِلَافَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَئِمَّتِهِمْ الوَاقِعِ، وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ خِيَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ» أَيْ: تَدْعُونَ لَهُمْ «وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»[2].

انْظُرْ إِلَى بَعْضِ البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ اليَوْمَ، وَمَا جَرَى فِيهَا مِنَ الكَرَاهِيَةِ بَيْنَ الحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ وَالصِّرَاعَاتِ القَائِمَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَأَصْبَحَ الحَاكِمُ يَقْتُلُ رَعِيَّتَهُ وَيُحَارِبُهُمْ وَيُطَارِدُهُمْ بِالسِّلَاحِ، مَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ سَبَبُهُ التَّخَلِّي عَنِ الأَصْلِ الأَوَّلِ -وَهُوَ إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ-، وَالأَصْلِ الثَّانِي الَّذِي تَقَدَّمَ -الَّذِي هُوَ الاِجْتِمَاعُ عَلَى الدِّينِ-، وَالأَصْلِ الثَّالِثِ -الَّذِي هُوَ: مِنَ الاِجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ بِالمَعْرُوفِ وَالمُنَاصَحَةُ-، إِلَّا إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَفِظَ هَذِهِ البِلَادَ مِنْ تِلْكَ الصِّرَاعَاتِ وَالوَيْلَاتِ، وَهَذَا بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ، وَبِمَا تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَالاِسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) سورة النور: ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب خيار الأئمة وشرارهم (١٨٥٥).

ثُمَّ أَيْضًا مِنَ المَفَاسِدِ -كَمَا تَرَوْنَ وَتُشَاهِدُونَ-: التَّمَرُّدُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ تَمَرُّدٌ عَظِيمٌ، يَحْصُلُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ المَفَاسِدِ، وَمَعْصِيَةٌ وَمُخَالَفَةٌ لِأَمْرِهِ، هَذَا مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذَا حَصَلَ التَّمَرُّدُ مِنَ الرَّعِيَّةِ عَلَى الرَّاعِي حَلَّ بَيْنَهُمُ البَلَاءُ وَالعَذَابُ.

وَأَيْضًا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ: تَمْزِيقُ شَمْلِ النَّاسِ وَتَفْرِيقُ كَلِمَتِهِمْ وَصَدْعُ صَفِّهِمْ، فَيَتَوَقَّفُ العِلْمُ وَتَتَوَقَّفُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَيَتَوَقَّفُ إِغَاثَةُ المَلْهُوفِ، وَنُصْرَةُ الضَّعِيفِ، كُلٌّ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ الخِلَافُ مُشْتَدًّا مَا بَيْنَ الحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ، هَذِهِ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ.

وَلِهَذَا -كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ كَمَا تَقَدَّمَ كَلَامُهُ آنِفًا-: «إِنَّ فِي الخُرُوجِ عَلَى الأَئِمَّةِ مِنَ المَفَاسِدِ أَكْثَرَ مِنَ المَفَاسِدِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الخُرُوجِ عَلَيْهَا»، وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى.

بَقِيَتْ مَسْأَلَةٌ مِنَ المَسَائِلِ: هِيَ الدُّعَاءُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ، الدُّعَاءُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ هِيَ عِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ، يَدْعُو لِوَلِيِّ الأَمْرِ لِأَنَّهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَلَّاهُ مَسْئُولِيَّةً عَظِيمَةً، فَيَدْعُو لَهُ بِالتَّوْفِيقِ وَالصَّلَاحِ وَالخَيْرِ؛ لِأَنَّ صَلَاحَهُ يَعُودُ عَلَى الرَّعِيَّةِ.

ثُمَّ أَيْضًا أَنَّهُ مِنَ النَّصِيحَةِ، الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِ مِنَ النَّصِيحَةِ لَهُ أَنْ تَدْعُوَ لَهُ.

ثُمَّ إِنَّ أَيْضًا الدُّعَاءَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ هُوَ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ أَهْلُ العِلْمِ فِي كُتُبِهِمْ؛ كَالبَرْبَهَارِيِّ، وَالخَلَّالِ فِي «السُّنَّةِ»، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، مِنْ عَلَامَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِوَلِيِّ أَمْرِهِمْ بِالصَّلَاحِ وَالتَّوْفِيقِ وَالبِطَانَةِ الصَّالِحَةِ.

وَأَيْضًا فِي الدُّعَاءِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ: أَنَّهُ تَحْقِيقٌ لِمَبْدَأِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، مَنْ سَمِعَ وَأَطَاعَ دَعَا لَهُ، دَعَا لِمَنْ سَمِعَهُ وَأَطَاعَهُ، فَهُوَ تَحْقِيقٌ لِمَبْدَأِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَلِأَنَّ الرَّاعِيَ إِذَا صَلُحَ فِي نَفْسِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَشُئُونِهِ وَأَحْوَالِهِ عَادَ ذَلِكَ بِالخَيْرِ عَلَى الرَّعِيَّةِ.

وَلِهَذَا قَالَ المُؤَلِّفُ هُنَا وَهُوَ يَقُولُ: «شَرْعًا وَقَدَرًا»، كَلِمَةُ «قَدَرًا» هُنَا وَهُوَ مَا كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّاسِ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، شَرْعًا تَقَدَّمَتِ الأَدِلَّةُ عَلَيْهِ، وَقَدَرًا هُوَ مَا كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى العِبَادِ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَعَبَّدَهُمْ بِهَذَا الشَّرْعِ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ هَذَا السُّلْطَانَ، فَهَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ وَكَائِنٌ عَلَيْهِمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِأَمْرِ

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٩.

الله شَرْعًا وَقَدَرًا فِي هَذَا.

وَنَتَوَقَّفُ عِنْدَ هَذَا.

بَعْضُ الأَسْئِلَةِ هُنَا تَقَدَّمَ الجَوَابُ عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ الكَلَامِ.

السُّؤَالُ: هَلْ رَئِيسُ الأَغْلَبِيَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ يَكُونُ وَلِيَّ الأَمْرِ أَوْ لَا؟

الجَوَابُ: وَلِيُّ الأَمْرِ يَكُونُ إِمَّا أَنْ يُخْتَارَ مِنْ قِبَلِ الرَّعِيَّةِ أَوْ تَكُونَ لَهُ الوِلَايَةُ بِالأَغْلَبِيَّةِ، بِالأَغْلَبِ، أَنْ يَتَغَلَّبَ هُوَ، أَنْ يَتَغَلَّبَ وَيَكُونَ حَاكِمًا، أَوْ يُخْتَارَ مِنْ قِبَلِ الرَّعِيَّةِ، فَهَذَا وَلِيُّ أَمْرٍ.

السُّؤَالُ: هَلْ قِتَالُ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ وَأَبْنَائِهِ خُرُوجٌ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ؟

الجَوَابُ: هَذَا لَيْسَ بِخُرُوجٍ، هَذَا كَلَامٌ يُكَرِّرُهُ بَعْضُ أَهْلِ البِدَعِ وَأَهْلِ الأَهْوَاءِ.

السُّؤَالُ: مَنْ هُوَ الوَلِيُّ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يَجِبُ طَاعَتُهُ بِالمَعْرُوفِ؟ وَمَا هِيَ شُرُوطُ وَلِيِّ الأَمْرِ الشَّرْعِيِّ؟

الجَوَابُ: الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَ المُسْلِمِينَ إِمَّا بِالسَّيْفِ وَالغَلَبَةِ، وَإِمَّا بِالِاخْتِيَارِ، فَهَذَا هُوَ وَلِيُّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ بِالمَعْرُوفِ، وَشُرُوطُ وَلِيِّ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ هُوَ أَنْ يَحْكُمَ النَّاسَ بِشَرْعِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

السُّؤَالُ: هَلِ المُظَاهَرَاتُ فِي مِصْرَ وَتُونُسَ وَلِيبْيَا وَسُورِيَا فِيهَا الخُرُوجُ؟

الجَوَابُ: هَذِهِ المُظَاهَرَاتُ أَفْتَى بِهَا هَيْئَةُ كِبَارِ العُلَمَاءِ، قَوْلُ العُلَمَاءِ لَا مُعَقِّبَ عَلَيْهِ، أَفْتَوْا بِتَحْرِيمِ المُظَاهَرَاتِ بِرِئَاسَةِ سَمَاحَةِ المُفْتِي وَأَعْضَاءِ هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَهِيَ مَعْلُومَةٌ لَدَى الجَمِيعِ، أَفْتَوْا بِتَحْرِيمِ المُظَاهَرَاتِ لِمَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ المَفَاسِدِ وَالعُقُوبَاتِ.

السُّؤَالُ: كَيْفَ نَرُدُّ عَلَى مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى الخُرُوجِ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ بِفِعْلِ الصَّحَابِيِّ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ؟

الجَوَابُ: فِعْلُ الصَّحَابَةِ قَدْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الِاجْتِهَادِ، وَلَكِنْ إِذَا اسْتَتَبَّ الأَمْرُ وَتَوَلَّى الحَاكِمُ فَلَا يَصِحُّ الخُرُوجُ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ العِلْمِ، وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً، وَإِنْ كَانُوا جَائِرِينَ فَيَنْبَغِي الصَّبْرُ، وَالمُنَاصَحَةُ، وَالتَّحَمُّلُ.

السُّؤَالُ: هَلْ حَدِيثُ «وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ» صَحِيحٌ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، فِي البُخَارِيِّ: «وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

السُّؤَالُ: مَا صِحَّةُ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الثَّوَرَاتِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ هِيَ تَمْهِيدٌ لِحُصُولِ الفِتَنِ الكُبْرَى وَظُهُورِ

المَهْدِيِّ؟

الجَوَابُ: هَذِهِ تُرَّهَاتٌ وَأَقَاوِيلُ لَا مُسْتَنَدَ لَهَا.

السُّؤَالُ: هَلْ يَرْفَعُ الحَاكِمُ الخِلَافَ مُطْلَقًا؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، وَعِنْدَ مَنْ تَخَاصَمَ لَدَيْهِمْ وَلَا يَلْزَمُ، حُكْمُ الحَاكِمِ كَمَا تَقَدَّمَ يَرْفَعُ الخِلَافَ إِذَا كَانَ هَذَا الخِلَافُ قَائِمًا عَلَى اجْتِهَادٍ شَرْعِيٍّ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ الخِلَافُ قَائِمٌ عَلَى اجْتِهَادٍ سَائِغٍ مَبْنِيٍّ عَلَى أَدِلَّةٍ شَرْعِيَّةٍ وَاخْتَارَ الحَاكِمُ قَوْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ الأَقْوَالِ فَحِينَئِذٍ تَتَعَيَّنُ طَاعَتُهُ، وَقَدْ مَثَّلْنَا لَكُمْ.

السُّؤَالُ: هَلِ الحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى كُفْرٌ بَوَاحٌ؟

الجَوَابُ: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَضَّحَ ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ، بِأَنَّهُ فِسْقٌ وَظُلْمٌ وَكُفْرٌ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ.

السُّؤَالُ: هَلْ تَذْكُرُ لَنَا المُؤَلَّفَاتِ الَّتِي بَحَثَتْ عَنْ مَسْأَلَةِ أَنَّ أَمْرَ الإِمَامِ يَرْفَعُ الخِلَافَ، وَمِثْلِ وَهَذَا الأَمْرُ؟

الجَوَابُ: هَذِهِ قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ، قَالُوا: حُكْمُ الحَاكِمِ يَرْفَعُ الخِلَافَ، هَذَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ العِلْمِ فِي مُدَوَّنَاتِهِمْ عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى الاِجْتِهَادِ، وَفِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

هَذَا وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الأَصْلُ الرَّابِعُ

بَيَانُ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَالفِقْهِ وَالفُقَهَاءِ، وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ هَذَا الأَصْلَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ قَبْلَ ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2]، وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا صَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي هَذَا الكَلَامِ الكَثِيرِ البَيِّنِ الوَاضِحِ لِلْعَامِّيِّ البَلِيدِ، ثُمَّ صَارَ هَذَا أَغْرَبَ الأَشْيَاءِ، وَصَارَ العِلْمُ وَالفِقْهُ هُوَ البِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ، وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ لَبَّسَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَصَارَ العِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الخَلْقِ وَمَدَحَهُ لَا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زِنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ، وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ وَصَنَّفَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالنَّهْيِ عَنْهُ هُوَ الفَقِيهَ العَالِمَ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ الَّذِي تَجْعَلُ الصَّعْبَ سَهْلًا، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا يَا رَبَّنَا هُدًى وَتُقًى، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَوْلِ وَفِتْنَةِ العَمَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الإِعْجَابِ بِالقَوْلِ أَوِ الإِعْجَابِ بِالعَمَلِ.

هَذَا هُوَ الأَصْلُ الرَّابِعُ مِنَ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي أَلَّفَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَهَذَا الأَصْلُ -أَيْ: الرَّابِعُ- يُعَدُّ أَيْضًا مِنَ الأُصُولِ المُهِمَّةِ الَّتِي بِهَا مَعْرِفَةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَمَا لَهُ مِنَ الحُقُوقِ، وَلَعَلَّ الشَّيْخَ

---

(1) سورة البقرة: ٤٠.

(2) سورة البقرة: ١٢٢.

رَحِمَهُ اللهُ جَعَلَ هَذَا أَصْلًا -أَيْ: طَلَبَ العِلْمِ- أَصْلًا مِنَ الأُصُولِ؛ لِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي كَانَ ظَهَرَ فِيهِ؛ ظَهَرَ فِيهِمُ البِدَعُ وَالخُرَافَاتُ وَعِبَادَةُ القُبُورِ وَالأَضْرِحَةِ وَالشِّرْكُ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي زَمَانِهِ فِي القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، وَالنَّاسُ أَمَامَ دَعْوَتِهِ انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ:

قِسْمٌ نَصَبَ لَهُ العَدَاوَةَ وَالكَرَاهِيَةَ وَالبَغْضَاءَ، وَأَلَّبَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَاتَّهَمُوهُ بِالْمُخَالَفَةِ وَالشُّذُوذِ، وَوَصَمُوهُ أَيْضًا بِالكُفْرِ بِأَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ هَذَا الدِّينِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ، وَهَذَا صَنِيعُ أَهْلِ البِدَعِ دَائِمًا وَأَهْلِ الأَهْوَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، فَنَصَبُوا لَهُ العَدَاوَةَ لَمَّا رَأَوْهُ دَعَا إِلَى العَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ، وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّيْرِ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ للهِ تَعَالَى، وَنَبْذِ الشِّرْكِ وَنَبْذِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَقِسْمٌ مِنَ العُلَمَاءِ أَيْضًا رَضُوا بِذَلِكَ وَوَافَقُوهُ، وَهُمُ الأَقَلُّونَ فِي ذَلِكَ العَصْرِ؛ لِأَنَّ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالكِتَابِ وَبِالسُّنَّةِ؛ فَحِينَئِذٍ لَمْ يُخَالِفُوا الشَّيْخَ، وَلَمْ يُظْهِرُوا لَهُ عَدَاوَةً فِي ذَلِكَ الوَقْتِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالَهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَلَعَلَّ الشَّيْخَ أَكَّدَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ كَمَا سَيَأْتِي فِي آخِرِهِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ مَنْ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ الصَّحِيحَ -يَرْمُونَهُ- بِالزَّنْدَقَةِ وَبِالجُنُونِ وَبِالرُّجُوعِ وَبِالتَّخَلُّفِ، هَذَا صَنِيعُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ عَصْرٍ.

وَقَالَ الشَّيْخُ هُنَا: «بَيَانُ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَالفِقْهِ وَالفُقَهَاءِ» العِلْمُ الشَّرْعِيُّ الصَّحِيحُ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُسْلِمُ بِحَاجَةٍ إِلَى العِلْمِ الشَّرْعِيِّ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ العَوَامِّ أَوْ مِنَ العُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّمَ العِلْمِ -كَمَا قَرَّرَهُ العُلَمَاءُ- عَلَى ضَرْبَيْنِ: عِلْمٌ كِفَائِيٌّ وَعِلْمٌ عَيْنِيٌّ، يَعْنِي: عِلْمٌ وَاجِبٌ عَلَى العَبْدِ تَعَلُّمُهُ، وَعِلْمٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَى العَبْدِ تَعَلُّمُهُ.

فَالعِلْمُ الَّذِي هُوَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ هُوَ أَنْ يُصَحِّحَ تَوْحِيدَهُ للهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَيَكُونَ صَاحِبَ عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ سَلِيمَةٍ لَيْسَ فِيهَا بِدَعٌ وَلَا شِرْكٌ وَلَا خُرَافَاتٌ وَلَا ضَلَالَاتٌ، يَكُونُ عَلَى تَوْحِيدٍ خَالِصٍ وَعِبَادَةٍ صَحِيحَةٍ، كُلُّ مُسْلِمٍ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، ثُمَّ أَيْضًا يَتَعَلَّمُ كُلُّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ مَا يُقِيمُ بِهِ دِينَهُ، وَيَتَعَرَّفُ بِهِ عَلَى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ اللهَ خَلَقَ الجِنَّ وَالإِنْسَ لِلْعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فَيَتَعَلَّمُ التَّوْحِيدَ وَكَيْفَ يُؤَلِّهُ رَبَّهُ وَيَعْبُدُهُ، يَتَعَلَّمُ الصَّلَاةَ وَأَحْكَامَ الصَّلَاةِ، يَتَعَلَّمُ مَعْنَى -أَوَّلًا-

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

الشَّهَادَتَيْنِ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، عِلْمًا وَصِدْقًا وَحَقِيقَةً وَوَاقِعًا، وَيَعْلَمُ الصَّلَاةَ وَأَحْكَامَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَيَتَعَلَّمُ السُّنَنَ وَالرَّوَاتِبَ، وَيَتَعَلَّمُ الزَّكَاةَ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التِّجَارَةِ وَأَهْلِ المَالِ، حَتَّى يُؤَدِّيَ فِي ذَلِكَ حَقَّ اللهِ، وَيَتَعَلَّمُ الصِّيَامَ حَتَّى يَصُومَ مَعَ المُسْلِمِينَ وَيُؤَدِّيَ هَذِهِ العِبَادَةَ، وَكَذَلِكَ الحَجُّ، يَتَعَلَّمُ أَحْكَامَ الحَجِّ، فَلَا يَحُجُّ وَهُوَ جَاهِلٌ، لَا يَتَعَبَّدُ اللهَ تَعَالَى إِلَّا بِالعِلْمِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ مُقَدَّمٌ عَلَى العَمَلِ، وَلِهَذَا قَدَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1]، ﴿فَاعْلَمْ﴾ هَذَا هُوَ العِلْمُ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ هَذَا هُوَ العَمَلُ، فَقَدَّمَ العِلْمَ عَلَى العَمَلِ، فَالقَوْلُ وَالفِعْلُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِعِلْمٍ، وَالعِلْمُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِمَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَلِهَذَا تَرْجَمَ البُخَارِيُّ «بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ»، لَا يَذْكُرُ لَا يَسْتَغْفِرُ وَلَا يَذْكُرُ وَلَا يُعَظِّمُ رَبَّهُ إِلَّا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ بِالعِلْمِ، وَلَا يَتَعَبَّدُ رَبَّهُ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ إِلَّا بِالعِلْمِ الصَّحِيحِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَى العِلْمِ -كَمَا يَقُولُ الإِمَامُ أَحْمَدُ- أَشَدُّ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الإِنْسَانُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَأَمَّا العِلْمُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَالعِلْمُ هُوَ العِلْمُ الصَّحِيحُ وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَأَعْظَمُ العِلْمِ عِلْمُ التَّوْحِيدِ، عِلْمُ التَّوْحِيدِ هُوَ أَعْظَمُ العُلُومِ وَهُوَ أَعْظَمُ المَعْرُوفِ، كَمَا أَنَّ أَعْظَمَ الجَهْلِ هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ، وَأَعْظَمَ المُنْكَرِ هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، هَذَا هُوَ أَفْضَلُ العِلْمِ، بَيَانُ العِلْمِ وَالفِقْهِ وَالفُقَهَاءِ، يَتَعَلَّمُ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ الأَدِلَّةَ عَلَى فَضْلِ العِلْمِ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ هَذَا مَجَالَ حَصْرِهَا، وَلَكِنَّنَا سَنَذْكُرُ مَا يُبَيِّنُ هَذَا المَقَامَ، وَيَحْفِزُ الهِمَمَ، وَيَدْفَعُ النُّفُوسَ إِلَى البَحْثِ عَنِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا فَإِنَّ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ الَّذِي يُوَافِقُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ هُوَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَحَيَاةُ النُّفُوسِ، وَبِهِ تُعْمَرُ الدِّيَارُ وَالبِلَادُ، وَتُعْمَرُ المَسَاجِدُ بِالطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ.

وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى العِلْمَ يَكُونُ عَالِمًا، هُنَاكَ مُثَقَّفُونَ، وَهُنَاكَ دُعَاةٌ، وَهُنَاكَ وُعَّاظٌ، وَهُنَاكَ خُطَبَاءُ، وَهُنَاكَ مُفَكِّرُونَ، فَهَلْ هَؤُلَاءِ عُلَمَاءُ؟ لَيْسُوا بِعُلَمَاءَ، إِنَّمَا العَالِمُ الَّذِي هُوَ عَالِمٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هُوَ يَكُونُ دَاعِيَةً وَوَاعِظًا وَمُذَكِّرًا وَمُطَّلِعًا، وَيَخْرُجُ بِالعِلْمِ بِهَذَا القَيْدِ -العِلْمِ الشَّرْعِيِّ الحَقِيقِيِّ-؛ يَخْرُجُ بِهِ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى تَعَلُّمَهُ مِنَ العُلُومِ، هُنَاكَ عُلُومٌ مُحَرَّمَةٌ، وَهِيَ: عِلْمُ الكَلَامِ، هُوَ عِلْمٌ مَذْمُومٌ وَمُحَرَّمٌ، عِلْمُ الكَلَامِ وَعِلْمُ الفَلْسَفَاتِ هَذِهِ الَّتِي تَخُوضُ فِي

---

(١) سورة محمد: ١٩.

مَسَائِلِ العَقَائِدِ بِلَا عِلْمٍ، وَعِلْمُ تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ، هَذِهِ مُحَرَّمَةٌ هَذِهِ العُلُومُ وَإِنْ كَانَتْ تُسَمَّى عِلْمًا؛ لِأَنَّ العِلْمَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَذْمُومًا أَوْ مَمْدُوحًا أَوْ مُحَرَّمًا أَوْ حَلَالًا.

وَلِهَذَا حَكَى اللهُ تَعَالَى وَأَخْبَرَ عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِالعِلْمِ بِعِلْمِهِمْ، قَالَ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[1] وَعِلْمُهُمْ هَذَا هُوَ عِلْمُ الجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَالبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالإِسْلَامُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا العِلْمُ الشَّرْعِيُّ الصَّحِيحُ، لَيْسَ فِيهِ فِكْرٌ؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ لَمْ يُبْنَ عَلَى الأَفْكَارِ وَالعُقُولِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ عَلَى الوَحْيِ وَالتَّشْرِيعِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، كَقَوْلِهِمْ مَثَلًا: المُفَكِّرُ الإِسْلَامِيُّ وَغَيْرُهُ، الإِسْلَامُ لَيْسَ بِفِكْرٍ، الإِسْلَامُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَيْسَ الإِسْلَامُ بِعَقْلٍ، إِنَّمَا هُوَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَجِدَّ وَيُشَمِّرَ فِي طَلَبِ العِلْمِ؛ مِنْ حِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَحِفْظِ السُّنَّةِ أَوْ بَعْضِهَا، وَالتَّدَرُّجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَيَبْدَأُ بِصِغَارِ المَسَائِلِ وَقِرَاءَةِ المُتُونِ المُبَسَّطَةِ، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ حَتَّى يَتَرَقَّى فِي العِلْمِ، هَذِهِ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ وَضَعَهَا اللهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ بِحَاجَةٍ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى غَيْرِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ كَالعُلُومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالطِّبِّيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ وَالتَّجْرِيبِيَّةِ، كَعِلْمِ الهَنْدَسَةِ وَعِلْمِ الطِّبِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العُلُومِ، وَالعُلُومِ الَّتِي جَدَّتْ فِي هَذَا العَصْرِ، لَكِنَّ الإِنْسَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ طَلَبُهُ لِهَذِهِ العُلُومِ حَسَنًا وَبِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ لِيُعِزَّ هَذَا الدِّينَ وَيَخْدِمَ المُسْلِمِينَ وَيَسُدَّ حَاجَتَهُمْ فِي هَذَا، فَإِذَا كَانَتْ نِيَّتُهُ صَالِحَةً وَقَصْدُهُ حَسَنًا فِي ذَلِكَ أُثِيبَ عَلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ الأَصْلَ فِي العِلْمِ إِذَا أُطْلِقَ هُوَ العِلْمُ الشَّرْعِيُّ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ الأَدِلَّةَ قَدْ قَامَتْ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُبَيِّنُ فَضْلَ العِلْمِ وَثَوَابَهُ وَحَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ فِي هَذَا المَقَامِ:

أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَرَنَ شَهَادَةَ العُلَمَاءِ بِشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ وَشَهَادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وَفَرَّقَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ وَمَنْ لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ الَّذِي يَعْلَمُ وَيَتَعَلَّمُ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ يَسْتَنِيرُ لَهُ الطَّرِيقُ، وَيَهْتَدِي

(١) سورة غافر: ٨٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يَتَعَلَّمُ فَإِنَّهُ يَعِيشُ فِي ظُلُمَاتٍ وَجَهْلٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ﴾[1].

وَكَثِيرًا مَا يُفَرِّقُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ وَمَنْ لَا يَعْلَمُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2]، فَانْظُرْ كَيْفَ خَتَمَ الأُولَى الَّتِي فِي الرَّعْدِ بِأُولِي الأَلْبَابِ، وَخَتَمَهَا هُنَا بِأُولِي الأَلْبَابِ، أَيْ: أَصْحَابُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالنَّيِّرَةِ، فَآيَةُ الزُّمَرِ هُنَا ذَكَرَ اللهُ فِيهَا ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: هُوَ الحَثُّ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَبَيَانِ فَضْلِهِ وَثَوَابِهِ عِنْدَ اللهِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ يَسِيرُ بِهِمَا المُؤْمِنُ فِي حَيَاتِهِ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ.

الأَمْرُ الثَّالِثُ: هُوَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ وَمَنْ لَا يَعْلَمُ وَبَيَانُ دَرَجَةِ مَنْ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ الصَّحِيحَ.

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ هُمْ فِي مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ وَرِفْعَةٍ سَامِيَةٍ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3]، ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أَهْلُ الإِيمَانِ هُمْ أَهْلُ العِلْمِ، وَأُولُو العِلْمِ هُمُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ أَيْضًا، يَرْفَعُهُمْ دَرَجَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا: بِالذِّكْرِ الحَسَنِ، وَبِالمَكَانَةِ وَبِالتَّقْدِيرِ وَالتَّوْجِيهِ وَالاِحْتِرَامِ وَالمَحَبَّةِ، وَفِي الآخِرَةِ: بِالجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ العُلَمَاءَ هُمُ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ شَرْعَ اللهِ، وَيَدُلُّونَ النَّاسَ عَلَى الحَقِّ وَالهُدَى وَعَلَى عِبَادَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَيْضًا فَضْلَ العِلْمِ: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ افْتَخَرَ بِهِ لَمَّا جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ -بَلْقِيسُ- مِنْ سَبَأٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾[4]، لَمَّا جَاءَتْ مِنْ قَبِيلَةِ سَبَأٍ المَرْأَةُ الَّتِي هِيَ بَلْقِيسُ، وَجَاءَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَرَأَتْ عَرْشَ سُلَيْمَانَ قِيلَ لَهَا: أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ هَلْ هُوَ مِثْلُ هَذَا العَرْشِ الَّذِي عِنْدَنَا؟ قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ. قَالَ المُفَسِّرُونَ: «تَأَدَّبَتْ فِي اللَّفْظِ، فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ. وَلَمْ تَقُلْ: هُوَ هُوَ. وَإِنَّمَا شَبَّهَتْ؛ قَالَتْ: كَأَنَّهُ

---

(1) سورة الرعد: ١٩.

(2) سورة الزمر: ٩.

(3) سورة المجادلة: ١١.

(4) سورة النمل: ٤٢.

هُوَ».

وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا الكَلَامَ قَالَ سُلَيْمَانُ مُفْتَخِرًا عَلَيْهَا بِمَا آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ العِلْمِ وَالعَقْلِ وَالحَزْمِ؛ قَالَ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وَبَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ بَلْقِيسَ»؛ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ يَعُودُ إِلَى مَا رَأَتْهُ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الحَالَةِ الَّتِي عَلَيْهَا العَرْشُ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الحَالَةِ الَّتِي عَلَيْهَا هَذَا العَرْشُ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ سُلَيْمَانَ، أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ أَعْطَى سُلَيْمَانَ عِلْمًا غَزِيرًا وَوَاسِعًا، وَقَالَ: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[2]، فَهُوَ افْتَخَرَ وَاعْتَزَّ بِالعِلْمِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهُ وَأَنَّهُ فَاقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَلْقِيسُ الَّتِي مِنْ سَبَأٍ.

أَيْضًا مِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي اسْتَمَعْتَ إِلَيْهَا فِي فَضْلِ العِلْمِ وَهِيَ جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْ بَيَانِ فَضْلِ العِلْمِ: أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَخْبَرَ عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَطْلُبُ أَنْ يَتَزَوَّدَ مِنَ العِلْمِ وَهُوَ إِمَامُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا أَيْضًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]؛ فَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَتَزَوَّدَ بِشَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، بَلْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَزَوَّدَ بِالعِلْمِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ هُوَ النُّورُ، وَهُوَ الحَيَاةُ، وَهُوَ الطَّرِيقُ المُوَصِّلُ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَيْضًا مِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ فَضْلَ العِلْمِ وَالفِقْهِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْذَرَ أُولَئِكَ القَوْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكٍ، وَذَهَبُوا يَتَعَلَّمُونَ العِلْمَ؛ لِأَنَّ غَزْوَةَ تَبُوكٍ هِيَ مِنْ أَوَاخِرِ الغَزَوَاتِ، أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَنْفِرُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذِهِ الغَزْوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[4]، ﴿انْفِرُوا﴾ مَا فِيهِ اسْتِثْنَاءٌ، جَاءَتْ آيَةٌ فِي آخِرِ التَّوْبَةِ قَالُوا: إِنَّهَا قَيَّدَتْ هَذِهِ الآيَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[5]؛ فَعَذَرَ اللهُ تَعَالَى بَعْضَ القَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَنْفِرُوا

---

(١) سورة ص: ٣٥.

(٢) سورة النمل: ١٥.

(٣) سورة طه: ١١٤.

(٤) سورة التوبة: ٤١.

(٥) سورة التوبة: ١٢٢.

فِي الغَزْوَةِ وَإِنَّمَا جَعَلُوا هَمَّهُمْ وَوَقْتَهُمْ وَجُهْدَهُمْ لِتَعَلُّمِ العِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللهِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ -آيَةُ التَّوْبَةِ- تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ هُوَ مِنَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، طَلَبُ العِلْمِ هُوَ مِنَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ جَاءَتْ فِي سُورَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَتَكْشِفُ نَوَايَا المُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا وَثَبَّطُوا النَّاسَ عَنِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ كَذَلِكَ بَيْنَ آيَاتِ القِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبْلَهَا حَدِيثٌ عَنِ الجِهَادِ، وَمَا بَعْدَهَا حَدِيثٌ عَنِ الجِهَادِ، فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، بَلْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ جِهَادٌ إِلَّا بِعِلْمٍ حَتَّى يَقُومَ بِهَذِهِ الشَّعِيرَةِ -شَعِيرَةِ الجِهَادِ عَلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ، وَلَيْسَ عَلَى جَهْلٍ-، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي هَذِهِ الأَزْمِنَةِ المُعَاصِرَةِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الجِهَادَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَحْكَامَهُ وَلَا صُوَرَهُ وَلَا ضَوَابِطَهُ، جِهَادٌ بِجَهْلٍ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ المُنْكَرِ، فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَحْكَامَ اللهِ، وَآيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي ذَلِكَ.

وَأَيْضًا مِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ فَضْلَ العِلْمِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ فَاضَلَ فِيهِ بَيْنَ البَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ وَبَيْنَ الطُّيُورِ أَيْضًا، لِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾[1]، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ الجَوَارِحُ هِيَ الكَوَاسِرُ، وَهِيَ الصَّيْدُ الَّتِي تَصِيدُ، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ كِلَابٍ، أَيْ: عِنْدَهُمْ كِلَابُ صَيْدٍ، فَإِذَا أَطْلَقَ الإِنْسَانُ كَلْبَهُ المُعَلَّمَ وَذَكَرَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَصَادَ جَازَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَهُ لِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾، فَالكَلْبُ المُعَلَّمُ أَفْضَلُ مِنَ الكَلْبِ غَيْرِ المُعَلَّمِ، وَالكَلْبُ المُعَلَّمُ يَجُوزُ أَكْلُهُ، وَالكَلْبُ الصَّائِدُ غَيْرُ المُعَلَّمِ لَا يَجُوزُ أَكْلُهُ، هَذَا هُوَ الفَرْقُ.

وَأَيْضًا الهُدْهُدُ لَمَّا جَاءَ إِلَى سُلَيْمَانَ، وَتَعَجَّلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[2]، تَوَعَّدَ هَذَا الهُدْهُدَ لِأَنَّهُ تَأَخَّرَ عَلَيْهِ، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، لَمَّا جَاءَ أَنْطَقَهُ اللهُ وَقَالَ لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يَعْنِي: جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ -يَا سُلَيْمَانُ- مَا لَمْ يَأْتِكَ مِنَ العِلْمِ، افْتَخَرَ

(١) سورة المائدة: ٤.

(٢) سورة النمل: ٢٠، ٢١.

بِالعِلْمِ وَذَكَرَ هَذَا العِلْمَ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ المَدْحِ فَقَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وَبَدَأَ يُبَيِّنُ أَعْظَمَ مُنْكَرٍ وَجَدَهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللهِ، إِلَى آخِرِ القِصَّةِ فِي مَكَانِهَا.

فَبَيَّنَ لَكَ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ مَكَانَةَ العِلْمِ وَمَكَانَةَ العُلَمَاءِ وَفَضْلَهُمْ وَقَدْرَهُمْ، وَلِهَذَا فَإِنَّ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَحْرِصَ دَائِمًا عَلَى التَّزَوُّدِ مِنَ العِلْمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، يَمْنَحُكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى الرِّفْعَةَ وَالمَكَانَةَ، ثُمَّ يَمْنَحُكَ عِنْدَ الخَلْقِ الرِّفْعَةَ وَالمَكَانَةَ.

وَلِهَذَا يَقُولُ القَائِلُ:

مُنَايَا مِنَ الدُّنْيَا عُلُومٌ أَبُثُّهَا ... وَأَنْشُرُهَا فِي كُلِّ وَادٍ وَمَحْفَلِ

دُعَاءٌ إِلَى القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... تَنَاسَى رِجَالٌ ذِكْرَهَا فِي المَحَافِلِ

تَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي هَذَا الزَّمَنِ قَلَّ مَنْ يَطْلُبُ العِلْمَ مِنَ النَّاسِ وَخَاصَّةً مِنَ الشَّبَابِ، لِمَا يُوَاجِهُونَهُ مِنَ الصَّوَارِفِ وَالمُؤَثِّرَاتِ الكَثِيرَةِ الَّتِي صَرَفَتْ عُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي وَسَائِلِ التِّقْنِيَةِ الحَدِيثَةِ عَنْ طَلَبِ العِلْمِ، وَإِنْ تَلَقَّوا العِلْمَ فَإِنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَهُ عَنْ أَجْهِزَةٍ وَآلَاتٍ وَلَا يَتَلَقَّوْنَهُ عَنِ العُلَمَاءِ، وَهَذَا مِنَ الجَهْلِ، الإِنْسَانُ يَسْتَفِيدُ مِنَ العُلَمَاءِ وَيَسْتَفِيدُ مِنْ وَسَائِلِ عَصْرِهِ بِمَا يُعِينُهُ وَيُوَفِّقُهُ لِهَذَا العِلْمِ.

أَقُولُ: إِنَّ الإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ دَائِمَةٍ إِلَى طَلَبِ العِلْمِ، وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدَّوْرَةِ المُبَارَكَةِ تَتَلَقَّوْنَ أَنْوَاعًا مِنَ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي فِيهَا إِنْ شَاءَ اللهُ الخَيْرُ وَالنَّفْعُ، وَفِيهَا الأَجْرُ وَالثَّوَابُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَصْلُ العِلْمِ هُوَ -كَمَا تَقَدَّمَ- عِلْمُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالتَّفَقُّهِ فِي كِتَابِ اللهِ وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ العُلَمَاءَ هُمُ الأُمَنَاءَ عَلَى الشَّرْعِ، وَهُمْ أَهْلُ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى، وَهُمُ المُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ رِسَالَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[2]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3] إِلَى آخِرِ هَذِهِ الفَضَائِلِ وَالمَكْرُمَاتِ لِطُلَّابِ العِلْمِ، فَاحْمَدُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي وَفَّقَكُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا.

---

(١) سورة النمل: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٩.

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

وَإِنَّنِي أُهِيبُ بِمَنْ يَسْمَعُ هَذَا الكَلَامَ مِنْ إِخْوَانِي المُسْلِمِينَ أَنْ يَحْرِصُوا عَلَى طَلَبِ العِلْمِ وَيَتَلَقَّوْهُ مِنْ أَفْوَاهِ العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمُ النَّاسُ بِالوَرَعِ وَالتَّقْوَى وَالرُّسُوخِ فِي عِلْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَذَا هُوَ طَرِيقُ الهِدَايَةِ وَالعِصْمَةِ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِأُصُولِهِ الصَّحِيحَةِ هُوَ أَكْبَرُ نِعْمَةٍ يَمُنُّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى العَبْدِ، وَأَكْبَرُ عَاصِمٍ يَعْصِمُهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الوُقُوعِ فِي الفِتَنِ؛ فَلَا يَقَعُ فِي الفِتَنِ إِذَا حَلَّتْ إِلَّا الجُهَّالُ وَرِعَاعُ النَّاسِ، أَمَّا العُلَمَاءُ وَطُلَّابُ العِلْمِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ شَرَّهَا وَخَطَرَهَا، وَيُحَذِّرُونَ النَّاسَ مِنْهَا، وَلِهَذَا يَنْبَغِي عَلَيْكُمْ -يَا أَيُّهَا الطُّلَّابُ- أَنْ تَعْرِفُوا مَنْ هُمُ العُلَمَاءُ وَمَنْ هُمُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى العِلْمَ فَهُوَ عَالِمٌ.

وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ بَعْدَهَا: «وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ»؛ كَثِيرٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِأَهْلِ العِلْمِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، إِمَّا أَنَّهُ يَقْرَأُ أَوْ يَحْفَظُ شَيْئًا أَوْ يَطَّلِعُ عَلَى بَعْضِ الأَشْيَاءِ ثُمَّ يَبْدَأُ يَتَصَدَّرُ أَوْ يَتَقَوَّلُ شَيْئًا أَوْ يُحِلُّ أَوْ يُحَرِّمُ أَوْ يُفْتِي أَوْ يَظْهَرُ فِي القَنَوَاتِ وَيَتَكَلَّمُ فِي أُمَّهَاتِ العِلْمِ وَأُصُولِ المَسَائِلِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، ثُمَّ يُخَبِّطُ وَيَخْلِطُ وَيَدْخُلُ دَائِرَةَ الضَّلَالِ وَيُضِلُّ غَيْرَهُ فِي ذَلِكَ.

وَالَّذِينَ تَشَبَّهُوا بِالعُلَمَاءِ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ فِي هَذَا الزَّمَنِ كَثِيرٌ، مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْرِضُونَ عَلَى النَّاسِ القَصَصَ وَالحِكَايَاتِ وَالمَوَاعِظَ وَالعِبَرَ غَيْرَ الصَّحِيحَةِ وَالَّتِي لَا تُؤَثِّرُ، وَيَنْصَرِفُونَ بِذَلِكَ عَنِ التَّذْكِيرِ بِمَا قَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ، يُذَكِّرُونَ النَّاسَ بِالقَصَصِ وَالحِكَايَاتِ وَالأَوْهَامِ وَمَا جَرَى لِلنَّاسِ فِي التَّارِيخِ فَقَطْ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1]، مَا قَالَ: فَذَكِّرْ بِالقَصَصِ. اللهُ تَعَالَى قَصَّ عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَصَصَ الأَنْبِيَاءِ وَهِيَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، هَذَا الَّذِي يُثَبِّتُ القَلْبَ هُوَ القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ السَّابِقَةِ، لِمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ، أَمَّا قَصَصُ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَذَهَبَ وَجَاءَ وَحَصَلَ لَهُ وَغَابَ عَنْهُ؛ فَهَذِهِ لَيْسَتْ إِلَّا مِنَ الخُرَافَاتِ وَالتُّرَّهَاتِ وَمَضْيَعَةِ الوَقْتِ، وَهَؤُلَاءِ كَثُرُوا فِي هَذَا الزَّمَنِ، وَأَكْثَرُهُمْ وُجِدَ فِي وَسَائِلِ الإِعْلَامِ كَثِيرٌ، وَكَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ وَسَائِلَ الإِعْلَامِ بِقَنَوَاتِهَا الفَضَائِيَّةِ قَدْ غَزَتْ كُلَّ بَيْتٍ، لَا؛ غَزَتْ كُلَّ جَيْبٍ الآنَ، فِي جَيْبِ كُلِّ وَاحِدٍ جِهَازٌ، وَمَعَهُ هَذَا «الآيْ فُونْ» أَوْ غَيْرُهُ، يَدْخُلُ بِهِ وَيَشْتَرِكُ فِي مَوَاقِعِ النِّتِّ وَغَيْرِهَا أَوِ القَنَوَاتِ وَيُشَاهِدُ وَهُوَ فِي جَيْبِهِ، حَتَّى -

---

(١) سورة ق: ٤٥.

(٢) سورة هود: ١٢٠.

أَكْرَمَكُمُ اللهُ- وَهُوَ يَقْضِي حَاجَتَهُ يَجْلِسُ يُشَاهِدُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ.

وَصَلَ الإِنْسَانُ بِالعَقْلِ إِلَى هَذِهِ الحَالَةِ، وَتَرَكُوا مَجَالِسَ العُلَمَاءِ وَتَرَكُوا الجُلُوسَ بِالرُّكَبِ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُمْ، فَضَعُفَتْ بِذَلِكَ أَبْصَارُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ مَا يُشَاهِدُونَ، وَتَهَلْهَلَتْ عُقُولُهُمْ؛ فَأَصْبَحُوا مَدَاخِلَ لِلشَّيْطَانِ، تَغَلَّبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَكَسِبَهُمْ فِي هَذِهِ الحَالَةِ، أَمَّا طَالِبُ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، لَا، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُهُ الشَّيْطَانُ، يَنْزَعِجُ الشَّيْطَانُ مِنْ حِلَقِ العِلْمِ، مِنْ حِلَقِ الذِّكْرِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] فَالَّذِينَ صَرَفُوا جُلَّ أَوْقَاتِهِمْ عَلَى تِلْكَ المَوَاقِعِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهَا يُخْشَى أَنْ يَكُونُوا مِنَ الغَاوِينَ الَّذِينَ اسْتَوْلَى الشَّيْطَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ.

قَالَ: «وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ»، الَّذِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِالعِلْمِ أَيْضًا هُمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَأَهْلِ الأَهْوَاءِ، كَالصُّوفِيَّةُ وَالرَّافِضَةُ وَالشِّيعَةُ أَصْحَابُ العَمَائِمِ الَّذِي إِذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كَأَنَّهُ شَيْخٌ، وَكَأَنَّهُ نَبِيٌّ، وَكَأَنَّهُ رَسُولٌ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَصْحَابِ الطَّوَائِفِ، هَؤُلَاءِ تَعَمْعَمُوا وَأَصْبَحُوا يُضَلِّلُونَ النَّاسَ، وَتَشَبَّهُوا بِالعِلْمِ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

كَذَلِكَ مِنَ الَّذِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِالعِلْمِ أَصْحَابُ الشُّهْرَةِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الذِّكْرَ بَيْنَ النَّاسِ وَالِانْتِشَارَ بِأَسْمَاعِهِمْ لِأَسْمَائِهِمْ حَتَّى يُصْبِحُوا حَدِيثَ النَّاسِ فِي المَجَالِسِ، هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِعُلَمَاءَ، هَؤُلَاءِ طُلَّابُ شُهْرَةٍ يُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾.

وَلْتَقْرَؤُوا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[3]: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى

---

(1) سورة الحجر: ٤٢.

(2) سورة القصص: ٨٣.

(3) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1] «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ..»، ذَكَرَ مِنْهُمْ: «قَارِئَ القُرْآنِ، وَالْمُجَاهِدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَالذِي تَلَقَّى العِلْمَ» لَكِنَّ لَمَّا يُسْأَلُونَ هَؤُلَاءِ وَيُقَالُ: تَعَلَّمْتُمْ هَذِهِ العُلُومَ لِيُقَالَ، فَقَدْ قِيْلَ، قَدْ قِيلَ بَيْنَ النَّاسِ.

فَالْمُسْلِمُ يَخْشَى وَيَخَافُ مِنَ العُقُوبَاتِ إِذَا تَشَبَّهَ بِالعُلَمَاءِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، لَا بُدَّ أَنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَلَا يَحْرِصَ عَلَى طَلَبِ الشُّهْرَةِ وَلَا عَلَى التَّصَدُّرِ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ وَسَائِلِ العِلْمِ، وَنَحْنُ مِثْلُكُمْ طُلَّابُ عِلْمٍ، نَحْنُ نَسْتَفِيدُ أَكْثَرَ مِنْكُمْ عِنْدَمَا نَقْرَأُ وَنَطَّلِعُ وَنَبْحَثُ كَلَامَ العُلَمَاءِ وَنُحَضِّرُ لَكُمْ، نَحْنُ نَسْتَفِيدُ، نَنْقِلُ لَكُمْ مَا يَقُولُ العُلَمَاءُ.

وَلِهَذَا ذَكَرَ لَنَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ جِبْرِيْنِ رَحِمَهُ اللهُ كَلِمَةً عَظِيمَةً لِلشَّافِعِيِّ، تُرْوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ، ذَكَرَهَا لَنَا، وَسَمِعْنَاهَا مِنْهُ، قَالَ: «العِلْمُ بَطِيءُ اللِّزَامِ، بَعِيدُ المَرَامِ، لَا يُدْرَكُ بِالسِّهَامِ، وَلَا يُرَى فِي المَنَامِ، وَلَا يُورَثُ عَنِ الآبَاءِ وَالأَعْمَامِ، إِنَّمَا هُوَ شَجَرَةٌ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِالغَرْسِ، وَلَا تُسْقَى إِلَّا بِالدَّرْسِ، انْظُرْ إِلَى مَنْ أَشْغَلَ لَيْلَهُ فِي الجِمَاعِ بِالنِّسَاءِ، وَأَشْغَلَ نَهَارَهُ بِالجَمْعِ -جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا- أَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ فَقِيهًا؟! كَلَّا وَاللهِ، حَتَّى يَسْتَحْصِلَ الدَّفَاتِرَ وَيَسْتَخْلِصَ المَحَابِرَ، وَيَقْطَعَ القِفَارَ، وَلَا يَفْصِلَ فِي طَلَبِهِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، كُلُّ حَيَاتِهِ طَلَبٌ لِلْعِلْمِ، حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ الكَمَالُ وَالرِّفْعَةُ، كَمَا يَقُولُ النَّاظِمُ:

كَمَالُ الفَتَى بِالعِلْمِ لَا بِالمَنَاصِبِ	وَرُتْبَةُ أَهْلِ العِلْمِ أَسْنَى المَرَاتِبِ
هُمُ وَرِثُوا عِلْمَ النَّبِيِّينَ فَاهْتَدَى	بِهِمْ كُلُّ سَارٍ فِي الظَّلَامِ وَسَارِبِ
وَلَا فَخْرَ إِلَّا إِرْثُ شِرْعَةِ أَحْمَدَ	وَلَا فَضْلَ إِلَّا بِاكْتِسَابِ المَنَاقِبِ
وَبَحْثٍ وَتَدْقِيقٍ وَإِيْضَاحِ مُشْكِلٍ	وَتَحْرِيرِ بُرْهَانٍ وَقَطْعِ مُغَالِبِ

حَيَاتُهُ كُلُّهَا بَحْثٌ وَقِرَاءَةٌ وَاطِّلَاعٌ، وَلِهَذَا تَجِدُونَ أَنَّ العَالِمَ لَيْسَ عِنْدَهُ وَقْتُ فَرَاغٍ أَصْلًا، سَوَاءٌ كَانَ فِي عَمَلٍ أَوْ تَقَاعَدَ، أَمَّا بَعْضُ المُوَظَّفِينَ إِنْ تَقَاعَدَ؛ أَيْنَ أَذْهَبُ؟ وَأَيْنَ آتِي؟ يُصْبِحُ فِي مَشَاكِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ زُمَلَائِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ، لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَقْضِيهِ فِيهِ، لَكِنَّ طَالِبَ العِلْمِ وَقَارِئَ القُرْآنِ لَا يَجِدُ وَقْتًا.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ القَاسِمُ صَاحِبُ «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» يَقُولُ: -ذَهَبَ فِي دِمَشْقَ وَهُوَ مِنْ أَهَالِي سُورِيَا، تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٣٣٢ مِنَ الهِجْرَةِ، خَرَجَ إِلَى السُّوقِ وَجَدَ النَّاسَ فِي المَقَاهِي يَسْمُرُونَ وَيَأْكُلُونَ- قَالَ: «يَا لَيْتَ أَنَّ الوَقْتَ يُبَاعُ لَاشْتَرَيْتُهُ مِنْ هَؤُلَاءِ»؛ لِأَنَّهُ مَا عِنْدَهُ وَقْتٌ أَصْلًا، وَقْتُهُ كُلُّهُ مَشْغُولٌ بِالعِلْمِ وَالعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، لَيْسَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

لِلْمُسْلِمِ وَقْتُ فَرَاغٍ أَوْ ضَيَاعٍ، الوَقْتُ إِمَّا لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، إِمَّا أَنْ تَشْغَلَهُ بِطَاعَةٍ أَوْ يَشْغَلَكَ هُوَ بِمَعْصِيَةٍ، هُوَ يَشْغَلُكَ بِمَعْصِيَةٍ.

وَلِهَذَا قَالَ: «وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ هَذَا الأَصْلَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ» ذَكَرْنَا لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ مِنْ فَضْلِ العِلْمِ وَبَيَانِهِ وَمَكَانَتِهِ، وَجَاءَ الشَّيْخُ هُنَا رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً وَاسْتَشْهَدَ بِمَا جَرَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ: هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ تَحْكِي وَاقِعًا حَصَلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إِلَى الآيَةِ الأُخْرَى بَعْدَ خَمْسَةِ أَثْمَانٍ، وَهِيَ الآيَةُ المِائَةُ واثْنَانِ وَعِشْرُونَ، وَعَدَدُ الآيَاتِ خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، قَرِيبًا مِنْ هَذَا خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، هَذِهِ الآيَاتُ مَا ذَكَرَهَا الشَّيْخُ هُنَا، وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الآيَاتِ وَيَقْرَؤُهَا وَيَقْرَأُ مَا قَالَهُ العُلَمَاءُ فِيهَا مِنَ التَّفْسِيرِ وَمَا جَرَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَتَّى يَحْذَرَ مِنَ الوُقُوعِ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ.

وَلَكِنِّي هُنَا أُلَخِّصُ لَكُمْ مَا تَمَّ فِي هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ المُخَالَفَاتِ لِدِينِ اللهِ وَمَا جَرَى مَعَهُمْ لأَنْبِيَائِهِمْ، فِي هَذِهِ الآيَاتِ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] فِيهَا تَذْكِيرٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَجْرَى عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ العَظِيمَةِ الَّتِي كَانَتْ لأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ وَهِيَ لَهُمُ الآنَ، فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ كَانَتْ لَهُمْ، بَدَأَ بِهَذِهِ، بِتَذْكِيرِهِمْ بِالنِّعَمِ بِهَذِهِ الآيَةِ، وَخَتَمَهَا أَيْضًا بِتَذْكِيرِهِمْ بِالنِّعَمِ فِي آخِرِهَا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2]، فِي آخِرِهَا، فِي آخِرِ الوَصِيَّةِ ذَكَّرَ كَمَا ذَكَّرَ فِي أَوَّلِهَا، ذَكَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَيِ: اذْكُرُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُكُمْ وَمَا جَرَى لأَسْلَافِكُمْ مِنَ النُّكُوصِ وَالنُّكُولِ وَالبُعْدِ عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَفَلَا تَتَّعِظُونَ؟! أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِمَا جَرَى لَهُمْ؟! أَمْ أَنْتُمْ تَسِيرُونَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ وَمَنْهَجِهِمْ؟!

ذَكَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْدَحُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي مَكَانٍ عَالٍ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، ذَكَّرَهُمُ اللهُ بِهَذَا.

ثُمَّ ذَكَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِتَعْدَادِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ، ذَكَّرَهُمْ بِنِعْمَةِ الإِنْجَاءِ حِينَمَا نَجَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى هُمْ وَمُوسَى مِنَ الغَرَقِ،

---

(1) سورة البقرة: ٤٠.

(2) سورة البقرة: ١٢٢.

نَجَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حِينَمَا دَخَلُوا ذَلِكَ البَحْرَ وَغَرِقَ فِرْعَوْنُ، وَنَجَّى اللهُ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾[1].

ثُمَّ أَيْضًا ذَكَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِتَفْجِيرِ المَاءِ مِنَ الحَجَرِ، وَأَنَّ هَذَا نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[2].

ثُمَّ أَيْضًا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ عِنَادَهُمْ وَمُحَاجَّتَهُمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَكَّهُمْ وَتَرَدُّدَهُمْ بَعْدَ الِاسْتِسْقَاءِ الَّذِي مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِمْ، فَبَعْدَ أَنْ خَرَجَ لَهُمُ المَاءُ وَتَنَعَّمُوا بِهِ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ سُؤَالَاتُ تَعَنُّتٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمْ مُوسَى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[3]، ثُمَّ بَعْدَمَا تَحَقَّقَ لَهُمْ مَا سَأَلُوا عَانَدُوا وَتَكَبَّرُوا، وَضَرَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالمَهَانَةَ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعُوا إِلَى العِنَادِ وَالتَّكَبُّرِ وَالتَّشَكُّكِ لَمَّا جَاءَهُمُ الِابْتِلَاءُ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾[4] فَيَنْبَغِي لَهُمُ التَّسْلِيمُ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[5]، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾[6]، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[7]، سُؤَالَاتُ تَعَنُّتٍ وَتَكَبُّرٍ وَجُحُودٍ.

ثُمَّ انْظُرُوا وَتَأَمَّلُوا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الآيَاتِ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ رَبَّنَا. بِكَلَامِهِمْ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ مَا قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّنَا. فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ كُلِّهَا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، لَمْ يَقُولُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّنَا. كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ رَبَّنَا. وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ الذَّهَابُ لِمُوسَى، مَاذَا قَالُوا لَهُ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ؟!

---

(١) سورة البقرة: ٥٠.

(٢) سورة البقرة: ٦٠.

(٣) سورة البقرة: ٦١.

(٤) سورة البقرة: ٦٧.

(٥) سورة البقرة: ٦٨.

(٦) سورة البقرة: ٦٩.

(٧) سورة البقرة: ٧٠.

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[1]، يَذْكُرُونَ هَذَا، وَهَذَا سُوءُ أَدَبٍ مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، هَذَا سُوءُ أَدَبٍ مَعَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَهُوَ الرَّبُّ المَعْبُودُ، رَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمُ الَّذِي رَبَّاهُمْ بِنِعَمِهِ وَبِإِيجَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَبُّ المُؤْمِنِينَ وَرَبُّ الكَافِرِينَ.

فَاليَهُودُ هُمْ أَسْوَأُ النَّاسِ أَدَبًا مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي آيَاتٍ أُخْرَى يَصِفُونَ رَبَّهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ، لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي القُرْآنِ لَمَا قِيلَتْ، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2]، وَقَالُوا كَمَا أَخْبَرَ اللهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3]، هَذَا كُلُّهُ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ، وَنَحْنُ نَقِفُ مَعَهَا وَقَفَاتٍ، وَإِلَّا يَطُولُ الكَلَامُ فِيهَا.

ثُمَّ أَيْضًا مِنَ العِبَرِ وَالعِظَاتِ وَأَخْذِ الحَذَرِ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الآيَاتِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْطَعُوا صِلَتَهُمْ بِهِمْ، وَأَنْ يَقْطَعُوا الأَمَلَ فِي رُجُوعِهِمْ إِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4]، هَذَا خِطَابٌ لِأَهْلِ الإِيمَانِ؛ أَيْ: أَفَتَطْمَعُونَ أَفَتَطْمَعُونَ -يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ؟! لِأَنَّ اللهَ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِعَدَمِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فِي سَابِقِ عِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَلِهَذَا لَمَّا اشْتَدَّ الأَذَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَذَى المُشْرِكِينَ وَاجْتَهَدَ فِي دَعْوَتِهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، جَاءَتْ آيَةٌ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ فِيهَا تَسْلِيَةٌ وَتَأْسِيَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلَا تَحْزَنْ، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[5] فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ أَيْضًا كَشَفَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ اليَهُودَ كَانُوا يَعِيبُونَ عَلَى العَرَبِ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ

---

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٨١، ١٨٢.

(٤) سورة البقرة: ٧٥.

(٥) سورة الأنعام: ١١١.

بِالصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَبِالعَرَبِ بِالذَّاتِ، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، وَهَذَا عَيْبٌ وَخَطَأٌ وَهَذَا جَهْلٌ، هُمْ جُهَّالٌ لَا يَعْرِفُونَ أَنْ يَقْرَؤُوا أَوْ يَكْتُبُوا، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ بَلْ هُمُ الأُمِّيُّونَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ..﴾[١] الآيَةَ، فَصَحِيحٌ أَنَّ الأُمِّيَّةَ نَقْصٌ وَجَهْلٌ وَلَكِنَّهَا فِي حَقِّ النُّبُوَّةِ كَمَالٌ، فَيَأْتِينَا إِنْسَانٌ وَيَقُولُ: النَّبِيُّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ. أَنْتُمْ تَقُولُونَ: الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ هَذَا جَاهِلٌ مَا يَفْهَمُ. الأُمِّيَّةُ كَمَالٌ فِي حَقِّ النُّبُوَّةِ، وَنَقْصٌ فِي حَقِّ سَائِرِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الَّذِي عَلَّمَ النَّبِيَّ مَنْ هُوَ؟ هُوَ اللهُ، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ﴾[٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٤].

وَكَذَلِكَ مَا ادَّعَاهُ اليَهُودُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ -أَوْ بَنُو إِسْرَائِيلَ- مِنَ الِامْتِيَازِ وَالتَّفَضُّلِ وَالرِّفْعَةِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ وَأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]، الرَّدُّ يَأْتِي كُلَّمَا يَأْتُونَ بِشُبْهَةٍ أَوْ قَضِيَّةٍ يَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِيهَا.

وَمِنْ أَهَمِّ مَا كَشَفَهُ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا فِي حَيَاتِهِمْ فِي وَقْتِ النُّبُوَّةِ: اسْتِكْبَارُهُمْ وَجُحُودُهُمْ وَعِنَادُهُمْ وَبُعْدُهُمْ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٦]، جَاءَ الرَّدُّ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا﴾[٧]، تَأَمَّلْ! كُلُّ آيَةٍ فِيهَا رَدّ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ.

وَكَتَبَ اللهُ أَيْضًا -جَاءَتْ فِي هَذِهِ الآيَاتِ فِي السِّيَاقِ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْبَرَ كَبِيرَةٍ فَعَلُوهَا،

---

(١) سورة البقرة: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة النساء: ١١٢.

(٣) سورة الشورى: ٥٢.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٨، ٤٩.

(٥) سورة البقرة: ٨٠.

(٦) سورة البقرة: ٨٧، ٨٨.

(٧) سورة النساء: ١٥٥.

وَذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظِهْرَانَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي السَّابِقِ قَبْلَهُمْ لَمَّا ذَهَبَ مُوسَى إِلَى الطُّورِ مَاذَا فَعَلُوا -كَمَا قُلْنَا أَمْسِ؟ عَبَدُوا العِجْلَ، وَتَرَكُوا عِبَادَةَ اللهِ، فَهَذِهِ أَعْظَمُ كَبِيرَةٍ فَعَلُوهَا، ذَكَّرَ اللهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَسْلَافِهِمْ وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1]، ذَكَّرَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ.

ثُمَّ كَشَفَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الشَّيْخُ، كَشَفَ اللهُ تَعَالَى مَا اشْتَهَرَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ، وَهُوَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَانْهِمَاكُهُمْ فِيهِ، وَاسْتِغْلَالُهُمْ لِضُعَفَاءِ العُقُولِ مِنَ النَّاسِ ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ..﴾[2] الآيَةَ.

وَكَشَفَ اللهُ تَعَالَى الشُّبَهَ الَّتِي أَثَارُوهَا وَالمَزَاعِمَ الَّتِي اخْتَلَقُوهَا وَقَالُوهَا عَلَى النَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ؛ ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[3]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

وَكَشَفَ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا عَدَاوَتَهُمْ لِأَمِينِ الوَحْيِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَتَنَزَّلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[5]؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَتَنَزَّلُ بِالوَحْيِ فَهُوَ عَدُوُّهُمْ، جَعَلُوهُ عَدُوَّهُمْ.

وَأَيْضًا أُمُورٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ هَذِهِ خُلَاصَتُهَا، لَكِنَّ القَصْدَ مِنْ سِيَاقِ الشَّيْخِ لِهَذَا أَنَّهُ جَاءَ فِي آخِرِ هَذِهِ الآيَاتِ: الخِطَابُ المُوَجَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَفْعَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ حَتَّى لَا يَقَعُوا فِي مِثْلِ مَا وَقَعُوا فِيهِ، أَوْ يُقَلِّدُوهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ كَإِلْقَاءِ الأَسْئِلَةِ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الأَسْئِلَةِ الَّتِي لَا وَجْهَ لَهَا، وَالَّتِي لَمْ يَأْمُرِ اللهُ تَعَالَى بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سِيَاقِ الآيَاتِ مُخَاطِبًا عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

---

(١) سورة البقرة: ٩٢.

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

(٣) سورة البقرة: ٨٠.

(٤) سورة البقرة: ٩٤.

(٥) سورة البقرة: ٩٨.

السَّبِيلِ﴾[1]، هَذَا الخِطَابُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ.

ثُمَّ تَوَاصَلَ التَّحْذِيرُ إِلَى أَنْ جَاءَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ..﴾[2] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، بَعْدَهَا بِآيَتَيْنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[3].

إِذَنْ -يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ- القَصْدُ مِنْ سِيَاقِ الشَّيْخِ وَتَذْكِيرِهِ بِهَذِهِ الآيَاتِ: الحَذَرُ مِنْ تَقْلِيدِ مَا كَانَ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَالحَذَرُ مِنْ تَقْلِيدِ أَصْحَابِ الطَّوَائِفِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالأَهْوَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَتَعَلَّمُوا عِلْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَذَا هُوَ المَقْصُودُ.

إِذَنْ النَّاسُ هُمْ فِي طَلَبِ العِلْمِ أَوْ فِي العُلَمَاءِ كَمَا قُسِّمَ ذَلِكَ فِي الحَدِيثِ، فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، وَلَوْ رَجَعْتُمْ إِلَيْهِ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَعَرَفْتُمُ التَّقْسِيمَ، وَلَكِنْ أَذْكُرُ لَكُمْ تَقْسِيمَ العُلَمَاءِ بِنَاءً عَلَى الحَدِيثِ الَّذِي قَالَ فِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ..»[4] إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ[5] فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ العُلَمَاءَ -يُؤْخَذُ مِنَ الحَدِيثِ- أَنَّهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

قِسْمٌ يَحْفَظُونَ العِلْمَ وَيَعْلَمُونَ فِقْهَهُ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ.

وَقِسْمٌ يَحْفَظُونَ العِلْمَ وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ فِي اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ، إِنَّمَا هُوَ كَالوِعَاءِ الَّذِي يَحْفَظُ العِلْمَ، كَمَنْ يَحْفَظُ القُرْآنَ وَيَحْفَظُ مُتُونَ السُّنَّةِ وَمُتُونَ أَهْلِ العِلْمِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْرَحَ وَلَا أَنْ يُوَضِّحَ وَلَا أَنْ يَسْتَنْبِطَ وَلَا أَنْ يَسْتَشْهِدَ، لَا، إِنَّمَا تُعْطِيهِ طَرَفَ الكَلَامِ وَيَبْدَأُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ، يَمْشِي فِيهِ.

---

(١) سورة البقرة: ١٠٨.

(٢) سورة البقرة: ١٢٠.

(٣) سورة البقرة: ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب فضل من علم وعلَّم (٧٩)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ (٢٢٨٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) عبد الله بن قيس بن سَليم بن حُضَّار بن حرب بن عامر، أبو موسى، الأشعري. قدم مكة فأسلم. استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن، كزبيد وعدن وأعمالها، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحكمين بصفين، ثم اعتزل الفريقين. مات سنة أربع وأربعين. انظر: الاستيعاب (١/ ٣٠٠) أسد الغابة (٢/ ١٦٣) الإصابة (٤/ ٢١١-٢١٣).

وَقِسْمٌ لَدَيْهِمُ القُدْرَةُ عَلَى اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَحْفَظُونَ النُّصُوصَ إِنَّمَا يَنْقِلُونَهَا نَقْلًا، وَلَكِنْ لَدَيْهِمُ القُدْرَةُ عَلَى الفَهْمِ وَالاِسْتِنْبَاطِ وَالجَمْعِ، لَكِنَّ حَافِظَتَهُمْ لَيْسَتْ بِالقَوِيَّةِ، هَؤُلَاءِ هُمُ العُلَمَاءُ، وَلَكِنْ العُلَمَاءُ الأَوَّلُونَ هُمُ العُلَمَاءُ الَّذِينَ يُعَوَّلُ عَلَيْهِمْ فِي الأَصْلِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَهُمْ مِثْلَ الغَيْثِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى الأَرْضِ الجَدْبَاءِ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ، أَنْبَتَتْ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْتَنْبِطُوا شَيْئًا فَهَذَا مَثَلُ الغَيْثِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى الأَرْضِ وَحَفِظَتِ الأَرْضُ هَذَا المَاءَ، فَإِذَا احْتَاجَ النَّاسُ إِلَيْهِ صَدَّرُوا مِنْهُ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ، فَاسْتَفَادُوا مِنْ هَذَا المَاءِ الَّذِي نَزَلَ مِنَ الأَرْضِ.

وَأَمَّا بَعْضُهُمْ -كَمَا تَقَدَّمَ- لَيْسَ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ، فَهُمْ كَالأَرْضِ القِيعَانِ الَّتِي لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، يُرْجَعُ إِلَى الحَدِيثِ؛ لِأَنَّ المَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ تَفْصِيلٍ فِي هَذَا.

وَيَشْهَدُ مِنْ هَذَا أَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي سِيَاقِهِ لِهَذَا الأَصْلِ شَنَّعَ تَشْنِيعًا عَجِيبًا مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ كَمَا يَقُولُ هُوَ رَحِمَهُ اللهُ، سَنَرْجِعُ إِلَى الأَدِلَّةِ مِنَ السُّنَّةِ، يَقُولُ: «وَصَارَ العِلْمُ وَالفِقْهُ» أَوْ نَأْتِي فِي كَلَامِهِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: «وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا صَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي هَذَا الكَلَامِ الكَثِيرِ البَيِّنِ الوَاضِحِ لِلْعَامِّيِّ البَلِيدِ» لَعَلَّهُ يُشِيرُ هُنَا رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الأَدِلَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ تُؤَكِّدُ عَلَى فَضْلِ العِلْمِ وَبَيَانِهِ وَالحِرْصِ عَلَى تَعَلُّمِهِ.

وَمِنْ أَوْضَحِ الأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ: مَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» -فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]؛ فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا فَإِنَّهُ يَسْعَى إِلَى طَلَبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الَّذِي لَا يَتَفَقَّهُ فِي العِلْمِ وَلَا يُرِيدُهُ وَيَتَضَايَقُ مِنْهُ فَهَذَا رُبَّمَا أَنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، وَهَذَا مَفْهُومُ الحَدِيثِ.

وَأَيْضًا: قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الحَدِيثِ الَّذِي عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَتَسْتَغْفِرُ لَهُ المَلَائِكَةُ، حَتَّى الحِيتَانُ فِي البَحْرِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2]، وَالحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بِسَنَدٍ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (٧١)، ومسلم في كتاب الزكاة- باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب العلم- باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وابن ماجه كتاب المقدمة- باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

حَسَنٍ، وَالأَحَادِيثُ أَيْضًا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ فِي هَذَا المَجَالِ، وَلَكِنَّ هَذَا أَصْلَحُهَا.

أَقُولُ: إِنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى شَنَّعَ عَلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي عَصْرِهِ وَرَمَوْهُ بِالتُّهَمِ فِيمَا دَعَا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ وَالتَّعَلُّقِ بِالقُبُورِ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ فِعْلَهُ، وَالَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ فِعْلَهُ هُمْ طَوَائِفُ البِدَعِ، وَهُمْ أَرْبَعُ طَوَائِفَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا:

قَامَتْ طَائِفَةٌ وَشَنَّعَتْ عَلَى دَعْوَتِهِ، فَقَامَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِمُحَارَبَةِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ دَعْوَتَهُ تَهْدِمُ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الخُرَافَةِ وَالأَبَاطِيلِ، وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ الصُّوفِيَّةُ وَعُبَّادُ القُبُورِ، شَنَّعَ عَلَى عُبَّادِ الخُرَافَةِ وَالقُبُورِ وَالأَضْرِحَةِ تَشْنِيعًا عَجِيبًا، وَهُمُ الصُّوفِيَّةُ وَعُبَّادُ القُبُورِ.

وَأَيْضًا: هَدَمَتْ دَعْوَتُهُ التَّعْطِيلَ، أَيْ: تَعْطِيلَ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ فِعْلِ الجَهْمِيَّةِ، فَحَارَبَ هَذِهِ الأَفْكَارَ وَنَابَذَهَا وَحَذَّرَ مِنْهَا.

ثُمَّ أَيْضًا: هَدَمَتْ دَعْوَتُهُ وَحَارَبَتْ تَحْكِيمَ العَقْلِ عَلَى الوَحْيِ، وَهُوَ مَا يَفْعَلُهُ المُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ العَقْلَ عَلَى النَّصِّ.

وَأَيْضًا: هَدَمَتْ دَعْوَتُهُ وَحَارَبَتْ مَنْ أَوَّلَ نُصُوصَ الصِّفَاتِ -صِفَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- الوَارِدَةَ فِي الكِتَابِ وَفِي السُّنَّةِ، أَبْتَهَا دَعْوَتُهُ، وَحَارَبَ أَصْحَابَ هَذَا الفِكْرِ، وَهُمْ مَذْهَبُ الأَشَاعِرَةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّهُ دَعَا النَّاسَ إِلَى كُلِّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ: «**ثُمَّ صَارَ هَذَا أَغْرَبَ الأَشْيَاءِ**»؛ أَيْ: صَارَ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَغْرَبَ الأَشْيَاءِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[1].

وَفِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي يُنَادِي إِلَى العَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى السَّلَفِ الصَّالِحِ قَدْ يُرْمَى بِشَيْءٍ مِنَ التَّخَلُّفِ وَشَيْءٍ مِنَ الرَّجْعِيَّةِ وَشَيْءٍ مِنَ البُعْدِ عَنْ مَعْرِفَةِ الوَاقِعِ، قَدْ يُرْمَى بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، وَهَذَا فِعْلُ مَنْ سَبَقَ، أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ كَانُوا كَذَلِكَ، وَالأَقْوَامُ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ كَانُوا كَذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى، يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا. وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الذَّارِيَاتِ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[2]، مَا أَتَاهُمْ مِنْ رَسُولٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى دِينِ اللهِ إِلَّا قَالُوا: هَذَا سَاحِرٌ. أَوْ: مَجْنُونٌ.

وَالشَّيْخُ يَصِفُ مَا يَقُولُونَ، أَنَّهُمْ يَصِفُونَ هَذَا بِالزِّنْدِيقِ أَوِ المَجْنُونِ، وَلِهَذَا يَقُولُ: «وَصَارَ العِلْمُ وَالفِقْهُ هُوَ البِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ، وَخِيَارُ مَا عِنْدَهُمْ لَبَّسَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَصَارَ العِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الخَلْقِ وَمَدَحَهُ لَا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلَّا زِنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ» يَعْنِي: عِنْدَهُمْ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

وَقُرَيْشٌ لَمَّا نَزَلَ القُرْآنُ عَلَيْهِمْ أَنْكَرُوهُ، وَأَنْكَرُوا مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَصَفُوهُ بِالكَهَانَةِ وَبِالسِّحْرِ وَبِالجُنُونِ وَبِالأَسَاطِيرِ، هَذَا هُوَ الفِعْلُ، وَأَهْلُ البِدَعِ وَأَهْلُ الأَهْوَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الفِعْلَ لِمَنْ يَدْعُو إِلَى الكِتَابِ وَإِلَى السُّنَّةِ، وَيَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَفِي هَذَا شَبَهٌ بِأَهْلِ الكِتَابِ، ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] هَؤُلَاءِ هُمُ اليَهُودُ، وَأَهْلُ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى يَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَأَهْلُ البِدَعِ سَارُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ.

وَالزِّنْدِيقُ لَعَلَّهُ تَقَدَّمَ، لَكِنْ نَحْنُ مَا ذَكَرْنَا مَعْنَاهُ، هُوَ لَفْظٌ مُعَرَّبٌ، الزِّنْدِيقُ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ، وَإِنَّمَا قَالُوا: هُوَ لَفْظٌ مُعَرَّبٌ. وَمَعْنَاهُ هُوَ مَنْ لَا يَدِينُ بِدِينٍ، الزِّنْدِيقُ هُوَ مَنْ لَا يَدِينُ بِدِينٍ، أَوْ قَالُوا: هُوَ مَنْ يُبْطِنُ الكُفْرَ وَيُظْهِرُ الإِسْلَامَ، وَكَانَ يُسَمَّى الزِّنْدِيقُ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ بِالمُنَافِقِ، كَمَا هُوَ حَالُ الرَّافِضَةِ الآنَ هُمُ الزَّنَادِقَةُ، وَهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

«وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ وَصَنَّفَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالنَّهْيِ عَنْهُ هُوَ الفَقِيهَ العَالِمَ»؛ يَعْنِي: الَّذِي يُنْكِرُ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ هُوَ عِنْدَهُمْ هُوَ العَالِمُ الشَّرْعِيُّ، كَمَنْ يُفْتِي الآنَ فِي هَذَا الزَّمَنِ بِأَنَّ الرِّبَا حَلَالٌ، بِأَنَّ الحِجَابَ حَلَالٌ، وَأَنَّ وَهَذَا الحِجَابُ هُوَ مِنْ مُتَطَلَّبَاتِ الحَيَاةِ، وَضَرُورَاتِ المُجْتَمَعِ، وَضَرُورَاتِ الاقْتِصَادِ الرِّبَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُونَ فِيهِ، وَيُنَادُونَ بِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ، أَوْ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ وَلَكِنَّهُمْ وَقَعُوا فِي ضَلَالَةٍ وَتَشَبَّهُوا بِأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ وَباليَهُودِ الَّذِينَ ضَلُّوا فِي عِلْمِهِمْ، النَّصَارَى ضَلُّوا فِي عِلْمِهِمْ.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٠.

(٢) سورة الذاريات: ٥٢.

(٣) سورة البقرة: ٤٢.

فَالشَّيْخُ يَقُولُ: «وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعَادَاهُ» أَنْكَرَ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ، «وَصَنَّفَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالنَّهْيِ عَنْهُ هُوَ الفَقِيهَ العَالِمَ» الَّذِي يُبَجَّلُ وَيُعَظَّمُ وَيُشَارُ إِلَيْهِ بِالبَنَانِ، وَيُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي المُدْلَهِمَّاتِ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَنِ، كَمَا يَظْهَرُ الآنَ فِي بَعْضِ القَنَوَاتِ فِي بَعْضِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ العِلْمَ وَإِنْ كَانُوا عُلَمَاءَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، العِلْمُ هُوَ مَا قَالَ اللهُ وَقَالَ رَسُولُهُ، وَفَهِمَهُ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ. وَنَقِفُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ.

أَسْئِلَةٌ:

السُّؤَالُ: . . . . . ؟

الجَوَابُ: قُلْنَا: الكَلْبُ المُعَلَّمُ وَالكَلْبُ غَيْرُ المُعَلَّمِ يَجُوزُ أَكْلُ صَيْدِهِ، المَقْصُودُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَكْلُ صَيْدِ الكَلْبِ المُعَلَّمِ، وَأَمَّا الكَلْبُ غَيْرُ المُعَلَّمِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ مَا صَادَهُ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ؟

الجَوَابُ: هَذَا أَمْرٌ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى العُلَمَاءِ وَإِلَى الحَاكِمِ، الجِهَادُ هُوَ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَلِيُّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، فَعَلَى مَنْ يَسْأَلُ عَلَى هَذَا السُّؤَالَ عَنِ الجِهَادِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى العُلَمَاءِ فِي إِدَارَةِ البُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالإِفْتَاءِ وَيَسْأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ المَسَائِلِ الكِبَارِ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ قَوْلِ: «بِسْمِ اللهِ» قَبْلَ الوُضُوءِ؟ هَلْ هُوَ سُنَّةٌ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، هَذِهِ فِيهَا مَسْأَلَةٌ خِلَافِيَّةٌ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ، وَالأَوْلَى أَنْ تُسَمِّيَ إِلَّا إِذَا نَسِيتَ.

السُّؤَالُ: أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بَيْنَ مَا هِيَ: ظِهْرَانَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟

الجَوَابُ: ظَهْرَانَيْهِ يَعْنِي: مَا وَقَعَ فِي عَصْرِهِ يَعْنِي، هَذِهِ عِبَارَةٌ أَطْلَقَهَا أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: فِي عَصْرِهِ وَفِي وَقْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَعْنِي: يُسَمُّونَ الظَّهْرَ هُوَ البُرُوزَ، الشَّيْءُ البَارِزُ فِي الإِنْسَانِ، وَلِهَذَا كَمَا يَقُولُونَ: حُبُّ الظُّهُورِ يَقْصِمُ الظُّهُورَ، حُبُّ الظُّهُورِ لِلنَّاسِ يَقْصِمُ الظُّهُورَ، ظَهْرَ الإِنْسَانِ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

«الأَصْلُ الخَامِسُ

بَيَانُ اللهِ سُبْحَانَهُ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ، وَتَفْرِيقُهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ الْمُنَافِقِينَ وَالْفُجَّارِ، وَيَكْفِي فِي هَذَا آيَةٌ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ..﴾[1] الآيَةَ، وَآيَةٌ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ..﴾[2] الآيَةَ، وَآيَةٌ فِي يُونُسَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[3].

ثُمَّ صَارَ الأَمْرُ عِنْدَ اللهِ أَكْثَرُ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ وَأَنَّهُ مِنْ هُدَاةِ الخَلْقِ وَحُفَّاظِ الشَّرْعِ إِلَى أَنَّ الأَوْلِيَاءَ لَا بُدَّ فِيهِمْ مِنْ تَرْكِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الجِهَادِ فَمَنْ جَاهَدَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَمَنْ تَعَهَّدَ بِالإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَلَيْسَ مِنْهُمْ، يَا رَبَّنَا نَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ يَا رَبَّنَا عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَارْزُقْنَا عِلْمًا وَهُدًى وَتُقًى، وَأَعِذْنَا يَا رَبَّنَا مِنْ فِتْنَةِ القَوْلِ وَفِتْنَةِ العَمَلِ، وَمِنَ الإِعْجَابِ بِالقَوْلِ أَوِ الإِعْجَابِ بِالعَمَلِ.

هَذَا هُوَ الأَصْلُ الخَامِسُ مِنَ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي أَلَّفَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَصْدِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الكِتَابِ وَإِلَى هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ البِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالأَهْوَاءِ.

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة يونس: ٦٢، ٦٣.

وَفِي هَذَا الأَصْلِ الخَامِسِ كَأَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَشْكِي حَالَ أَهْلِ زَمَانِهِ، مِمَّا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ القُبُورِ وَالبُعْدِ عَنِ العَمَلِ بِالنُّصُوصِ، وَتَرْكِ اقْتِفَاءِ أَثَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَرَادَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ مَنْ يَتَشَبَّهُ مِنْهُمْ مِنَ الفُسَّاقِ وَالفُجَّارِ وَالكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ.

وَقَدْ فَرَّقَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَبَيْنَ غَيْرِ أَوْلِيَائِهِ، وَاسْتَشْهَدَ الشَّيْخُ هُنَا رَحِمَهُ اللهُ بِثَلَاثِ آيَاتٍ وَاقْتَصَرَ عَلَيْهَا، وَإِلَّا فَإِنَّ فِي القُرْآنِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ تُبَيِّنُ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَتُوَضِّحُ مَنْ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَمَنْ هُمْ غَيْرُ أَوْلِيَائِهِ، وَلَعَلَّنَا نَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الآيَاتِ اسْتِكْمَالًا لِمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا الأَصْلَ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وِلَايَةِ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ، وِلَايَةِ العَبْدِ لِرَبِّهِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ..﴾[2] الآيَةَ.

وَفَرَّقَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ﴾ أَيِ: الكُفَّارُ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وَجَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى زِيَادَةُ تَوْضِيحٍ وَبَيَانٍ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هَذَا الشَّاهِدُ ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[4].

---

(١) سورة فصلت: ٣٠.

(٢) سورة التوبة: ٧١.

(٣) سورة الأنفال: ٣٣، ٣٤.

(٤) سورة ص: ٢٦ – ٢٨.

وَمِثْلُ هَذِهِ الآيَةِ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ ن: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]، هَذَا هُوَ أَمْرُ الله، وَهَذَا هُوَ تَفْرِيقُهُ جَلَّ وَعَلَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَغَيْرِ أَوْلِيَائِهِ، وَقَدْ تَنَاوَلَ هَذِهِ الآيَاتِ بِالبَسْطِ وَالبَيَانِ وَالتَّوْضِيحِ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ: «الفُرْقَانُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ».

وَالشَّيْخُ هُنَا يُبَيِّنُ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِأَوْلِيَاءِ الله وَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله، وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَحْتَاجُ مِنَّا إِلَى وَقْفَةٍ فِي بَيَانِهَا عَلَى وَجْهِ الإِيجَازِ وَالاِخْتِصَارِ:

الآيَةُ الأُولَى الَّتِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] أَيْ: قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- إِنَّ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله حَقٌّ وَصِدْقٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الله جَلَّ وَعَلَا، فَإِنْ آمَنْتُمْ بِي وَاتَّبَعْتُمُونِي فِيمَا جَاءَنِي مِنَ الله فَقَدْ نِلْتُمْ بِذَلِكَ مَحَبَّةَ الله، وَحَصَلَتْ لَكُمْ مَغْفِرَتُهُ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَهَذِهِ الآيَةُ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ كَالجَوَابِ لِمَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ الله تَعَالَى بِالقَوْلِ دُونَ العَمَلِ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الآيَةُ عِنْدَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ بِآيَةِ المِحْنَةِ أَوْ آيَةِ الاِمْتِحَانِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى امْتَحَنَ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ الله جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ مُعْرِضٌ عَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تَكُونُ لَهُ الوِلَايَةُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ الله، وَأَعْرَضَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ أَيْضًا -مِنَ الأَقْوَالِ-: إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ وَمَا بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ دَاخِلٌ فِي المُحَاجَّةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَوَفْدِ نَجْرَانَ أَوْ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا.

وَالأَصْلُ أَنَّ الآيَةَ مَحْمُولَةٌ عَلَى العُمُومِ لِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ الله تَعَالَى بِالقَوْلِ دُونَ العَمَلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ، فَالَّذِي يُحِبُّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ هِيَ عَيْنُ طَاعَةِ الله، وَمَحَبَّةَ الرَّسُولِ هِيَ عَيْنُ مَحَبَّةِ الله، وَالاِنْقِيَادَ لِلرَّسُولِ هُوَ عَيْنُ الاِنْقِيَادِ لله، وَمُحَادَّةَ الرَّسُولِ هِيَ عَيْنُ مُحَادَّةِ

(١) سورة القلم: ٣٤- ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

الله جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكُمْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1]، ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾[2]، وَآيَاتٌ أُخَرُ كَثِيرَةٌ.

فَهَذِهِ الآيَةُ العَظِيمَةُ فِيهَا إِقَامَةُ الحُجَّةِ وَالبُرْهَانُ وَالدَّلِيلُ القَاطِعُ عَلَى مَنْ زَعَمَ مَحَبَّةَ الله وَلَمْ يَتَّبِعِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَاءَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ التَّأْكِيدُ عَلَى الاِتِّبَاعِ، اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ اتِّبَاعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ طَرِيقُ الفَلَاحِ وَالفَوْزِ وَطَرِيقُ الهِدَايَةِ وَالعِصْمَةِ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾[3] إِلَى أَنْ قَالَ اللهُ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4]، ثُمَّ جَاءَ التَّأْكِيدُ أَيْضًا مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ كَافَّةً ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[5] إِلَى أَنْ قَالَ اللهُ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الهِدَايَةُ لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَيْ: بِاتِّبَاعِهِ، وَكَذَلِكَ الفَلَاحُ وَالفَوْزُ وَالحُصُولُ عَلَى النَّعِيمِ، وَالتَّنَعُّمُ بِالخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

وَهَذِهِ الآيَةُ العَظِيمَةُ -آيَةُ المِحْنَةِ أَوْ آيَةُ الاِمْتِحَانِ- اشْتَمَلَتْ عَلَى الإِلْزَامِ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحُصُولِ مَحَبَّةِ الله مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ مَحَبَّتِي؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ مَحَبَّتِي وَاتِّبَاعِي.

وَالوَجْهُ الثَّانِي: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي؛ لِأَنَّكُمْ إِذَا اتَّبَعْتُمُونِي قَدْ نِلْتُمْ مَحَبَّةَ الله تَعَالَى وَمَغْفِرَةَ الذَّنْبِ، فِي هَذِهِ الآيَةِ أَيْضًا إِثْبَاتٌ لِمَحَبَّةِ الله؛ فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الكَمَالِ وَالجَلَالِ وَالجَمَالِ، وَمِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ لَهُ صِفَةُ المَحَبَّةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْضَى وَيَغْضَبُ، وَيُحِبُّ وَيَكْرَهُ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ اتَّصَفَ بِهَا رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا، مِنْهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَمِنْهَا صِفَاتُ السَّلْبِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْوِيلُ هَذِهِ المَحَبَّةِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تُؤَوَّلَ كَمَا أَوَّلَهَا بَعْضُ أَهْلِ التَّعْطِيلِ

---

(١) سورة النساء: ٨٠.

(٢) سورة المائدة: ٩٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٥) سورة الأعراف: ١٥٨.

وَالتَّأْوِيلِ، وَقَالُوا: إِنَّهَا بِمَعْنَى الإِثَابَةِ وَالجَزَاءِ وَالإِحْسَانِ. كَمَا فَعَلَتِ المُعْتَزِلَةُ وَالأَشَاعِرَةُ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ هَذِهِ المَحَبَّةُ لَهَا آثَارٌ تَظْهَرُ عَلَى حَيَاةِ هَذَا الإِنْسَانِ بِبُعْدِهِ عَنِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَحُصُولِهِ عَلَى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى، كَذَلِكَ رَحْمَةُ اللهِ تَظْهَرُ آثَارُهَا عَلَى العَبْدِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1].

أَمَّا أَنْ تُؤَوَّلَ هَذِهِ الصِّفَاتُ -وَمِنْهَا صِفَةُ المَحَبَّةِ- بِالجَزَاءِ وَالإِحْسَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَهَذَا تَأْوِيلٌ لَا يَصِحُّ، بَلْ هِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ للهِ تَعَالَى، مَحَبَّتُهُ كَامِلَةٌ لَيْسَتْ كَمَحَبَّةِ البَشَرِ، وَعِلْمُهُ كَامِلٌ لَيْسَ كَعِلْمِ البَشَرِ، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2]، وَبِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[3].

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى الآيَةَ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] أَيْ: يَغْفِرُ لَكُمْ مَا إِنِ اتَّبَعْتُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَمِلْتُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ غَفَرَ لَكُمْ مَا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ الاِعْتِقَادِ البَاطِلِ الَّذِي كُنْتُمْ تَزْعُمُونَهُ؛ لِأَنَّ الاِتِّبَاعَ الحَقَّ هُوَ فِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَالمَغْفِرَةُ إِذَنْ -حُصُولُ المَغْفِرَةِ- هِيَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى، وَأَثَرٌ مِنْ آثَارِ العَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّ العِقَابَ الحَاصِلَ لِبَعْضِ النَّاسِ هُوَ بِسَبَبِ الكُفْرِ وَالمَعَاصِي الَّتِي تَقَعُ مِنْهُمْ.

فَالمُسْلِمُ إِذَا قَرَأَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَةِ العَظِيمَةِ عَلِمَ أَنَّ الحَقَّ وَالخَيْرَ وَالفَلَاحَ وَالفَوْزَ هُوَ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَوْلِيَاءُ اللهِ هُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ، وَخَيْرُ مَنْ قَامَ بِهَذَا المَعْنَى هُمْ أَنْبِيَاءُ اللهِ تَعَالَى، أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ، هُمْ صَفْوَةُ الأَوْلِيَاءِ، وَصَفْوَةُ هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ هُمْ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[5]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[6]، وَصَفْوَةُ أُولِي

(١) سورة الروم: ٥٠.

(٢) سورة مريم: ٦٥.

(٣) سورة الشورى: ١١.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

(٥) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٦) سورة الأحزاب: ٧.

العَزْمِ هُوَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فَهُوَ إِمامُ الأَوْلِيَاءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُمْ صَحَابَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَهْلُ بَدْرٍ وَالعَشَرَةُ المُبَشَّرُونَ بِالجَنَّةِ، وَأَفْضَلُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ هُمُ الأَرْبَعَةُ الخُلَفَاءُ؛ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَأَفْضَلُ الخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ هُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَهُوَ إِمَامُهُمْ، إِمَامُ الخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، هَؤُلَاءِ هُمْ صَفْوَةُ الأَوْلِيَاءِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ[1]: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[2].

هَؤُلَاءِ هُمْ صَفْوَةُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ وَسَارَ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ هَذَا مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ فَهَذَا هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، لِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عِنْدَ البُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] مُبَيِّنًا فَضْلَ وِلَايَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ مِنَ البَشَرِ مَنِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالوِلَايَةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[4]، هَذِهِ ثَمَرَاتُ وِلَايَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَثَمَرَةُ الِاتِّبَاعِ لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ سَاقَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى الآيَةَ الأُخْرَى الَّتِي فِي سُورَةِ المَائِدَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا

---

(١) هو: الصحابي عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، أبو نجيد، الخزاعي، القدوة، الإمام، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلم هو وأبوه وأبو هريرة سنة سبع. وله عدة أحاديث. وولي قضاء البصرة، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم، فكان الحسن يحلف: ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين. كان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة. توفي بالبصرة سنة اثنتين وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ٥٢١ ترجمة ١٨٦٨)، وأسد الغابة (٤/ ٢٦٩ ترجمة ٤٠٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٣) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة ٥٩هـ. (تهذيب الكمال: ٣٤/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، وَنَظِيرُ هَذِهِ الآيَةِ: مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(٢)، وَهَذَا الخِطَابُ فِي هَذِهِ الآيَةِ خِطَابٌ ابْتِدَائِيٌّ، لَيْسَ فِيهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكُمْ أَنَّ الْمُنَادَاةَ بِلَفْظِ الإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ؛ إِمَّا أَنْ يَعْقُبَ هَذَا النِّدَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾(٣) أَمْرٌ، وَأَمَّا النَّهْيُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤)، أَوْ يَكُونُ ابْتِدَاءً لِبَيَانِ أَمْرٍ، إِمَّا فِيهِ تَحْذِيرٌ أَوْ تَذْكِيرٌ، كَهَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾(٥)، فَهَذِهِ الآيَةُ جَاءَ فِيهَا أَوْ جَاءَتْ عَلَى وَجْهِ التَّحْذِيرِ وَالوَعِيدِ مَنْ أَنْ يُبَدِّلَ الْمَرْءُ دِينَهُ وَيَسْتَنْكِفَ عَنْ أَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَفِيهَا أَيْضًا إِعْلَامٌ بِارْتِدَادِ بَعْضِ النَّاسِ عَنْ دِينِ اللهِ وَعَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إِذْ فِيهَا إِخْبَارٌ بِالغَيْبِ قَبْلَ وُقُوعِهِ، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ ارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنَ النَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَالَّذِينَ ادَّعَوُا النُّبُوَّةَ فِي عَهْدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ بَعْدَ وَفَاتِهِ ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِن النَّاسِ عَنْ دِينِ اللهِ، وَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى لَمَّا أُصِيبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَلَمَّا مَاتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُذَكِّرًا الصَّحَابَةَ بِهَذِهِ الآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٦)، تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنَ الكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ، لَكِنْ لَمَّا ارْتَدَّ النَّاسُ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَبَائِلُ كَثِيرَةٌ مِنَ العَرَبِ -أَوْصَلَهَا أَهْلُ السِّيَرِ إِلَى سَبْعِ قَبَائِلَ- ارْتَدَّتْ عَنْ دِينِ اللهِ لَمَّا مَاتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّ الَّذِي انْبَرَى لِرَدِّ هَذَا الذَّنْبِ العَظِيمِ وَإِنْكَارِهِ وَدَفْعِهِ هُوَ الصِّدِّيقُ الأَوَّلُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَصَرَّ وَثَبَتَ

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة محمد: ٣٨.

(٣) سورة الأنفال: ٢٠.

(٤) سورة الحجرات: ١.

(٥) سورة المائدة: ٥٤.

(٦) سورة آل عمران: ١٤٤.

عَلَى هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ وَقَاتَلَ مَنِ ارْتَدَّ حَتَّى قَالَ: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ»؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي، ارْتَدُّوا عَنْ دِينِ اللهِ، فَحَارَبَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَمَا جَاءَ فِي السِّيَرِ، وَقَمَعَهُمْ وَرَدَّهُمْ، وَثَبَتَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَعَهُ عَلَى هَذَا الحَقِّ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ العَظِيمَةَ الَّتِي فِيهَا التَّحْذِيرُ وَالوَعِيدُ هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ وَأَسْطَعِ البَرَاهِينِ وَالحُجَجِ عَلَى فَسَادِ غُلَاةِ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ وَيُفَسِّرُونَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا هُمْ أَبُو بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُ، فَقَلَبُوا المَوْضُوعَ عَلَى هَذَا، وَقَدْ كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوِ ارْتَدَّ الصَّحَابَةُ -عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ وَبُطْلَانِهِمْ- لَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1]، فَالصَّحَابَةُ هُمُ القَوْمُ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ تَعَالَى وَيُحِبُّونَهُ، وَهُمُ القَوْمُ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[2]، فَقَوْلُهُمْ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا هُمُ الصَّحَابَةُ، هَذَا هُوَ دَيْدَنُ وَمَنْهَجُ وَعَقِيدَةُ الرَّافِضَةِ وَغُلَاةِ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ هُمْ زَنَادِقَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ﴾ ثُمَّ عَدَّدَ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَهِيَ سِتٌّ، لَكِنْ قَبْلَهَا قَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ﴾، وَالقَوْمُ لَفْظُ جَمْعٍ لَا مُفْرَدَ لَهُ، مِثْلُ «نِسَاءٍ» لَا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ جَمْعِهِ، وَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ -هَذَا اللَّفْظُ «القَوْمُ»- كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، ثُمَّ عَطَفَ وَقَالَ: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾[3] فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ «القَوْمَ» هُوَ يَصْدُقُ عَلَى الرِّجَالِ فَقَطْ.

ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِستِّ صِفَاتٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ:

أَوَّلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى، أَوْ إِثْبَاتُ اللهِ تَعَالَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي آيَةِ آلِ عِمْرَانَ آنِفًا.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ أَيْ: يُحِبُّونَ اللهَ، وَحُبُّ المُؤْمِنِ الصَّادِقِ للهِ ثَبَتَ فِي

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة التوبة: ١٠٠.

(٣) سورة الحجرات: ١١.

كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2].

فَأَهْلُ الإِيمَانِ لَا يُقَدِّمُونَ شَيْئًا مِنَ المَحْبُوبَاتِ عَلَى حُبِّ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، لَا هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ وَلَا غَيْرَهَا، هَذِهِ الثَّمَانِيَةُ المَحْبُوبَاتُ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ، لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ أَوْ مَحَبَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي السُّنَّةِ أَيْضًا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ مَحَبَّةِ اللهِ لِعِبَادِهِ وَمَحَبَّةِ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ، جَاءَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ لَا يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[3].

وَلِذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ حَدِيثُ ذَاكَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» فَقَالَ: لَا شَيْءَ إِلَّا مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَبِيرِ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحًا مِثْلَ فَرَحِنَا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ عَلَى هَذَا الجَوَابِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[4].

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى -وَهِيَ لَمْ يَذْكُرْهَا الشَّيْخُ، لَكِنَّهَا تَكْمِلَةُ الآيَةِ: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣)، من حديث أنس بن مالك .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب علامة الحب لله عز وجل (٦١٧١)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

الْكَافِرِينَ﴾[1] وَيَقْتَضِي تَكْمِلَةَ الآيَةِ هُنَا، المَقَامُ يَقْتَضِي تَكْمِلَةَ الآيَةِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وَنَظِيرُ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ..﴾[2] الآيَةَ، فَقَالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عُدِّيَتِ الذِّلَّةُ هُنَا بِحَرْفِ ﴿عَلَى﴾، وَلَمْ تُعَدَّ بِاللَّامِ؛ لَمْ يَقُلْ: أَذِلَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ حَرْفَ ﴿عَلَى﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالعَطْفِ وَالحُنُوِّ، فَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ يَرْحَمُ بَعْضًا وَيَعْطِفُ عَلَى بَعْضٍ، وَيَحْنُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَكُونُونَ كَالجَنَاحِ عَلَى بَعْضٍ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَوْصَافِ العَظِيمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[3]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، فَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ يَرْحَمُ بَعْضًا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾[6]، فَإِذَا رَحِمَهُمُ اللهُ فَهُمْ يَرْحَمُونَ خَلْقَ اللهِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[7].

وَهُوَ لَمْ يُرِدْ فِي هَذَا الحَدِيثِ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَدِلَّةٍ بِمَعْنَى الذِّلَّةِ الَّتِي هِيَ الهَوَانُ، الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلِيلٌ، لَيْسَ هَذَا هُوَ المُرَادَ، وَإِنَّمَا المُرَادُ: هُوَ اللِّينُ وَالشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالعَطْفُ وَالحُنُوُّ فِيمَا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنَ هَيِّنٌ لَيِّنٌ، وَالمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ، لَيْسَ بِذِي قُوَّةٍ وَلَا صَلَفٍ وَلَا شِدَّةٍ وَلَا عُنْفٍ، مَثَّلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَالجَمَلِ الذَّلُولِ الَّذِي يَقُودُهُ الصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ بِخِطَامِهِ، وَلِهَذَا

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٤) سورة الشعراء: ٢١٥.

(٥) سورة الحجر: ٨٨.

(٦) سورة التوبة: ٧١.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في الرحمة (٤٩٤١)، والترمذي في كتاب البر والصلة- باب باب ما جاء في رحمة الناس (١٩٢٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٦).

جَاءَ فِي الحَدِيثِ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ»(١)، فَهَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَكَانَتْ هَذِهِ صِفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَسِيرُ فِي الطُّرُقَاتِ فَيُوقِفُهُ هَذَا، وَيُوقِفُهُ هَذَا، وَيَسْأَلُهُ هَذَا، وَلَا يَتْرُكُ الإِنْسَانَ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ كَلَامِهِ، صِفَةُ النُّبُوَّةِ التَّوَاضُعُ وَالرَّحْمَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى -وَهِيَ الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ-: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ هِيَ الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ، رِفْعَتُهُمْ وَشِدَّتُهُمْ عَلَى الكَافِرِينَ، وَغِلْظَتُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَقَعُ مَحَبَّتُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢)، وَلَيْسَ مَعْنَى الغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ -يَا أَيُّهَا الشَّبَابُ- أَنَّ الإِنْسَانَ يَذْهَبُ وَيَعْتَدِي عَلَيْهِمْ وَيَسْلُبُ أَمْوَالَهُمْ أَوْ يَسْلُبُهُمْ حُقُوقَهُمْ، هَذَا لَا يَصِحُّ فِي شَرْعِ اللهِ، لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا، وَإِنَّمَا لَا يُوَالِيهِمْ وَلَا تَدْخُلُ مَحَبَّتُهُمْ فِي قَلْبِهِ، وَلَا يَسْرِي الإِعْجَابُ بِهِمْ إِلَى قَلْبِهِ، فَيَتَنَازَلُ عَنْ دِينِهِ لِأَنَّهُ أَحَبَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَقُومُ بِحُقُوقِ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَقُومُ بِحُقُوقِ غَيْرِهِمْ مِنَ الكُفَّارِ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ.

وَلَيْسَ مَعْنَى ﴿أَعِزَّةٍ﴾ الغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ، بَلْ قَدْ تَكُونُ أَخْلَاقُكَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- فِي التَّعَامُلِ مَعَ الكَافِرِينَ سَبَبًا فِي إِسْلَامِهِمْ، فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِمْ، بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، بِإِسْمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ، أَوْ بِالدَّعْوَةِ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ كَافِرًا وَأَسْلَمَ مِنَ الدَّعْوَةِ الصَّامِتَةِ الَّتِي يَرَاهَا فِي أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دُونَ أَنْ يُدْعَى كَمَا حَصَلَ لِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ كَمَا فِي الصَّحِيحِ، أَسْلَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَمَا سَمِعَ آيَةً يَتْلُوهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(٣)، كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّ دِينَ الإِسْلَامِ دِينُ الرَّحْمَةِ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤)، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ لَيْسَ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ فَحَسْبُ؛ بَلْ هُوَ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ وَغَيْرِ أَهْلِ الإِسْلَامِ، فَالْمُسْلِمُ يَلْتَزِمُ الْمَنْهَجَ الشَّرْعِيَّ الصَّحِيحَ

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب المقدمة- باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٢) سورة التوبة: ٧٣.

(٣) سورة الطور: ٣٥.

(٤) سورة الأنبياء: ١٠٧.

وَلَا يَكُونُ مُتَهَوِّرًا وَعَنِيفًا.

وَالصِّفَةُ الخَامِسَةُ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهِيَ قَوْلُهُ: جِهَادُهُمْ جِهَادُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ الْمُجَاهَدَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَعْلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ جِهَادُ الكُفَّارِ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الحَقِّ وَإِلَى الهُدَى، وِفْقَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ وَأُصُولِ الجِهَادِ الْمُحَكَّمَةِ فِي دِينِ اللهِ؛ لِأَنَّ الجِهَادَ -يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ: جِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الهَوَى، وَجِهَادُ الأَعْدَاءِ، وَلَا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُهَيَّئًا لِجِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ إِلَّا إِذَا حَقَّقَ الجِهَادَ الأَوَّلَ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الهَوَى.

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُجَاهِدُ الْمُشْرِكِينَ بِالقَوْلِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا، وَلَمْ يُجَاهِدْهُمْ بِالسَّيْفِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1] أَيْ: جَاهِدْهُمْ بِهَذَا القُرْآنِ، ادْعُهُمْ إِلَى القُرْآنِ، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهِمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَيَتْلُو عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ وَمِنْهُمْ مَنْ عَانَدَ وَتَكَبَّرَ، ثُمَّ بَعْدَمَا هَاجَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى مَكَّةَ شُرِعَ لَهُ الجِهَادُ وَقَوِيَتْ شَوْكَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَبَدَأَ يُعْلِنُ الجِهَادَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَالْمُسْلِمُ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ أَوَّلًا بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَيُجَاهِدُ غَيْرَهُ بِذَلِكَ يَدْعُوهُ، وَيُجَاهِدُ شَيْطَانَهُ وَهَوَاهُ؛ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[2].

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: احْتِمَالُهُمْ لَوْمَ الخَلْقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يَخَفْ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَتَرَدَّدُ لَكِنَّهُ ثَبَتَ وَأَصَرَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَلَمْ يَخَفْ مِنْ أَحَدٍ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ شَيْئًا، فَقَاتَلَ الْمُرْتَدِّينَ حَتَّى نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَلِهَذَا هُوَ الَّذِي تَصْدُقُ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ وَمَنْ عَمِلَ عَمَلَهُ: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى الآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الفَضْلُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ السِّتَّةِ هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَهَبُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَالْمُسْلِمُ يَتَأَمَّلُ مِثْلَ هَذِهِ الآيَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ الآيَةَ الأَخِيرَةَ، وَهِيَ الآيَةُ الثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) سورة الفرقان: ٥٣.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[1] ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى شَرْطَ الوِلَايَةِ، شَرْطَ تَحَقُّقِ الوِلَايَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَهُمَا شَرْطَيْنِ، ذَكَرَ اللهُ شَرْطَيْنِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ هَذِهِ شُرُوطُ الوِلَايَةِ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا مِنَ الكَلَامِ مَنْ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَذَكَرْنَا أَنَّهُمْ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَالشَّيْخُ هُنَا يَرُدُّ عَلَى الصُّوفِيَّةِ فِي هَذِهِ الآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا، يَرُدُّ عَلَى فِرَقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لَكِنَّ أَبْرَزَهُمُ الصُّوفِيَّةُ؛ لِأَنَّ فِرَقَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى تَعَدُّدِهَا يَظُنُّونَ أَنَّ الشَّيْخَ الصُّوفِيَّ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى دَرَجَةٍ كَامِلَةٍ فَيُرْفَعُ عَنْهُ فِيهَا جَمِيعُ التَّكَالِيفِ وَالوَاجِبَاتِ، وَلَا يُؤْمَرُ كَمَا يُؤْمَرُ غَيْرُهُ، فَإِذَا فَعَلَ فِعْلًا مِنَ الأَفْعَالِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ حَقًّا، قَالُوا: إِذَا شَرِبَ الخَمْرَ انْقَلَبَ لَبَنًا، وَقَالُوا: إِذَا زَنَا بِالمَرْأَةِ البِكْرِ فَإِنَّهُ يُفِيضُ عَلَيْهَا مِنْ نُورِهِ. وَيَأْتِيهِمُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُونَ: هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى المَاءِ وَيَطِيرَ فِي الهَوَاءِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَكَّةَ أَوِ المَدِينَةَ ذَهَبَ فِي لَمْحِ البَصَرِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى رَبِّهِ ذَهَبَ، مَتَى مَا أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى رَبِّهِ ذَهَبَ، وَمَتَى مَا أَرَادَ أَنْ يَأْمُرَ الرَّسُولُ لَهُ بِشَيْءٍ تَحَقَّقَ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[2]، إِنْ هِيَ إِلَّا إِحْدَى الكُبَرِ.

هَذِهِ التُّرَّهَاتُ وَالأَبَاطِيلُ وَالخُرَافَاتُ هِيَ أَحْوَالُ الشَّيَاطِينِ يَقْذِفُهَا فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضُّلَّالِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، وَقَدْ كَثُرُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، فِي زَمَنِ الشَّيْخِ، فَشَنَّعَ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّشْنِيعَ العَجِيبَ العَظِيمَ، وَسَنَذْكُرُ مَنْ هُمُ الَّذِينَ شَنَّعَ عَلَيْهِمْ فِي آخِرِ الكَلَامِ.

لَكِنْ هَذِهِ الآيَةَ العَظِيمَةَ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾ هَذَا اسْتِفْتَاحٌ وَاسْتِهْلَالٌ عَجِيبٌ، ﴿أَلَا﴾ هَذَا مِنَ الِاسْتِهْلَالِ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾، وَالِاسْتِهْلَالُ فِيهِ شَدُّ انْتِبَاهِ الإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ مَاذَا سَيُقَالُ بَعْدَ هَذَا الكَلَامِ حَتَّى يَتَنَبَّهَ لَهُ وَيَعْمَلَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نَفَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمُ الخَوْفَ وَنَفَى عَنْهُمُ الحُزْنَ، نَفَى عَنْهُمُ الخَوْفَ الَّذِي سَوْفَ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِ، لَيْسَ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ فِيمَا يَقْدُمُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا الَّذِي تَسْتَقْبِلُهُمُ المَلَائِكَةُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ تُبَشِّرُهُمْ بِالنَّعِيمِ، وَنَفَى عَنْهُمُ الحُزْنَ فِيمَا يَتْرُكُونَ، أَيْ: فِي المُسْتَقْبَلِ، فِي الأَمْرِ المُسْتَقْبَلِ وَالأَمْرِ الغَائِبِ

(١) سُورَة يُونُس، الآيتان: ٦٢-٦٣.

(٢) سورة الكهف: ٥.

وَالحَاضِرِ، الثَّلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: الأَمْرُ الغَائِبُ وَالمُسْتَقْبَلُ وَالحَاضِرُ، كُلُّ هَذَا نُفِيَ عَنْهُمْ فِيهِ كُلُّ الحُزْنِ وَالخَوْفِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أَمَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَمَّنَهُمْ بِهَذَا الأَمَانِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي البَرْزَخِ، وَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ، وَهَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ حَقَّقُوا هَذَا الشَّرْطَ، آمَنُوا بِاللهِ وَحَقَّقُوا التَّقْوَى للهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَهَذِهِ الوِلَايَةُ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَمُتَوَقِّفَةٌ عَلَى تَحْقِيقِ التَّقْوَى الَّذِي هُوَ فِعْلُ المَأْمُورَاتِ وَتَرْكُ المَنْهِيَّاتِ، أَنْ يَفْعَلَ العَبْدُ طَاعَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ يَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ، وَأَنْ يَتْرُكَ المَعْصِيَةَ – مَعْصِيَةَ اللهِ– عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ يَخْشَى عَذَابَ اللهِ، هِيَ فِعْلُ مَا أَمَرَ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ.

وَلِهَذَا –يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ– فَإِنَّ التَّقْوَى فِي كِتَابِ اللهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ: يُؤْمَرُ بِهَا أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا، وَيُؤْمَرُ بِهَا مَنْ هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي، وَيُؤْمَرُ بِهَا الكُفَّارُ.

فَإِذَا أُمِرَ بِهَا أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا وَهُمْ أَنْبِيَاءُ اللهِ تَعَالَى فَالمُرَادُ بِذَلِكَ الثَّبَاتُ عَلَى هَذِهِ التَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[2]، فَهُوَ إِمَامُ المُتَّقِينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنِ المَعْنَى: أَيَثْبُتُ عَلَى هَذِهِ التَّقْوَى؟! كَمَا خَاطَبَ اللهُ أَهْلَ الإِيمَانِ بِالإِيمَانِ، هَذَا يَرِدُ فِي القُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[3] أَيْ: اثْبُتُوا عَلَى الإِيمَانِ، هَذَا الضَّرْبُ الأَوَّلُ.

الضَّرْبُ الثَّانِي: أَنْ يُؤْمَرَ بِهَا –بِالتَّقْوَى– مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ فِيهِمُ ارْتِكَابٌ لِلْمَنْهِيَّاتِ، أَيْ: عُصَاةٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[4] يَدْخُلُ فِي هَذَا الخِطَابِ أَهْلُ الإِسْلَامِ وَغَيْرُ أَهْلِ الإِسْلَامِ، وَالمُرَادُ بِذَلِكَ أَيْضًا: الإِتْيَانُ بِالتَّوْحِيدِ وَالبُعْدُ عَنِ المَعَاصِي.

وَيُؤْمَرُ بِهَا أَهْلُ الكُفْرِ –الكُفَّارُ– يُؤْمَرُونَ بِالتَّقْوَى، وَقَدْ قَالَ كُلُّ نَبِيٍّ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[5]، فَالمُرَادُ بِالتَّقْوَى هُنَا: الإِتْيَانُ بِالتَّوْحِيدِ وَتَرْكُ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا هُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ

(١) سورة الأحقاف: ١٣.

(٢) سورة الأحزاب: ١.

(٣) سورة النساء: ١٣٦.

(٤) سورة النساء: ١.

(٥) سورة نوح: ٣.

سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ أَيْ: كَانُوا أَهْلَ تَقْوَى وَأَهْلَ فِعْلٍ لِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ.

إِذَنْ مَرَاتِبُ التَّقْوَى ثَلَاثَةٌ: جَاءَتْ فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَهِيَ فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ، هَذِهِ مَرَاتِبُ التَّقْوَى، فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُؤَكِّدًا لِهَذَا الْمَعْنَى فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ[1] الذِي فِي «الصَّحِيحِ»: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»[2]، إِذَنْ فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ الَّتِي هِيَ الْحَلَالُ، وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ الَّتِي هِيَ الْحَرَامُ، وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ الَّتِي هِيَ أُمُورٌ مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ الحِلِّ وَالحَرَامِ فَتَرْكُهَا أَوْلَى، هَذِهِ مَرَاتِبُ التَّقْوَى.

وَكُلُّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ يُعَدُّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي هَذِهِ الوِلَايَةِ بِقَدْرِ إِيمَانِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَتَقَرُّبِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَنَافُسِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَبُعْدِهِمْ أَيْضًا عَنِ الْمُنْكَرَاتِ، يَتَنَافَسُونَ وَيَتَفَاوَتُونَ فَلَيْسُوا عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ طَبَقَاتِ الأَوْلِيَاءِ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[3]، لَكِنْ مَآلُ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ يَعْنِي: هُمْ مَآلُهُمْ إِلَى الجَنَّةِ لَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي الرُّتَبِ، يَتَفَاوَتُونَ فِي دَرَجَاتِ الجَنَّةِ، فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: الْمُفَرِّطُ فِي بَعْضِ الوَاجِبَاتِ الْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، هَذَا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ، فَرَّطَ فِي بَعْضِ الوَاجِبَاتِ وَارْتَكَبَ بَعْضَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمُقْتَصِدُ: هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالتَّارِكُ لِبَعْضِ الْمُسْتَحَبَّاتِ، وَالفَاعِلُ لِبَعْضِ المَنْهِيَّاتِ، يَفْعَلُ بَعْضَ المَنْهِيَّاتِ، وَأَمَّا

(١) هو: الصحابي النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، أبو عبد الله، الأنصاري، الخزرجي. أمه عمرة بنت رواحة. ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثماني سنين، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة، له ولأبويه صحبة. سمع من النبي صلى الله عليه وسلم. روى عنه: ابناه محمد وبشير والشعبي وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم. استعمله معاوية على حمص، ثم على الكوفة، واستعمله عليها بعده ابنه يزيد، فلما مات يزيد؛ دعا الناس إلى بيعة عبد الله بن الزبير بالشام، فخالفه أهل حمص، فأخرجوه منها، واتبعوه، وقتلوه في ذي الحجة سنة أربع وستين. انظر: الاستيعاب (ص: ٧٢٣ ترجمة ٢٥٩٦)، والإصابة (٦/ ٤٤٠ ترجمة ٨٧٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة- باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٣) سورة فاطر: ٣٢.

السَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ: فَهُوَ المُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالمَنْهِيَّاتِ أَوِ المَكْرُوهَاتِ، يَتْرُكُهَا، فَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هِيَ طَبَقَاتٌ لِلْأَوْلِيَاءِ.

إِذَنْ عَرَفْنَا مَرَاتِبَ التَّقْوَى وَأَنَّهَا ثَلَاثَةٌ، وَأَنَّ طَبَقَاتِ الأَوْلِيَاءِ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا هُمْ ثَلَاثٌ، وَأَنَّ شَرْطَ التَّقْوَى شَرْطَانِ؛ هُمَا: «الإِيمَانُ بِاللهِ، وَتَحْقِيقُ مَعْنَى التَّقْوَى»، فَيَسْعَى المُسْلِمُ إِلَى أَنْ يُكَمِّلَ إِيمَانَهُ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبِاتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ، وَبِاتِّبَاعِ أَمْرِ رَسُولِهِ، وَيَسْعَى جَاهِدًا إِلَى تَحْقِيقِ التَّقْوَى فِي حَيَاتِهِ، يَعْنِي: يَفْعَلُ أَسْبَابَهَا، التَّقْوَى لَهَا أَسْبَابٌ، وَمِنْ أَسْبَابِهَا: فِعْلُ المَأْمُورَاتِ، وَتَرْكُ المَنْهِيَّاتِ، وَالإِقْبَالُ عَلَى تِلَاوَةِ القُرْآنِ، وَأَدَاءُ الفَرَائِضِ، وَالذِّكْرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالدُّعَاءُ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، أَسْبَابُ التَّقْوَى كَثِيرَةٌ، كُلُّهَا جَاءَتْ فِي القُرْآنِ وَفِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَبَعْدَ هَذَا الأَمْرِ؛ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بَدَأَ يُبَيِّنُ حَالَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ زَمَانِهِ، وَيَشْكُو حَالَ ضَلَالِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «ثُمَّ صَارَ الأَمْرُ عِنْدَ اللهِ أَكْثَرُ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ وَأَنَّهُ مِنْ هُدَاةِ الخَلْقِ وَحُفَّاظِ الشَّرْعِ» يَعْنِي: عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ عِنْدَ اللهِ مُقَرَّبٌ هُوَ مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ الجَهَالَةِ وَأَنَّهُ مِنْ حُفَّاظِ الشَّرْعِ، لَكِنَّهُ يَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ.

وَالشَّيْخُ هُنَا كَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى بَعْضِ الطَّوَائِفِ الَّتِي عَلِمَهَا مِنْ خِلَالِ سَبْرِهِ لِأَحْوَالِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، وَهُوَ يَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى حَالِ أَهْلِ زَمَانِنَا، فَهُمْ طَوَائِفُ مُتَعَدِّدَةٌ، صَارَ الأَمْرُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ، فَهِيَ طَوَائِفُ يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَهَا خَمْسًا أَوْ أَرْبَعًا:

الطَّائِفَةُ الأُولَى: الطَّائِفَةُ القُبُورِيَّةُ: الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِالقُبُورِ وَعَظَّمُوهَا وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِي زَمَانِ الشَّيْخِ، وَلِهَذَا شَنَّعَ النَّكِيرَ عَلَيْهِمْ، وَنَادَاهُمْ بِتَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ، هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَدْعُو غَيْرَ اللهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكُمْ فِي أَوَّلِ الأُصُولِ، أَنَّ أَكْثَرَ الشِّرْكِ ذُيُوعًا وَانْتِشَارًا هُوَ شِرْكُ الدُّعَاءِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ فِي القُرْآنِ كَثِيرًا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي تُنْكِرُ وَتُحَذِّرُ مِنْ فِعْلِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْتَجُّونَ بِأَنَّ مَا يَفْعَلُونَهُ تَقْرِيبٌ لَهُمْ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الفِعْلَ، قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

مِنْ طَرَائِقِ القُرْآنِ وَعَادَاتِهِ: أَنَّهُ إِذَا جَاءَ بِشُبْهَةٍ يَرُدُّ عَلَيْهَا فِي الحَالِ وَلَا يَتْرُكُهَا، هَذَا مِنْ كَمَالِ وَتَمَامِ القُرْآنِ

(١) سورة الزمر: ٣.

الكَرِيم، وَهَؤُلَاءِ الطَّائِفَةُ القُبُورِيَّةُ غَلَوْا فِي القُبُورِ وَفِي الصَّالِحِينَ وَفِي الأَمْوَاتِ.

وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: طَائِفَةُ الصُّوفِيَّةِ: كَأَنَّ الشَّيْخَ أَيْضًا يُحَذِّرُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ، فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ الصُّوفِيَّةُ الَّذِينَ عَبَدُوا اللهَ بِأَذْوَاقِهِمْ وَبِطَرَائِقِ شُيُوخِهِمْ -كَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَمْثِلَةِ لَكُمْ- وَتَرَكُوا اتِّبَاعَ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ، وَهِيَ طُرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ؛ كَطَرِيقَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ وَالقَادْيَانِيَّةِ وَالقَادِرِيَّةِ وَالتِّيْجَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الطَّوَائِفِ، وَهِيَ مُنْتَشِرَةٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ، كَمَا هِيَ مُنْتَشِرَةٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ.

وَالطَّائِفَةُ الثَّالِثَةُ: طَائِفَةٌ سَلَكُوا مَسْلَكَ تَضْلِيلِ النَّاسِ فِي الصِّفَاتِ -فِي صِفَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- سَلَكُوا مَسْلَكَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّأْوِيلِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ؛ كَالجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ، فَخَالَفُوا بِذَلِكَ مَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

وَالرَّابِعَةُ: هِيَ طَائِفَةُ غُلَاةِ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا أَئِمَّتَهُمْ فِي مَنْزِلَةٍ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الأَنْبِيَاءِ؛ بَلْ جَعَلُوهُمْ فِي صِفَاتِهِمْ كَصِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا فِي عِلْمِ الغَيْبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَالطَّائِفَةُ الخَامِسَةُ: هِيَ طَائِفَةٌ تَعْتَقِدُ أَنَّ الوِلَايَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ صَاحِبَ خَوَارِقَ وَكَرَامَاتٍ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ خَوَارِقَ وَلَا كَرَامَاتٍ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ مُلْحَقًا بِمَا تَقَدَّمَ فِي الأَوَّلِ بِالصُّوفِيَّةِ؛ لَكِنَّهُ يَلْتَحِقُ مَعَهُمْ بَعْضُ الفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي هَذَا المَجَالِ، فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِالوِلَايَةِ إِلَّا لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُمْ كَرَامَةٌ خَارِقَةٌ عَنِ العَادَةِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الوِلَايَةَ لَا تَكُونُ مُرْتَبِطَةً بِالكَرَامَاتِ، وَإِنَّمَا الوِلَايَةُ الصَّحِيحَةُ هِيَ لُزُومُ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَتَحْقِيقُ التَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

لَكِنَّ السَّلَفَ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، السَّلَفُ لَمْ يُنْكِرُوا الكَرَامَاتِ، الكَرَامَاتُ لَمْ يُنْكِرْهَا السَّلَفُ، بَلْ إِنَّ الكَرَامَةَ قَدْ حَصَلَتْ لِلصَّحَابَةِ وَلِلتَّابِعِينَ وَلِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَالكَرَامَاتُ حَقٌّ تَحْصُلُ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ، وَحَصَلَتْ لِلصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ، لَكِنْ لَيْسَتْ هِيَ الفَيْصَلَ وَالعَلَامَةَ الوَاحِدَةَ فِي تَحْقِيقِ وِلَايَةِ اللهِ تَعَالَى، بَلْ إِنَّ الكَرَامَةَ مَا تَحْصُلُ إِلَّا مِنَ التَّقْوَى وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، هِيَ ثَمَرَةُ ذَلِكَ، أَمَّا الأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي سَمِعْنَا شَيْئًا مِنْهَا، فَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[1]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ

(١) سورة محمد: ٢٥.

سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

فَأَحْوَالُهُمْ لَيْسَتْ بِكَرَامَاتٍ، بَلْ هِيَ بِدَعٌ وَضَلَالَاتٌ وَاتِّبَاعٌ لِلْأَهْوَاءِ وَإِغْوَاءٌ لِلنَّاسِ فِي هَذَا المَجَالِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الأَصْلِ الخَامِسِ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ، وَنَكْتَفِي بِهَذَا القَدْرِ.

وَالشَّيْخُ خَتَمَ هَذَا بِقَوْلِهِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: «وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الجِهَادِ فَمَنْ جَاهَدَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَمَنْ تَعَهَّدَ بِالإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَلَيْسَ مِنْهُمْ» هَذَا مِنْ أَعْجَبِ العُجَابِ، أَنَّ الَّذِي يُحَقِّقُ أَمْرَ اللهِ وَيَلْتَزِمُ شَرْعَ اللهِ يُنْكَرُ عَلَيْهِ فِي هَذَا، وَلِهَذَا كَمَا أَنْكَرَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ وَاسْتَهْزَؤُوا بِمَنْ يَجْلِسُ مَعَهُ وَاحْتَقَرُوهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مُعَاتِبًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2]، حِينَمَا يَقُولُ لَهُ الكُفَّارُ: تُجَالِسُ هَؤُلَاءِ الفُقَرَاءَ أَوْ غَيْرَهُمْ.

وَالآيَةُ الأُخْرَى الَّتِي وَقَعُوا مَحَلَّ الاِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ بَعْضُ المُشْرِكِينَ؛ حِينَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ -وَهُمُ المُنَافِقُونَ- قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[3]، كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالصَّحَابَةِ وَبِدِينِهِمْ وَبِحِفْظِهِمْ لِلْقُرْآنِ وَبِإِيمَانِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ، هَذَا حَالُ أَهْلِ البِدَعِ وَحَالُ المُتَصَوِّفَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَيْسَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الوِلَايَةِ، وَلَيْسَ مَنْ صَلَّى، وَلَا مَنْ صَامَ، وَلَا مَنْ عَبَدَ اللهَ وَلَا مَنِ اتَّقَى، وَلَا مَنِ اتَّبَعَ أَمْرَ اللهِ، هَذَا لَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، مَا أَعْظَمَ هَذِهِ الفِرْيَةَ وَأَشَدَّهَا!!

وَلِهَذَا خَتَمَ الشَّيْخُ هَذَا الفَصْلَ بِالدُّعَاءِ؛ فَقَالَ: «يَا رَبَّنَا نَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ» نَسْأَلُكَ العَفْوَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي الَّتِي قَدْ يَرْتَكِبُهَا أَحَدٌ مِنَّا، وَنَسْأَلُكَ يَا رَبَّنَا أَنْ تَغْفِرَ لَنَا، وَأَنْ تَرْحَمَنَا مِمَّا عَمِلْنَا مِنَ التَّقْصِيرِ وَالبُعْدِ عَنْ فِعْلِكَ يَا رَبَّنَا؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لِكَلَامِنَا وَأَحْوَالِنَا؛ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[4]، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[5]، إِلَى هَذَا

(١) سورة فاطر: ٨.

(٢) سورة الأنعام: ٥٢.

(٣) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.

(٤) سورة إبراهيم: ٣٩.

(٥) سورة آل عمران: ٣٨.

القَدْرِ نَكْتَفِي.

السُّؤَالُ: لِمَاذَا أَطْلَقْتَ «مَجُوسُ الأُمَّةِ» عَلَى الرَّافِضَةِ؟

الجَوَابُ: أَقُولُ لَكَ: ارْجِعْ وَاقْرَأْ لِأَئِمَّةِ الدَّعْوَةِ فِي «الرَّسَائِلِ وَالمَسَائِلِ» حَتَّى تَسْتَطِيعَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى أَهْلِ البِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَلَيْسَ الإِنْسَانُ يَحْكُمُ بِرَأْيِهِ وَبِهَوَاهُ، وَهَذَا الحُكْمُ ذَكَرَهُ أَئِمَّةُ الدَّعْوَةِ، وَمِنْهُمُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّطِيفِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، ذَكَرَ هَذَا.

السُّؤَالُ: مَا مَعْنَى قَوْلِكَ: «الرَّافِضَةُ مَجُوسٌ»؟

الجَوَابُ: أَيْضًا تَكَرَّرَ، أَنَا أُوصِيكُمْ بِقِرَاءَةِ كُتُبِ أَئِمَّةِ الدَّعْوَةِ مِنَ «الرَّسَائِلِ وَالمَسَائِلِ» وَ «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ»؛ فَفِيهَا تَقْرِيرٌ لِلْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَالرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ.

السُّؤَالُ: هَذَا يَقُولُ: إِنَّ هُنَاكَ إِسْهَابًا فِي الكَلَامِ وَيَنْبَغِي بَيَانُ المَقْصِدِ الأَصْلِيِّ لِهَذِهِ الأُصُولِ؟

الجَوَابُ: المَقْصِدُ الأَصْلِيُّ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي كَلِمَتَيْنِ وَيَنْتَهِي الدَّرْسُ فِي أَوَّلِ رُبْعِ سَاعَةٍ، أَنْ يُقَالَ: الشَّيْخُ يُرِيدُ أَنْ يُقَرِّرَ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ وَالعِبَادَةَ الصَّحِيحَةَ للهِ جَلَّ وَعَلَا، وَيَرُدَّ عَلَى الطَّوَائِفِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ نُصُوصَ الدِّينِ وَيُخَالِفُونَ سُنَّةَ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ. وَانْتَهَيْنَا، هَذَا هُوَ المَقْصُودُ.

لَكِنَّ الشَّيْخَ اسْتَشْهَدَ بِآيَاتٍ وَجَعَلَ هَذَا كَالمَتْنِ أَوْ كَالشَّيْءِ المُخْتَصَرِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُوَضَّحَ وَيُبَيَّنَ، فَلَزِمَ فِي ذَلِكَ البَيَانُ وَالتَّوْضِيحُ، وَإِلَّا مَا هِيَ الحِكْمَةُ مِنْ قِرَاءَةِ تِلْكَ الأُصُولِ إِذَا كُنَّا أَتَيْنَا بِالمُطَوَّلَاتِ وَبَدَأْنَا نَقْرَأُ، وَأَنْتُمْ تُتَابِعُونَ وَيَنْتَهِي الكَلَامُ فِي هَذَا، فَهَذِهِ كُلُّهَا تَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ، وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ هُوَ بَيَانٌ لِلْآيَاتِ وَبَيَانٌ لِلْأُصُولِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ.

نَصِيحَةٌ لِمَنْ يُحْضِرُ يُحْضِرُ الأَبْنَاءَ لِلْإِزْعَاجِ أَثْنَاءَ الدَّرْسِ، حُضُورُ الدَّرْسِ يَأْتِي الطَّالِبُ لِيَسْتَفِيدَ، لَا لِأَنَّ يُزْعِجَ إِخْوَانَهُ وَزُمَلَاءَهُ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، المَسْجِدُ هُوَ مَا بُنِيَ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ وَقِرَاءَةِ الكُتُبِ النَّافِعَةِ، فَإِذَا جَاءَ الصَّغِيرُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِعَ مَا يَقُولُهُ الأُسْتَاذُ أَوْ مَا يَقُولُهُ المُتَكَلِّمُ لِيُشَارِكَ زُمَلَاءَهُ وَلَا يَخْرُجَ عَنِ القَصْدِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يَتَحَدَّثَ فَلْيَخْرُجْ إِلَى خَارِجِ المَسْجِدِ.

لَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ الآنَ قَدْ يُسْهِبُ فِي جَوَّالِهِ وَيَتَكَلَّمُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ العَادَاتِ وَالأَحْوَالِ، وَقَدْ يَصِلُ الأَمْرُ إِلَى غِيبَةٍ وَإِلَى نَمِيمَةٍ وَهُوَ فِي بَيْتِ اللهِ تَعَالَى مِنْ خِلَالِ جِهَازِهِ، أَوْ يَتَفَقَّدُ مَا فِي هَذَا الجِهَازِ مِنْ صُوَرٍ أَوْ نَحْوِ

ذَلِكَ، فَالإِنْسَانُ يَتَّقِي اللهَ تَعَالَى، هَذِهِ المَسَاجِدُ مَا بُنِيَتْ إِلَّا لِلتَّعْظِيمِ وَإِجْلَالِ اللهِ، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾[1]، وَهَذَا مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ، وَالمَسْجِدُ تُقَامُ فِيهِ شَعَائِرُ اللهِ، ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2].

هَذَا وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

(١) سورة النور: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الحج: ٣٢.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

«الأَصْلُ السَّادِسُ

رَدُّ الشُّبْهَةِ الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيْطَانُ فِي تَرْكِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ المُتَفَرِّقَةِ المُخْتَلِفَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لَا يَعْرِفُهُمَا إِلَّا المُجْتَهِدُ المُطْلَقُ، وَالمُجْتَهِدُ هُوَ المَوْصُوفُ بِكَذَا وَكَذَا أَوْصَافًا لَعَلَّهَا لَا تُوجَدُ تَامَّةً فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الإِنْسَانُ كَذَلِكَ فَلْيُعْرِضْ عَنْهُمَا فَرْضًا حَتْمًا لَا شَكَّ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَمَنْ طَلَبَ الهُدَى مِنْهُمَا فَهُوَ إِمَّا زِنْدِيقٌ وَإِمَّا مَجْنُونٌ؛ لِأَجْلِ صُعُوبَةِ فَهْمِهِمَا!

فَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ كَمْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ شَرْعًا وَقَدَرًا خَلْقًا وَأَمْرًا فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ المَلْعُونَةِ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى بَلَغَتْ إِلَى حَدِّ الضَّرُورِيَّاتِ العَامَّةِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[1]. آخِرُهُ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَارْزُقْنَا عِلْمًا وَهُدًى وَتُقًى.

فِي هَذَا الأَصْلِ، وَهُوَ الأَصْلُ السَّادِسُ وَالأَخِيرُ مِنْ هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي أَلَّفَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ فِي تَقْرِيرِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَرَدِّ النَّاسِ إِلَى أَصْلِ الإِسْلَامِ وَهُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِبْطَالُ مَا يُعَادِي ذَلِكَ مِنَ الأَهْوَاءِ وَالآرَاءِ.

---

(١) سورة يس: ٧-١١.

فَذَكَرَ فِي هَذَا الفَصْلِ الحَدِيثَ عَنِ الشُّبْهَةِ الَّتِي يَضَعُهَا الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَالآرَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالأَهْوَاءُ عَلَى نَوْعَيْنِ:

إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَهْوَاءً فِي شَهَوَاتٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَهْوَاءً فِي شُبُهَاتٍ.

فَالأَهْوَاءُ فِي الشَّهَوَاتِ خَطَرُهَا أَقَلُّ مِنْ خَطَرِ الأَهْوَاءِ فِي الشُّبُهَاتِ، وَخَطَرُ الشُّبْهَةِ عَظِيمٌ جِدًّا؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الشُّبْهَةَ وَالشُّبُهَاتِ حَوْلَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَيْسَتْ حَدِيثَةً فِي هَذَا العَصْرِ وَلَا قَبْلَهُ، بَل هِيَ قَدِيمَةٌ مُنْذُ أَنْ سَطَعَ نُورُ الإِسْلَامِ وَبُعِثَ سَيِّدُ الأَنَامِ، وَتَتَفَاوَتُ وَتَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنٍ إِلَى زَمَنٍ، وَفِي زَمَنِ الشَّيْخِ زَادَتِ الشُّبُهَاتُ وَالضَّلَالَاتُ وَالبِدَعُ وَالخُرَافَاتُ، وَكَثُرَ عُبَّادُ القُبُورِ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى.

فَالشَّيْخُ كَمَا تَقَدَّمَ يَشْكُو حَالَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَيَتَعَجَّبُ مِنْ صَنِيعِهِمْ وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ بِالأَهْوَاءِ وَالآرَاءِ وَالبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ.

أَقُولُ: إِنَّ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ، مُنْذُ أَنْ نَزَلَ الوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَامَتْ شُبْهَةُ المُشْرِكِينَ فِي دَفْعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَمُعَارَضَتِهِ وَالاِسْتِهْزَاءِ بِهِ وَاتِّهَامِهِ وَاتِّهَامِ مَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ تَوَلَّى هَذِهِ الشُّبْهَةَ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ وَمَعَهُ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَغَيْرُهُمْ، فَكَانُوا إِذَا قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القُرْآنَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ وَإِسْمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ قَامُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ جِدًّا حَتَّى يُشَوِّشُوا عَلَى السَّامِعِ، وَفِي هَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَيْضًا: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2].

وَتَوَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ إِلَى أَنْ أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى الدِّينَ وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ، وَتُوُفِّيَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَدِ اكْتَمَلَ هَذَا الدِّينُ.

وَهُنَاكَ أَيْضًا شُبُهَاتٌ لِأَهْلِ النِّفَاقِ، أَيْضًا كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْخَرُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ وَيَقُولُونَ الكَلَامَ الحَسَنَ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي أُذُنِ السَّامِعِ، وَهُوَ كُلُّهُ شُبُهَاتٌ حَوْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ

(١) سورة فصلت: ٢٦.

(٢) سورة الفرقان: ٥.

تَعَالَى: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[1].

فَأَهْلُ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ لَهُمْ كَلَامٌ مُنَمَّقٌ وَجَيِّدٌ وَبَلِيغٌ يُؤَثِّرُونَ بِهِ عَلَى عُقُولِ العَامَّةِ لِأَجْلِ صَرْفِهِمْ عَنِ الوَحْيِ فِيمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ الشُّبُهَاتُ تُثَارُ دَائِمًا مِنْ أَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ فِي وَقْتِهِ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، وَيُجَاهِدُ نَفْسَهُ وَيُجَاهِدُ النَّاسَ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى هَذَا التَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّهُ لَقِيَ مَا لَقِيَ مِنَ التُّهَمِ فِي وَقْتِهِ وَرُمِيَ بِالشَّنَائِعِ، وَلَمْ يَقِفْ مَعَهُ إِلَّا القَلِيلُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى مَكَّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ.

وَالشَّيْطَانُ يُوقِعُ الشُّبْهَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَأَكْثَرَ مَا يُوقِعُهَا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، فِي عُلَمَائِهِمْ، وَالشَّيْخُ يَقُولُ هُنَا: «رَدُّ الشُّبْهَةِ الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيْطَانُ فِي تَرْكِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ»، الشَّيْطَانُ مَا فَتِئَ لِيُضِلَّ النَّاسَ وَيُغْوِيَهُمْ عَنْ دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالعَالِمُ المُتَّبِعُ شَدِيدٌ عَلَى هَذَا الشَّيْطَانِ، أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنَ العَابِدِ، فَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُغْوِيَ هَذَا العَالِمَ لِيَصُدَّهُ عَنِ الحَقِّ، وَلِهَذَا أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ -الشَّيْطَانُ- هَذَا العَهْدَ، وَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لَهُ، قَالَ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ أَيْضًا: ﴿لَّعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[3] ثُمَّ لَأُضِلَّنَّهُمْ، وَبَيَّنَ ضَلَالَهُ لِهَؤُلَاءِ الخَلْقِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي، وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى فِي سُورَةِ فَاطِرٍ مُبَيِّنًا عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ؛ قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4] إِلَى أَنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَهَا مُبَيِّنًا أَثَرَ الشَّيْطَانِ فِي تَزْيِينِ الأَفْعَالِ القَبِيحَةِ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[5] يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَاهَا.

فَالعَالِمُ وَطَالِبُ العِلْمِ يَسْعَى فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ الَّتِي وَضَعَهَا الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يُنَادُونَ

(١) سورة المنافقون: ٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٦، ١٧.

(٣) سورة النساء: ١١٨.

(٤) سورة فاطر: ٦.

(٥) سورة فاطر: ٨.

بِتَرْكِ العَمَلِ بِالقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الأَثَرِ، وَيُنَادُونَ أَيْضًا بِتَرْكِ اتِّبَاعِ الأَثَرِ، وَيُنَادُونَ بِاتِّبَاعِ الآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ المُضِلَّةِ المُفَرِّقَةِ المُتَفَرِّقَةِ وَالمُخْتَلِفَةِ الَّتِي هِيَ طَرِيقٌ لِلتَّفَرُّقِ وَالاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَكَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ الشُّبُهَاتِ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ وَلَا تَتَوَقَّفُ أَيْضًا عِنْدَ حَدٍّ، لَكِنَّ الوَاجِبَ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ فِي مُحَارَبَةِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ، وَدَحْضِهَا وَرَدِّهَا وَالبُعْدِ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ، المُسْلِمُ عَلَى وَجْهِ العُمُومِ يَبْتَعِدُ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ الَّذِينَ أَغْوَوْهُمْ شَيَاطِينُ الجِنِّ.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا خَطَرَ ذَلِكَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾[1]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[2] أَيْ: أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الشُّبَهِ يُشَكِّكُونَ النَّاسَ فِي دِينِهِمْ، يُشَكِّكُونَ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِمْ، فِي قُرْآنِهِمْ فِي سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، فِي نَبِيِّهِمْ، فِي أَصْحَابِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَإِنَّ الأَصْلَ عِنْدَهُمُ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ أَنَّ مَصْدَرَ هَذَا الدِّينِ هُوَ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا القُرْآنِ وَأَحْكَامِهِ وَهَذَا الدِّينِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[3].

وَيُرْوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «آمَنْتُ بِاللهِ عَلَى مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُولِ اللهِ عَلَى مَا جَاءَ مِنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»، هَذَا هُوَ التَّسْلِيمُ المُطْلَقُ وَالإِيمَانُ الكَامِلُ لِمَا فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كَمَا أَنَّ أَهْلَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ فِي دِينِ اللهِ، يَأْتُونَ إِلَى العُلَمَاءِ وَيَطْرَحُونَ عَلَيْهِمُ الأَسْئِلَةَ التَّعْجِيزِيَّةَ فِي كَثِيرٍ مِنَ القَضَايَا، فِي مَسَائِلِ الاِعْتِقَادِ، وَمَسَائِلِ العِبَادَاتِ، وَالأَخْلَاقِ، وَالمُعَامَلَاتِ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى الإِمَامِ مَالِكٍ

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب منه آيات محكمات (٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم- باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير (٢٦٦٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَسَأَلَهُ عَنِ الِاسْتِوَاءِ، قَالَ لَهُ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا». فَكَانُوا يُوَجِّهُونَ الأَسْئِلَةَ كَمَا وَجَّهُوهَا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلِلصَّحَابَةِ وَلِلتَّابِعِينَ وَلِغَيْرِهِمْ.

أَيْضًا كَذَلِكَ صَاحِبُ الشُّبْهَةِ لَمَّا دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُقَسِّمُ الغَنَائِمَ، قَالَ لَهُ: اعْدِلْ فَإِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ. قَالَ: «وَيْحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلُ»[1]. هَذِهِ شُبْهَةٌ أَيْضًا فِي قَلْبِ هَذَا الإِنْسَانِ.

وَرَدُّ هَذِهِ الشُّبَهِ مِنَ الوَاجِبَاتِ عَلَى العُلَمَاءِ، مَنْ تَكَلَّمَ فِي دِينِ اللهِ أَوْ طَعَنَ أَوِ اسْتَنْقَصَ أَوْ قَلَّلَ أَوْ رَدَّ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَعَلَى أَهْلِ العِلْمِ أَنْ يَنْبُرُوا لِلرَّدِّ عَلَى مِثْلِ هَذَا كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الأَهْوَاءِ لَا يَزَالُونَ يُحَارِبُونَ السُّنَّةَ وَيُحَارِبُونَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ، فَإِذَا وَجَدُوا قُلُوبًا خَاوِيَةً وَتَلَقَّفَتْ هَذِهِ الأَهْوَاءَ وَالآرَاءَ المُضَلِّلَةَ وَتَمَكَّنَتْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ قَلَّ فِيهِمُ الدِّينُ، وَقَلَّتْ فِيهِمُ العِبَادَةُ، وَذَهَبَتْ رُوحُ الدِّينِ مِنْهُمْ.

وَيَقُولُ الشَّيْخُ: «وَهِيَ أَنَّ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لَا يَعْرِفُهُمَا إِلَّا المُجْتَهِدُ المُطْلَقُ». هُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَيْسَ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، لَا يَتَعَبَّدُونَ اللهَ تَعَالَى بِهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَعْرِفُهُ هُوَ العَالِمُ المُجْتَهِدُ المُطْلَقُ الَّذِي وُصِفَ بِكَذَا وَكَذَا.

وَأَوْصَافُ المُجْتَهِدِ المُطْلَقِ مُبَيَّنَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا فِي كُتُبِ الأُصُولِ، أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِكِتَابِ اللهِ، وَعَارِفًا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِمَا، وَيَعْرِفَ مَا فِي القُرْآنِ مِنَ النَّاسِخِ وَالمَنْسُوخِ، وَيَعْرِفَ المُتَشَابِهَ مِنَ المُحْكَمِ، وَالقِرَاءَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ وَأَيْضًا عَارِفًا بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَعَارِفًا بِمَوَاطِنِ الإِجْمَاعِ، وَعَارِفًا بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَقَضَايَا كُبْرَى، هَذِهِ لِأَهْلِ العِلْمِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ.

لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَمَا شَرَعَ هَذَا الدِّينَ مَا شَرَعَهُ لِفِئَةٍ دُونَ فِئَةٍ، وَلَا لِجَمَاعَةٍ دُونَ جَمَاعَةٍ، شَرَعَهُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، لَكِنَّ العُلَمَاءَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ

(١) أخرجه البُخاريّ في كتاب المغازي- باب بعث عليّ بن أبي طالب، وخالد بن الوليد س إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٣٥١)، ومسلم في كتاب الزَّكاة- باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤).

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

النَّاسِ، هُمُ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ وَيُوَضِّحُونَ وَيَدُلُّونَ النَّاسَ إِلَى الحَقِّ وَيُفْتُونَهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ الَّتِي يَقُولُونَهَا، يَقُولُهَا أَهْلُ الأَهْوَاءِ حِينَمَا أَلْقَاهَا الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ، هَذِهِ الأَوْصَافُ لَا تُوجَدُ حَتَّى فِي أَبِي بَكْرٍ وَلَا فِي عُمَرَ وَلَا فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَجْلِ التَّعْجِيزِ.

وَلِهَذَا -يَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ- إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَمَا أَنْزَلَ القُرْآنَ أَنْزَلَهُ وَجَعَلَهُ مُيَسَّرًا وَسَهْلَ القِرَاءَةِ وَالفَهْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1]، وَحِينَمَا نَزَلَ هَذَا القُرْآنُ جَعَلَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ، مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ، إِمَّا إِجْمَالًا أَوْ تَفْصِيلًا أَوْ بِالإِحَالَةِ، بِدِلَالَةِ الإِحَالَةِ إِلَى السُّنَّةِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ هِيَ مُبَيِّنَةٌ لِمَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾[2]، صَرَّفَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ الوَعْدَ وَالوَعِيدَ، وَالأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالحَلَالَ وَالحَرَامَ، وَبَيَّنَ فِيهِ مَسَائِلَ الاِعْتِقَادِ، وَبَيَّنَ فِيهِ فَضَائِلَ الاِتِّبَاعِ، وَبَيَّنَ فِيهِ الجَزَاءَ الحَسَنَ وَالعِقَابَ السَّيِّءَ، وَصِفَاتِ أَهْلِ الإِيمَانِ وَصِفَاتِ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالكُفْرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، هَذَا أَمْرُهُ مُيَسَّرٌ وَمُسَهَّلٌ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُثِيرُونَ بَعْضَ الشُّبَهِ، فَيَقُولُونَ: لَا نَتَّبِعُ إِلَّا القُرْآنَ وَلَا نَتَّبِعُ غَيْرَ القُرْآنِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ جَاءَ بِكُلِّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[3] يَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[4] وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾[5]، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا القُرْآنِ، وَهَذِهِ بَاطِلَةٌ، وَهَذِهِ شُبْهَةٌ بَاطِلَةٌ وَاهِيَةٌ لَا يَقُولُهَا إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ ضَالٌّ مُغْرِضٌ، وَالحُجَجُ عَلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وَإِلَّا يُقَالُ لَهُمْ: كَيْفَ تُصَلُّونَ؟ كَيْفَ تُزَكُّونَ؟ كَيْفَ تَصُومُونَ؟ كَيْفَ تَحُجُّونَ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَادَاتِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعْرِفَتَهَا مِنَ القُرْآنِ، القُرْآنُ جَاءَتْ فِيهِ أَدِلَّةٌ عَامَّةٌ وَمُجْمَلَةٌ، وَالإِحَالَةُ إِلَى السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ هِيَ الَّتِي تُفَصِّلُ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[6] يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا فِي الآيَةِ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]،

---

(١) سورة القمر: ١٧.

(٢) سورة الإسراء: ٤١.

(٣) سورة الأنعام: ٣٨.

(٤) سورة الأنعام: ٣٨.

(٥) سورة يونس: ٣٧.

(٦) سورة النحل: ٤٤.

يَعْنِي هَذَا القُرْآنُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، إِذَا قَالُوا: إِنَّنَا نَكْتَفِي بِالقُرْآنِ، نَقُولُ: هَذَا يَتَعَارَضُ وَيَتَنَاقَضُ مَعَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٢)، هَذَا خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣)، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٤)، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٥)، فَتَبَيَّنَ لَكَ بُطْلَانُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ الَّتِي يُثِيرُهَا أَعْدَاءُ المِلَّةِ وَأَعْدَاءُ التَّوْحِيدِ.

وَمِمَّا يُثَارُ أَيْضًا مِنَ العَقْلَانِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ وَالعَصْرَانِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ وَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ نَزَلَ عَلَى قَوْمٍ بِخُصُوصِهِمْ، فَهُوَ يُخَاطِبُهُمْ وَيَعْرِفُ مَا يَدُورُ فِي أَحْوَالِهِمْ وَظُرُوفِهِمْ، فَلَمَّا انْتَهَوُا انْتَهَى العَمَلُ بِمَا فِي هَذَا القُرْآنِ وَبِمَا فِي هَذِهِ السُّنَّةِ.

وَهَذِهِ أَيْضًا شُبْهَةٌ وَاهِيَةٌ بَاطِلَةٌ لَا يَقُولُهَا إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ ضَالٌّ مُغْرِضٌ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا القُرْآنَ لِجَمِيعِ النَّاسِ، مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ العَصْرِ وَإِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ أَيْضًا أُمِرُوا بِاتِّبَاعِهِ؛ لِأَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٧)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٨)؛ فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، لِلثَّقَلَيْنِ: الجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»(٩)، فَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ

---

(١) سورة النحل: ٨٩.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) سورة الحشر: ٧.

(٥) سورة الأحزاب: ٢١.

(٦) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٧) سورة سبأ: ٢٨.

(٨) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٩) أخرجه البخاري في كتاب التيمم- باب وقول الله تعالى: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} (٣٣٥)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

تَعَالَى مِنَ القُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ، وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى نَبِيِّهِ مِنَ السُّنَّةِ أَيْضًا فَالعَمَلُ بِهِمَا بَاقٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَمِنَ الشُّبَهِ أَيْضًا الَّتِي يُثِيرُونَهَا أَعْدَاءُ المِلَّةِ وَالدِّينِ مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَإِلَى زَمَانِ الشَّيْخِ وَإِلَى زَمَانِنَا: أَنَّهُمْ يَنْتَقِدُونَ سُنَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ يَنْتَقِدُونَهَا فِي سَنَدِهَا وَفِي مَتْنِهَا وَفِي رُوَاتِهَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ المُحَدِّثِينَ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي رُوَاةِ الأَحَادِيثِ وَجَرَّحُوا وَضَعَّفُوا وَكَذَّبُوا.

فَيُقَالُ: إِنَّ السُّنَّةَ قَد انْبَرَى لَهَا العُلَمَاءُ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحَرَّرُوهَا وَبَيَّنُوا صَحِيحَهَا مِنْ حَسَنِهَا مِنْ ضَعِيفِهَا مِنْ مَوْضُوعِهَا، وَأَصَحُّ كِتَابٍ هُوَ كِتَابُ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، ثُمَّ مَا دُونَهُمَا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِم شَيْءٌ مِنَ الِافْتِرَاءِ أَوِ الكَذِبِ؛ فَإِنَّهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى هَذَا الوَحْيِ، نَقَلُوهُ إِلَيْنَا حَتَّى وَصَلَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الخَطَرَ العَظِيمَ الَّذِي كَانَ يُنْذِرُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الكَذِبِ عَلَيْهِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»(١)، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ سَخَّرَ لِهَذَا الدِّينِ وَلِهَذِهِ السُّنَّةِ مَنْ يَقُومُ بِحِمَايَتِهِمَا وَحِفْظِهِمَا، وَتَصْحِيحِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنَ الشُّبَهِ كَذَلِكَ: مَا يُثِيرُونَهُ مِنْ عَدَمِ الِاحْتِجَاجِ بِخَبَرِ الآحَادِ، وَهَذِهِ أَيْضًا حُجَّةٌ وَاهِيَةٌ بَاطِلَةٌ، بَلْ خَبَرُ الآحَادِ حُجَّةٌ يَلْزَمُ العَمَلُ بِهَا، وَهَذَا الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَالشُّبَهُ مُتَعَدِّدَةٌ وَكَثِيرَةٌ تَتَنَوَّعُ وَتَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنٍ إِلَى زَمَنٍ، وَالشَّيْخُ هُنَا رَحِمَهُ اللهُ يَذْكُرُ مَا قَالَهُ أَهْلُ زَمَانِهِ فِي هَذِهِ الشُّبَهِ الَّتِي بَثُّوهَا وَنَشَرُوهَا بَيْنَ النَّاسِ لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ دِينِ اللهِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الإِنْسَانُ كَذَلِكَ» قَائِمًا عَلَى هَذِهِ الشُّبَهِ «فَلْيُعْرِضْ عَنْهُمَا» عَنِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ «فَرْضًا حَتْمًا لَا شَكَّ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ» أَهْلُ الشُّبَهِ يَقُولُونَ هَكَذَا، يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الحَقَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(٢)، كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ بِالحَقِّ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَغْوَاهُمْ وَصَدَّهُمْ، وَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي يَتَّبِعُ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ وَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الجَاهِلُ وَالزِّنْدِيقُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم (١٠٨)، ومسلم في المقدمة- باب تغليظ الكذب على على رسول الله صلى الله عليه وسلم (١/ ٧).

(٢) سورة العنكبوت: ٣٨.

وَالمَجْنُونُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الحَيَاةَ، «وَمَنْ طَلَبَ الهُدَى مِنْهُمَا فَهُوَ إِمَّا زِنْدِيقٌ وَإِمَّا مَجْنُونٌ؛ لِأَجْلِ صُعُوبَةِ فَهْمِهِمَا» هَـذِهِ التُّهَمُ الَّتِي تُرْمَى عَلَى أَهْلِ الإِسْلَامِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هِيَ مِنْ وَسَائِلِ الشَّيْطَانِ وَأَلَاعِيبِهِ الَّتِي يَقْذِفُهَا فِي قُلُوبِهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ مَنِ اتَّبَعَ الحَقَّ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَيْفَ يَكُونُ مَجْنُونًا أَوْ زِنْدِيقًا أَوْ يَكُونُ سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا أَوْ شَاعِرًا أَوْ عَرَّافًا كَمَا جَاءَ فِي أَوْصَافِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنَ المُشْرِكِينَ؟! هَذَا هُوَ عَيْنُ الجَهْلِ وَالحُمْقِ وَالضَّلَالِ وَالبُعْدِ عَنْ دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَلِهَذَا اللهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ حِينَمَا تَمَسَّكُوا بِالكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[1]، إِذَا كَانَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَمَرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِهَذَا الوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُ؟! أَوْلَى وَأَحْرَى بِأَنْ يُحَثَّ وَيُذَكَّرَ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِهَذَا الدِّينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ العِبَادِ وَهُوَ الَّذِي حَكَمَ وَحُكْمُهُ الحَقُّ وَالعَدْلُ، قَالَ لِمَنِ اسْتَمْسَكَ بِهَذَا الدِّينِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ الِاسْتِمْسَاكَ بِهِمَا هُوَ عَيْنُ الجَهَالَةِ، وَيَتَعَيَّنُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمَا، وَلَا يَدْخُلُ الشَّكُّ فِي نَفْسِهِ وَلَا الإِشْكَالُ فِي ذَلِكَ، فَالْمُسْلِمُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِهَذِهِ الشُّبُهَاتِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ.

وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضًا يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ وَهَذَا الفِعْلِ، وَيَقُولُ: «فَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ! كَمْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ شَرْعًا وَقَدَرًا خَلْقًا وَأَمْرًا فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ المَلْعُونَةِ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى بَلَغَتْ إِلَى حَدِّ الضَّرُورِيَّاتِ العَامَّةِ»! كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ فِي الأَيَّامِ السَّابِقَةِ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ حِينَمَا يَذْكُرُ شُبْهَةً لِلْمُشْرِكِينَ أَوْ لِلْمُنَافِقِينَ يَرُدُّ عَلَيْهَا مُبَاشَرَةً، وَالشَّيْخُ يُشِيرُ إِلَى مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَيَقُولُ: «كَمْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ شَرْعًا وَقَدَرًا خَلْقًا وَأَمْرًا فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ»؟! لَا تَأْتِي شُبْهَةٌ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ إِلَّا وَيَعْقُبُهَا الرَّدُّ مُبَاشَرَةً فِي السِّيَاقِ، أَوْ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَاقْرَؤُوا هَذَا كَثِيرًا كَمَا ذَكَرْنَا لَكُمْ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، «شَرْعًا»: أَيْ مَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي آيَاتِهِ الَّتِي تُتْلَى، وَفِي أَحْكَامِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «وَقَدَرًا»: بِمَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ

(١) سورة الأعراف: ١٧٠.

(٢) سورة الزخرف: ٤٣.

عَلَى عِبَادِهِ، قَضَى عَلَى بَعْضِهِمْ بِالهِدَايَةِ وَبَعْضِهِمْ بِالضَّلَالَةِ، ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(١)، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَتْ ذَلِكَ، فَهُوَ العَالِمُ الخَبِيرُ الَّذِي يَعْلَمُ اسْتِجَابَةَ عِبَادِهِ مِنْ عَدَمِهَا، وَ«خَلْقًا»: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا مِنَ النَّاسِ المُؤْمِنَ وَخَلَقَ مِنْهُمُ الكَافِرَ وَخَلَقَ مِنْهُمُ المُنَافِقَ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(٢).

«وَأَمْرًا»: بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبَهِ المَلْعُونَةِ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ: «مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى بَلَغَتْ إِلَى حَدِّ الضَّرُورِيَّاتِ العَامَّةِ»، يَعْنِي: أَنَّ الشَّيْخَ اسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الشُّبَهِ الَّتِي تُرَدُّ لِأَنَّهَا كُلَّهَا بَاطِلَةٌ، وَكُلُّ مَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ يَرُدُّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ، وَكُلُّ مَا فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ يَرُدُّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ، وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ هِيَ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَعَبَّدَهُ بِهِ، وَتَعَبَّدَ أُمَّتَهُ بِهَذَا الوَحْيِ؛ غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَالقُرْآنِ، لَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُبَلِّغُ هَذِهِ السُّنَّةَ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(٣)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٤).

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» وَلَعَلَّ هَذَا جُزْءٌ مِنْ آيَةٍ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُ الحَقَّ، وَلَا يَعْلَمُ التَّوْحِيدَ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَعْبُدُ اللهَ، بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى ضَلَالٍ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ لَكُمُ الكَلَامَ بِالتَّفْصِيلِ عَلَى مِثْلِ هَذَا بِالأَدِلَّةِ وَالآيَاتِ الوَاضِحَةِ.

ثُمَّ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا خَتَمَ هَذَا الأَصْلَ بِآيَةٍ فِي سُورَةِ يَس مُبَيِّنًا فِيهَا -فِي هَذِهِ الآيَةِ- أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ -أَصْحَابِ الشُّبَهِ وَالَّذِينَ يَرُدُّونَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ- قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الحَقِّ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ صَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الهِدَايَةِ، وَأَزَاغَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الاِتِّبَاعِ، فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة فاطر: ٨.

(٢) سورة التغابن: ٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (٧٤٣٨)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

(٤) سورة النجم: ٣، ٤.

(٥) سورة يس: ٧.

وَمَا دَامَ أَنَّ الشَّيْخَ ذَكَرَ هَذِهِ الآيَةَ نَأْخُذُ بَعْضًا مِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ، هَؤُلَاءِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُمْ لَنْ يَهْتَدُوا، وَلِهَذَا كَانَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا يُسَلِّي وَيُوَاسِي نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ بِأَنْ لَا يَتَحَسَّرَ وَلَا يَنْخَلِعَ فُؤَادُهُ عَلَى مَا يَجْرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2]، سَبَقَ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾، اللَّامُ هُنَا فِي قَوْلِهِ ﴿لَقَدْ﴾ تُسَمَّى بِاللَّامِ المُوَطِّئَةِ لِلْقَسَمِ، أَيْ: أَنَّ هُنَاكَ قَسَمًا مَحْذُوفًا قَبْلَ هَذِهِ اللَّامِ، وَتَقْدِيرُهُ: وَاللهِ لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ، إِذَنْ هَذِهِ الجُمْلَةُ جَاءَتْ فِيهَا ثَلَاثَةُ مُؤَكِّدَاتٍ:

المُؤَكِّدُ الأَوَّلُ: القَسَمُ المَحْذُوفُ.

الثَّانِي: اللَّامُ المُوَطِّئَةُ لِلْقَسَمِ.

الثَّالِثُ: حَرْفُ «قَدْ» الَّتِي جَاءَتْ لِتُفِيدَ التَّحْقِيقَ، ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾، وَهَذَا يَتَكَرَّرُ فِي القُرْآنِ، ﴿لَقَدْ﴾ يَتَكَرَّرُ، فَإِذَا جَاءَكَ فِي القُرْآنِ مِثْلُ هَذَا اللَّفْظِ فَقِسْ عَلَيْهِ هَذَا المَعْنَى.

وَجَاءَ فِي هَذِهِ الآيَاتِ بَعْضُ الأَلْفَاظِ الغَرِيبَةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾، الأَغْلَالُ: جَمْعُ غِلٍّ، وَهُوَ الَّذِي يَجْمَعُ الأَيْدِي إِلَى الأَعْنَاقِ، جَمْعُ الأَيْدِي إِلَى الأَعْنَاقِ.

وَفِي اللَّفْظِ الثَّانِي: ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾، جَمْعُ ذَقْنٍ، وَهُوَ مُلْتَقَى اللِّحْيَيْنِ، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جَمْعُ مُقْمَحٍ، بِصِيغَةِ اسْمِ المَفْعُولِ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ، الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ هَذَا يُقَالُ لَهُ: قَدْ قَمَحَ، ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾[3] كَلِمَةُ سَدًّا، سَدًّا قُرِئَتْ سُدًّا وَسَدًّا، وَهِيَ قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ، وَالسَّدُّ: هُوَ الحَاجِزُ الَّذِي يَسُدُّ طَرِيقَ الوُصُولِ إِلَى مَا وَرَاءَهُ، كَمَا جَاءَ فِي قِصَّةِ ذِي القَرْنَيْنِ فِي آخِرِ سُورَةِ الكَهْفِ بَيَانُ ذَلِكَ. هَذِهِ بَعْضُ الأَلْفَاظِ الغَرِيبَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ -نَعُودُ إِلَى الكَلِمَةِ الأُولَى-: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ تَسْمَعُونَ دَائِمًا «حَقَّ القَوْلُ» وَ«حَقَّتِ

(١) سورة الكهف: ٦.

(٢) سورة فاطر: ٨.

(٣) سورة يس: ٨.

الكَلِمَةُ» فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، «حَقَّ القَوْلُ» وَ«حَقَّتِ الكَلِمَةُ»، هَذِهِ الآيَةُ فِيهَا «حَقَّ القَوْلُ»، وَفِي السُّورَةِ نَفْسِهَا أَيْضًا فِيهَا: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١)، وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾(٢)، وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾(٣)، وَآيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَبَيَّنَ فِيهَا أَنَّ القَوْلَ «حَقَّ» عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.

وَيَأْتِي بِمَعْنَى حَقَّتِ الكَلِمَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٤)، ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾(٥)، كَلِمَةُ رَبِّكَ، كَلِمَةُ وَكَلِمَاتُ عَلَى القِرَاءَتَيْنِ.

إِذَنْ مَا الْمُرَادُ بِحَقَّ القَوْلُ وَبِحَقَّتِ الكَلِمَةُ؟ تَأَمَّلْ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى التَّفَاسِيرِ، فَإِنَّ خَيْرَ مَا يُفَسَّرُ بِهِ القُرْآنُ: القُرْآنُ بِالقُرْآنِ، تَفْسِيرُ القُرْآنِ بِالقُرْآنِ، فَإِذَا وَجَدْتَ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ فَلَا تَذْهَبْ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ مِنْ كِتَابِهِ؛ لِأَنَّ طُرُقَ التَّفْسِيرِ كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْوَاعٌ: أَوَّلُهَا: تَفْسِيرُ القُرْآنِ بِالقُرْآنِ؛ إِذَنْ كَيْفَ نَعْرِفُ هَذَا المَعْنَى؟

نَقُولُ: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ هُمْ أَهْلُ النَّارِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٦)، هَذَا تَمَامُ الكَلِمَةِ الَّتِي أَخَذَهَا اللهُ تَعَالَى، حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ، هَذِهِ الكَلِمَةُ؟

وَالقَوْلُ أَيْنَ هُوَ؟ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٧)، هُنَاكَ لَأَمْلَأَنَّ عِنْدَ الكَلِمَةِ، وَعِنْدَ حَقَّ القَوْلُ أَيْضًا لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ، فَإِذَنْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ القَوْلُ وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ هُمْ مَنْ؟ أَهْلُ النَّارِ. أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا.

---

(١) سورة يس: ٧٠.

(٢) سورة الصافات: ٣١.

(٣) سورة فصلت: ٢٥.

(٤) سورة يونس: ٩٦.

(٥) سورة الزمر: ٧١.

(٦) سورة هود: ١١٨، ١١٩.

(٧) سورة السجدة: ١٣.

وَالَّذِي يُعِينُكَ فِي مَعْرِفَةِ هَذِهِ الآيَاتِ هَذَا مَا نَقَلَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ مُخْتَارٍ الشِّنْقِيطِيُّ فِي كِتَابِهِ «تَفْسِيرِ أَضْوَاءِ البَيَانِ» الَّذِي هُوَ تَفْسِيرُ القُرْآنِ بِالقُرْآنِ، جَمْعُ النُّصُوصِ وَمَعْرِفَتُهَا.

سُؤَالٌ: هَلِ احْتَجْنَا إِلَى البَحْثِ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَاتِ؟ خَلَاصْ؛ مَا احْتَجْنَا إِلَى شَيْءٍ، وَلَا نَقْرَأُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ، كُتُبُ التَّفْسِيرِ يَقُولُونَ: حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ: العَذَابُ. حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ: العَذَابُ فِي النَّارِ وَالخِزْيُ فِي الدُّنْيَا، وَهَكَذَا. لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ حَقَّتِ الكَلِمَةُ وَحَقَّ القَوْلُ هُوَ دُخُولُ هَذِهِ النَّارِ، أَعَاذَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهَا.

إِذَنِ المُرَادُ بِالقَوْلِ وَالمُرَادُ بِالكَلِمَةِ: هُوَ مَا وَرَدَ فِي آيَةِ هُودٍ وَآيَةِ السَّجْدَةِ، افْهَمُوا هَذَا جَيِّدًا.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا شَبَّهَ حَالَ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ بِحَالٍ مُخْزِيَةٍ مُؤْلِمَةٍ جِدًّا، شَبَّهَ حَالَهُمْ بِحَالِ مَنْ رُبِطَتْ يَدَاهُ بِالأَغْلَالِ، ثُمَّ رُفِعَتْ، لَيْسَ إِلَى هُنَا، رُفِعَتْ إِلَى ذَقْنَيْهِ، وَرُبِطَتْ رَبْطَةً، فَرَأْسُهُ مُرْتَفِعٌ اضْطِرَارًا، قُلْنَا: إِنَّ كَلِمَةَ ﴿مُقْمَحُونَ﴾ أَيْ: رَافِعِي رُؤُوسَهُمْ، لَوْ وُضِعَتْ هَكَذَا لَكَانَ رَأْسُهُ إِلَى أَسْفَلَ، وَلَكِنَّ صَفْحَةَ يَدَيْهِ وُضِعَتْ عَلَى ذَقْنَيْهِ، وُضِعَتْ تَحْتَ ذَقْنَيْهِ، وَرُفِعَ وَشُدَّ بِهَا رَأْسُهُ، وَرُبِطَ فِيهَا عُنُقُهُ، فَأَصْبَحَ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ يَعْنِي: أَمَامَهُمْ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وَالسَّدُّ: هُوَ الحَاجِزُ الَّذِي يَمْنَعُ الوُصُولَ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ مِنَ الأَعْلَى ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لَا يُشَاهِدُونَ أَيْضًا، غُشِيَتْ أَبْصَارُهُمْ، فَلَا يَرَوْنَ فِي الأَمَامِ وَلَا يَرَوْنَ فِي الخَلْفِ وَلَا يَرَوْنَ فِي الأَعْلَى، قَدْ تَقُولُ: لَا يَرَوْنَ فِي الشِّمَالِ وَلَا فِي اليَمِينِ؟ مَا ذَكَرَ هَذَا، ذَكَرَ جِهَتَيْنِ، هُمَا الأَمَامُ وَالخَلْفُ، أَمَّا اليَمِينُ وَالشِّمَالُ فَلَمْ يَذْكُرْهُمَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الغِشْيَ الَّذِي جَاءَ عَلَى الأَعْيُنِ غَطَّى كُلَّ شَيْءٍ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾[1] جَعَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، وَجَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الرَّانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُونَ فِيهِ وَلَا يَعْقِلُونَ، فَهَذِهِ شِدَّةُ النَّكَالِ وَالعَذَابِ.

فَالمُرَادُ بِهَذِهِ الآيَةِ هِيَ بَيَانٌ لِحَالِ الأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ سَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ، وَأَنَّهُ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا، فَلَمَّا كَانُوا كَذَلِكَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ العَظِيمَةِ الدَّقِيقَةِ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] يَعْنِي: يَسْتَوِي الأَمْرَانِ؛ الإِنْذَارُ وَعَدَمُ

(١) سورة البقرة: ٧.

(٢) سورة يس: ١٠.

الإِنْذَارِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى عَنِ الكَافِرِينَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سَوَاءٌ أَنْذَرْتَ أَمْ لَمْ تُنْذِرْ، وَهُنَا قَالَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَا تُنْذِرْهُمْ؛ لِأَنَّهُ الخِطَابُ لِأَجْلِهِمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ البَلَاغُ لِمَنْ قَبِلَ وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ؛ لِأَنَّ الأَمْرَ فِي عِلْمِ اللهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾[2] إِذَنْ فِي ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هُنَا الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ؟ فِيهِ وَجْهَانِ:

قِيلَ: يَعُودُ إِلَى الأَغْلَالِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، ﴿فَهُمْ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الأَغْلَالِ؛ لِأَنَّهَا المُرَادَةُ وَهِيَ المَذْكُورَةُ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ﴾ عَائِدٌ إِلَى الأَيْدِي وَإِنْ لَمْ تُذْكَرْ لِدِلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الغِلِّ هُوَ فِي الأَيْدِي، لَكِنْ لَمَّا غُلَّتِ الأَيْدِي رُفِعَتْ إِلَى الأَعْنَاقِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[3] غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ، فَغُلَّتْ هَذِهِ الأَيْدِي وَرُفِعَتْ مَعَ هَذِهِ الأَغْلَالِ إِلَى العُنُقِ مَعَ الذَّقَنِ.

وَبَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ يَقُولُ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إِنَّ هَذَا حِكَايَةٌ عَمَّا يَنَالُونَهُ فِي العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا حَاصِلٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[4]، ذَكَرَ أَنَّ هَذَا حَالُهُمْ فِي النَّارِ، لَكِنَّ المَقْصُودَ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الآيَاتِ هُوَ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ، تَصْوِيرُ حَالِهِمْ وَعَدَمِ قَبُولِهِمْ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَصَرَفَهَا عَنِ الحَقِّ فَهِيَ لَا تَقْبَلُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾[5]، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ المُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) سورة يس: ١١.

(٣) سورة المائدة: ٦٤.

(٤) سورة غافر: ٧١، ٧٢.

(٥) سورة الأنعام: ١١١.

يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ صَرَفَهَا عَنِ الحَقِّ، ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أَيْ: زَاغُوا عَنِ الحَقِّ وَعَنِ الاِتِّبَاعِ وَالاِنْقِيَادِ وَالاِسْتِجَابَةِ ﴿أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِمَ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الآيَةِ: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَتْ ذَلِكَ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3] بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَتْ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ شُؤْمَ المَعَاصِي عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ يَجُرُّ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، المَعْصِيَةُ تَجُرُّ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَيُفْهَمُ ذَلِكَ أَيْضًا مِنَ المُخَالَفَةِ، مُخَالَفَةِ السِّيَاقِ، وَهُوَ أَنَّ فِعْلَ الخَيْرِ يُؤَدِّي إِلَى الاِسْتِمْرَارِ فِي فِعْلِ الخَيْرِ وَيَتَزَوَّدُ بِهِ الإِنْسَانُ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[4]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[5]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾[6]، وَأَمَّا الَّذِينَ الَّذِينَ يُوغِلُونَ فِي المَعَاصِي وَلَا يَتَذَكَّرُونَ وَلَا يَتَّعِظُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ فَإِنَّهُمْ يَزْدَادُونَ مَعْصِيَةً إِلَى مَعْصِيَةٍ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[7]، قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ.

فَشَبَّهَ اللهُ تَعَالَى حَبْسَ هَؤُلَاءِ بِهَذِهِ الأَغْلَالِ الَّتِي وُضِعَتْ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَبِعَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ، لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، شَبَّهَ اللهُ تَعَالَى بِالخَتْمِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الهُدَى وَلَا تَقْبَلُ الإِيمَانَ، فَقُلُوبُهُمْ مَسْدُودَةٌ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ، كَمَا أَنَّ حَالَهُمْ قَدِ انْسَدَّتْ مِنْ طُرُقِ الخَيْرِ.

وَقُلْنَا: إِنَّ الَّذِي فَسَّرَ الآيَةَ بِأَنَّهَا الأَغْلَالُ الَّتِي فِي النَّارِ فَهَذَا خِلَافُ مَا جَاءَ عَلَيْهِ التَّحْقِيقُ، إِنَّ المَقْصُودَ بِهَذَا فِي سِيَاقِ الآيَةِ أَوِ السُّورَةِ لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا خُرُوجَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الهِجْرَةِ وَجَعَلَ عَلِيًّا مَكَانَهُ خَرَجَ

(١) سورة التوبة: ١٢٧.

(٢) سورة الصف: ٥.

(٣) سورة فاطر: ٨.

(٤) سورة محمد: ١٧.

(٥) سورة مريم: ٧٦.

(٦) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٧) سورة المطففين: ١٤، ١٥.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَعْيُنِهِمُ الغِشَاوَةَ وَلَا يَرَوْنَ وَلَا يُشَاهِدُونَ، وَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَصَلَ لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[1]، هُنَا ﴿إِنَّمَا﴾ حَصْرٌ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الإِنْذَارُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ، الإِنْذَارُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي يَنْفَعُ وَيُفِيدُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ وَلِمَنْ خَشِيَ اللهَ، وَلِهَذَا فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُكَلَّفٌ بِالبَلَاغِ وَالإِنْذَارِ لِمَنْ سَمِعَ، لِمَنِ اسْتَجَابَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ، لَكِنْ مَنِ اسْتَفَادَ مِنْ هَذَا الإِنْذَارِ؟

الَّذِي يَستَفِيدُ مِنْ هَذَا الإِنْذَارِ هُوَ المُتَّبِعُ، وَهُوَ الَّذِي يَخْشَى اللهَ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[2]، فَالإِنْذَارُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ تَوَفَّرَ فِيهِ أَمْرَانِ، وَهُمَا: الِاتِّبَاعُ وَالخَشْيَةُ، وَالِاتِّبَاعُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ تَوَفَّرَ فِيهِ أَمْرَانِ أَيْضًا: تَصْدِيقُ أَخْبَارِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَالإِيمَانُ بِهَا، تَصْدِيقُ الخَبَرِ عَنِ اللهِ وَاعْتِقَادُهُ، وَالأَمْرُ الثَّانِي: امْتِثَالُ الأَمْرِ وَاجْتِنَابُ النَّهْيِ، هَذَا هُوَ المُتَّبِعُ، تَصْدِيقُ الخَبَرِ وَامْتِثَالُ الأَمْرِ وَاجْتِنَابُ النَّهْيِ، وَالخَشْيَةُ أَيْضًا، هَذَا هُوَ الأَمْرُ الثَّانِي مِنَ الأَمْرَيْنِ الأَوَّلَيْنِ.

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[3] وَجَاءَ بِكَلِمَةِ الغَيْبِ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَوْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَكِبَ مَحْظُورًا فَإِنَّهُ يَخْشَى أَمَامَ النَّاسِ، يُحَقِّقُ الخَشْيَةَ لَكِنْ أَمَامَ النَّاسِ، لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا فِي العَلَنِ ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، فَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ بِالغَيْبِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الإِيمَانِ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَإِذَا خَلَا الإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِظُلْمٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوِ ارْتِكَابِ مُحَرَّمٍ تَذَكَّرَ رَبَّهُ وَتَذَكَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى القَائِلَ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[4] وَجَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي بِحَسَنَاتٍ كَأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». فَيَسْأَلُ ثَوْبَانُ: صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «إِنَّهُمْ

(١) سُورَة يَس: ١١.

(٢) سورة الأنعام: ١٨، ١٩.

(٣) سورة يس: ١١.

(٤) سورة الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠.

يَعْمَلُونَ كَمَا تَعْمَلُونَ، وَيَتَحَدَّثُونَ كَمَا تَتَحَدَّثُونَ -أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[1]، يَعْنِي: أَنَّهُ غَابَ عَنْهُمُ الإِيمَانُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، ارْتَفَعَ عَنْهُمُ الإِيمَانُ فَلَمْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ فِي حَالِ الغَيْبِ.

وَلِهَذَا امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى أَهْلَ الإِيمَانِ المُسْتَجِيبِينَ لِلْإِنْذَارِ بِأَنَّهُمْ هُمُ المُتَّبِعُونَ وَهُمُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ، وَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالمَغْفِرَةِ وَالأَجْرِ العَظِيمِ، لِمَنْ حَقَّقَ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ وَعَدَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِالمَغْفِرَةِ وَالأَجْرِ العَظِيمِ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[2]، وَهَذِهِ الآيَةُ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3]، فَالَّذِي يَخْشَى اللهَ تَعَالَى وَيَعْبُدُهُ وَيَسْتَجِيبُ لِأَمْرِهِ وَلَا يَنْقَادُ وَلَا يَسْتَجِيبُ لِهَذِهِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي ذَكَرَ شَيْئًا مِنْهَا -الشَّيْخُ- فَهُوَ جَدِيرٌ بِمَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَثَوَابِهِ وَأَجْرِهِ.

وَآخِرُ مَا خَتَمَ بِهِ الشَّيْخُ هُوَ: «وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ» عَلَى مَنْهَجِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدِ افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالحَمْدِ، وَافْتَتَحَ خَلْقَهُ بِالحَمْدِ، وَاخْتَتَمَ خَلْقَهُ بِالحَمْدِ، وَجَعَلَ آخِرَ كَلَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ الحَمْدَ:

افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالحَمْدِ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وَافْتَتَحَ خَلْقَهُ بِالحَمْدِ ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[5]، وَاخْتَتَمَ خَلْقَهُ بِالحَمْدِ فِي آخِرِ سُورَةِ الزُّمَرِ خَتَمَ خَلْقَهُ بِـ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]، وَكَلَامُ أَهْلِ الجَنَّةِ حِينَمَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يَحْمَدُونَ اللهَ، ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾[7].

هَذَا هُوَ مَنْهَجُ القُرْآنِ الكَرِيمِ، هَذَا آخِرُ مَا تَيَسَّرَ مِمَّا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي فِيهَا الدِّلَالَةُ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَبَيَانُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ وَحُسْنِ الاِتِّبَاعِ وَالانْقِيَادِ لِأَوَامِرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَعَدَمِ تَأَثُّرِهِمْ بِمُتَعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَأَيْضًا بِعَدَمِ انْخِدَاعِهِمْ بِكَثْرَةِ أَهْلِ البَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد- باب ذكر الذنوب (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٢٨).

(٢) سورة يس: ١١.

(٣) سورة الملك: ١٢.

(٤) سورة الفاتحة: ٢.

(٥) سورة الأنعام: ١.

(٦) سورة الزمر: ٧٥.

(٧) سورة الأعراف: ٤٣.

كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَقْرِيرِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ وَتَقْرِيرِ كَلَامِ الشَّيْخِ أَنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ دَائِمًا، وَأَهْلَ البَاطِلِ هُمُ الأَكْثَرُونَ كَمَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنَ الآيَاتِ الكَثِيرَةِ، فَالإِنْسَانُ إِذَا رَأَى كَثْرَةَ البَاطِلِ لَا يَنْخَدِعُ بِهِمْ، وَإِنَّمَا يَحْرِصُ عَلَى الدَّعْوَةِ وَعَلَى طَلَبِ العِلْمِ وَالتَّزَوُّدِ مِنَ العِلْمِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ.

وَيَحْرِصُ طَالِبُ العِلْمِ أَيْضًا عَلَى أَنْ يَتَزَوَّدَ دَائِمًا مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي يَنْفَعُهُ وَيُفِيدُهُ حَسَبَ مَا قَرَّرَهُ الشَّيْخُ فِي هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ القَائِمَةِ أَوَّلًا عَلَى الإِخْلَاصِ لله، فَإِنَّ طَالِبَ العِلْمِ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهِ أُمُورٌ:

أَوَّلُهَا: الإِخْلَاصُ؛ إِخْلَاصُ العَمَلِ، إِخْلَاصُ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ، فَإِنَّ العِلْمَ عِبَادَةٌ كَسَائِرِ العِبَادَاتِ، يَلْزَمُ العَبْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُخْلِصًا لله تَعَالَى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾[1]، وَالعِلْمُ عِبَادَةٌ، ثُمَّ إِذَا تَعَلَّمَ هَذَا العِلْمَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِالتَّدَرُّجِ فِيهِ، وَيَبْدَأَ بِصِغَارِ المَسَائِلِ وَهَكَذَا، وَلَا يَنْقَطِعَ عَنِ العِلْمِ وَلَا يَمَلَّ وَلَا يَكِلَّ كَمَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ وَصِيَّةِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

ثُمَّ أَيْضًا: يَحْرِصُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ، فَإِنَّ طَلَبَ العِلْمِ فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَبَذْلُ جُهْدٍ وَوَقْتٍ وَرَاحَةٍ، فِيهِ رَاحَةٌ يَبْذُلُهَا الإِنْسَانُ وَهُوَ يَطْلُبُ العِلْمَ، وَيَصْبِرُ عَلَى العَنَاءِ وَالمَشَقَّةِ وَالذَّهَابِ وَالإِيَابِ، ثُمَّ أَيْضًا يَحْتَسِبُ لله تَعَالَى هَذَا الطَّلَبَ.

ثَالِثًا: يَحْرِصُ عَلَى العَمَلِ بِهَذَا العِلْمِ فَإِنَّ العَمَلَ بِهِ يَزِيدُهُ وَيُثَبِّتُهُ، العَمَلُ بِالعِلْمِ يَزِيدُهُ وَيُثَبِّتُهُ، وَالعَمَلُ هُوَ هِدَايَةٌ لِلطَّرِيقِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[2].

ثُمَّ رَابِعًا: يَجْتَهِدُ فِي دَعْوَةِ غَيْرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ إِلَى هَذَا العِلْمِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الآيَةِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3]، فَإِنَّ رِسَالَةَ العِلْمِ أَعْظَمُ رِسَالَةٍ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، وَأَشْرَفُ مَكَانٍ يَنَالُهُ الإِنْسَانُ هُوَ شَرَفُ العِلْمِ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ النَّاظِمِ:

كَمَالُ الفَتَى بِالعِلْمِ لَا بِالمَنَاصِبِ ... وَرُتْبَةُ أَهْلِ العِلْمِ أَسْنَى المَرَاتِبِ
هُمُ وَرِثُوا عِلْمَ النَّبِيِّينَ فَاهْتَدَى ... بِهِمْ كُلُّ سَارٍ فِي الظَّلَامِ وَسَارِبِ

(١) سورة محمد: ١٩.

(٢) سورة محمد: ١٧.

(٣) سورة التوبة: ١٢٢.

وَلَا فَخْرَ إِلَّا إِرْثُ شِرْعَةِ أَحْمَدَ وَلَا فَضْلَ إِلَّا بِاكْتِسَابِ المَنَاقِبِ

العِلْمُ هُوَ الَّذِي يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢)، وَقَالَ أَيْضًا: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٣).

فَأُوصِي نَفْسِي وَأُوصِيكُمْ بِهَذِهِ الأُمُورِ العَظِيمَةِ الَّتِي اسْتَمَعْنَا إِلَيْهَا وَقَرَأْنَاهَا وَتَدَارَسْنَاهَا مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ.

الأَسْئِلَةُ:

السُّؤَالُ: هَلْ ذُكِرَ فَضْلٌ لِسُورَةِ يَس؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، ذُكِرَ لَهَا فَضْلٌ مِنْ فَضَائِلِ السُّوَرِ، وَالإِنْسَانُ إِذَا قَرَأَ فِي فَضَائِلِ السُّوَرِ يَحْرِصُ عَلَى مَا صَحَّ مِنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا قَدْ وُضِعَ فِي فَضَائِلِ السُّوَرِ الشَّيْءُ الكَثِيرُ، قَدْ يَكُونُ مِنْهَا ضَعِيفًا وَبَعْضُهَا مَوْضُوعًا.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الصَّالِحِينَ قَلِيلٌ بِأَدِلَّةٍ مِنَ القُرْآنِ؟

الجَوَابُ: أَهْلُ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ، هَذَا كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٤)، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، هَذَا اسْتِدْلَالٌ صَحِيحٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ ذَلِكَ.

السُّؤَالُ: مَا الفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِنَا: شُبْهَةُ فُلَانٍ كَذَا. وَقَوْلِنَا: حُجَّةُ فُلَانٍ كَذَا؟

الجَوَابُ: الشُّبْهَةُ غَيْرُ الحُجَّةِ؛ الحُجَّةُ قَدْ تَكُونُ صَحِيحَةً وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ، وَالشُّبْهَةُ بَاطِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ أَصْلًا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَلَاعِيبِ الشَّيْطَانِ، فَالشُّبْهَةُ بَاطِلَةٌ وَمَدْحُوضَةٌ، وَغَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وَأَمَّا الحُجَّةُ فَقَدْ تَكُونُ حُجَّةً صَحِيحَةً، أَوْ حُجَّةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا يُحَاجُّونَ، وَلَكِنَّ حُجَجَهُمْ كَانَتْ لَيْسَتْ صَحِيحَةً: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾(٥)، فَالحُجَّةُ تَكُونُ صَحِيحَةً بِالدَّلِيلِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن- باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (٧١)، ومسلم في كتاب الزكاة- باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

(٤) سورة سبأ: ١٣.

(٥) سورة آل عمران: ٦٦.

الصَّحِيحِ، وَتَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ بِغَيْرِ الدَّلِيلِ.

السُّؤَالُ: عِنْدَنَا فِي القُرَى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مَسْحُورًا يُجْعَلُ فِي بَيْتِهِ ذِئْبٌ حَيٌّ، وَيُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ يَأْكُلُ الشَّيَاطِينَ.

الجَوَابُ: هَذِهِ أَيْضًا مِنْ شُبَهِ الشَّيْطَانِ لِعَوَامِّ النَّاسِ، وَإِلَّا هَذَا فِيهِ ضَعْفٌ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَضَعْفٌ فِي إِيمَانِ هَذَا الإِنْسَانِ، إِذَا كَانَ يُؤْمِنُ بِأَرْكَانِ الإِيمَانِ كُلِّهَا وَمُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ يَسْعَى إِلَى مُعَالَجَةِ هَذَا السِّحْرِ بِالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا يَأْتِي بِحَيَوَانَاتٍ أَوْ سِبَاعٍ لِتَمْنَعَ هَذَا الشَّرَّ، يَنْبَغِي عَلَى الإِنْسَانِ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا وَأَنْ يَبْتَعِدَ، أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ لِلصَّائِمِ أَنْ يُفْطِرَ بِغَيْرِ التَّمْرِ أَوِ المَاءِ مَعَ وُجُودِهِمَا؟

الجَوَابُ: خَالَفَ السُّنَّةَ، النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُفْطِرُ عَلَى تَمَرَاتٍ وَعَلَى رُطَبٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ، وَهَذَا مِنَ السُّنَّةِ، وَالإِنْسَانُ مُطَالَبٌ أَنْ يُطَبِّقَ السُّنَّةَ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، وَفِي مَأْكَلِهِ وَفِي مَشْرَبِهِ، وَفِي مَنَامِهِ وَفِي يَقَظَتِهِ؛ هَذَا مِنَ السُّنَّةِ الإِنْسَانُ يَسْعَى مَعَ أَنَّ -الحَمْدُ للهِ- هَذَا شَيْءٌ مُتَوَفِّرٌ الآنَ.

السُّؤَالُ: إِذَا أَتَى الشَّيْطَانُ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُقَاوَمَتَهُ وَفَعَلْتُ مَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ، فَهَلْ يَجُوزُ قَطْعُ الصَّلَاةِ؟

الجَوَابُ: لَا تَقْطَعِ الصَّلَاةَ، لَا يَجُوزُ، هَذِهِ مِنْ أَلَاعِيبِ الشَّيْطَانِ أَيْضًا، هَذِهِ مِنَ شُبَهِهِ، يَقُولُ: صَلَاتِي غَيْرُ كَامِلَةٍ. أَنَا أَتَيْتُ بِالصَّلَاةِ مَا قَرَأْتُ الفَاتِحَةَ. مَا قُلْتُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى. اقْطَعِ الصَّلَاةَ، هَذِهِ مِنْ أَلَاعِيبِ الشَّيْطَانِ.

لَكِنَّكَ إِذَا الْتَزَمْتَ بِمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي الدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ، هُنَاكَ -يَا إِخْوَانُ- مَا يُسَمَّى بِالتَّهَيُّؤِ النَّفْسِيِّ لِلدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ، أَوَّلُهَا: هُوَ الوُضُوءُ، وَقَبْلَ الوُضُوءِ «بِسْمِ اللهِ»، ثُمَّ الوُضُوءُ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي مِنَ الوُضُوءِ يَقُولُ الدُّعَاءَ المَعْرُوفَ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى المَسْجِدِ، ثُمَّ عِنْدَمَا يَدْخُلُ المَسْجِدَ يَضَعُ رِجْلَهُ اليُمْنَى، ثُمَّ يَدْعُو الدُّعَاءَ، ثُمَّ يَذْهَبُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَقْرَأُ مَا يَتَيَسَّرُ، ثُمَّ يَسْمَعُ الإِقَامَةَ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الإِمَامُ وَيُكَبِّرُ مَعَهُ، تَهْيِئَةٌ كَامِلَةٌ، لَيْسَ الإِنْسَانُ يَدْخُلُ أَوْ يَقُومُ مِنْ نَوْمِهِ وَيَذْهَبُ وَيُصَلِّي، لَا، هَذِهِ التَّهْيِئَةُ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى أَسْبَابًا لِلدُّخُولِ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ.

وَالإِنْسَانُ كَمَا يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ لِلْعَبْدِ مَوْقِفَيْنِ أَمَامَ اللهِ، مَوْقِفٌ فِي الدُّنْيَا، وَمَوْقِفٌ فِي الآخِرَةِ، فَإِنْ أَحْسَنَ المَوْقِفَ الأَوَّلَ أَمِنَ فِي المَوْقِفِ الثَّانِي، وَالمَوْقِفُ الأَوَّلُ هُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيُحْسِنِ العَبْدُ مَوْقِفَهُ فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يُنَاجِي المَلِكَ القُدُّوسَ السَّلَامَ المُؤْمِنَ المُهَيْمِنَ العَزِيزَ الجَبَّارَ المُتَكَبِّرَ جَلَّ جَلَالُهُ».

السُّؤَالُ: مَا المُرَادُ: إِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ؟

الجَوَابُ: تَقَدَّمَ هَذَا الكَلَامُ، قُلْنَا: إِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ وَبِمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ وَبِمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، وَبِمَا عَلِمَ، فَهُوَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ كَيْفَ كَانَ، فَهُوَ الَّذِي قَدَّرَ المَقَادِيرَ، وَيَعْرِفُ أَنَّ هَذَا العَبْدَ غَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ، وَهَذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ، وَقَدْ كُتِبَتْ لَهُ هَذِهِ الأُمُورُ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَكُتِبَ عَلَيْهِ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ بِحِكْمَتِهِ البَالِغَةِ، فَالإِنْسَانُ يُسَلِّمُ لِأَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

هَذَا مَا تَيَسَّرَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَأَسْأَلُ اللهَ لِي وَلَكُمُ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ.